العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية
قسم الاستشراق

قراءة نقدية في (تاريخ القرآن)

للمستشرق ثيودور نولدكه

حسن علي حسن مطر الهاشمي

شبكة الفكر
alfeker.net

قراءة نقدية في (تاريخ القرآن)

للمستشرق ثيودور نولدكه

بسم الله الرحمن الرحيم

العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

قراءة نقدية في (تاريخ القرآن)
للمستشرق ثيودور نولدكه

المؤلف: حسن علي حسن مطر الهاشمي

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع

الإخراج الفني: نصير شكر

الطبعة : الأُولى ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

الإهداء..

إلى رسول الإنسانية محمّد بن عبدالله ﷺ ..

وإلى روح والدتي التي اقـترن رحيلهـا المفـاجئ عن هذه الدنيا الفانية، بولادة هذا الكتاب..

المقدمة

إن كتاب (تاريخ القرآن) لشيخ المستشرقين الألمان (ثيودور نولدكه)، قد مرّ بعدّة منعطفات، فقد كان في بدايته عبارة عن أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كتبها باللغة اللاتينية عام ١٨٥٦م في جزء واحد، وقد تناول فيه آنذاك ظاهرة الوحي وشخصية النبيّ الأكرم ﷺ، وترتيب نزول القرآن من الناحية الزمنية، ثمّ نقله بعد أربع سنوات إلى اللغة الألمانية، وقام بنشره بعد أن أدخل فيه بعض التعديلات الجوهرية، وذلك في عام ١٨٦٠م.

ولكنه سرعان ما حكم عليه فيما بعد بأنه عملٌ غير ناضج، وأنه أنجزه بشكل متسرّع. وقد فضّل أن يتركه طيّ النسيان، حتى فوجئ بعد ذلك بنصف قرن تقريباً، أي في عام ١٨٩٨م بالتحديد، من قبل الناشر يسأله عمّا إذا كان يرغب في إخراج طبعة ثانية له، ولما لم يكن في وسعه ـ لأسبابٍ عديدة ـ أن يمنح العمل الشكل الذي يُرضيه، فقد فضل أن يعهد بهذه المهمة إلى تلميذه وصديقه الأستاذ (فريدريش

شفاللي)، فقام هذا بإتقان عمله بحدود الإمكان، ومع ذلك لم يرض (نولدكه) عن هذه الطبعة الثانية كلّ الرضا، معتبراً أنّ مسؤوليتها يتقاسمها اثنان. وهكذا كانت الطبعة الثانية للجزء الأول عملاً مشتركاً بين علمين من أعلام الاستشراق هما: (نولدكه)، و(شفاللي). وقد أردفه شفاللي بجزءٍ ثانٍ. وبعد وفاة شفاللي المبكرة، تصدى (برجشترسير)، و(بريتسل) لإصدار الكتاب كاملاً بعد إضافتهما الجزء الثالث. وعلى هذا النحو خرج الكتاب بشكله النهائي عام ١٩٣٥م، بثلاثة أجزاء. وذلك بعد خمس سنوات على وفاة (ثيودور نولدكه). وهكذا ندرك أن كتاب (تاريخ القرآن) لم يكن عملاً لرجل واحد، بل هو عملٌ تعهدته مؤسسة استشراقية تنتمي إلى مدرسة (نولدكه)، وقد تعاقبت على إنجازه ثلاثة أجيال.

تجدر بنا الإشارة هنا إلى أننا اعتمدنا في نقدنا لهذا الكتاب على الطبعة العربية الأولى، وهي من تعريب الأستاذ (جورج تامر)، المدعومة من مؤسسة (كونراد ـ أدناور) الألمانية.

وإذ اخترنا لدراستنا النقدية هذه عنوان: (قراءة نقدية في تاريخ القرآن للمستشرق ثيودور نولدكه)، فقد عقدنا العزم على أن لا تتجاوز الدراسة أكثر من عنوانين من العناوين المبحوثة في جميع الأجزاء الثلاثة من هذا الكتاب، وهما: خصوص مفهوم الوحي، وترتيب النزول.

ولذلك سوف نتناول في هذه الدراسة (ظاهرة الوحي)، و(ترتيب نزول السور القرآنية) عند المستشرق (ثيودور نولدكه)، في فصلين مستقلين عن بعضهما. ولما كان الأستاذ ثيودور نولدكه يعتبر من أقطاب المستشرقين، بل شيخ المستشرقين الألمان على الإطلاق، كان لزاماً علينا إضافة فصل آخر نأخذ فيه مفهوم الاستشراق وتاريخه ومدارسه وغاياته، مع بيان موقع (نولدكه) فيه، ليكون بمنزلة المدخل لدراستنا. من هنا سيكون منهجنا في هذا النقد جامعاً بين التوجه التاريخي والكلامي.

إنّ البحث في ظاهرة الوحي قديم جداً، وكذلك هو الحال بالنسبة إلى بيان ترتيب نزول سور القرآن الكريم.

إلا أن التطرّق إلى حقيقة الوحي من زاوية الاستشراق العلماني والمادي لم يحدث إلا بعد عصر النهضة والنزعة المادية التي سادت الغرب، وكان ذلك من أسباب ونتائج التمرّد على الكنيسة نفسها، بسبب ممارساتها التعسفية السابقة بحقّ العلم والعلماء. إلا أن هذا النهج العلماني والمادي سرعان ما تخلى عن ردود فعله المبالغ فيها، لما وقفت عليه المؤسسات العلمية الغربية وحتى التجريبية منها على حقيقة الوحي ووجود قوى وراء العناصر المادية وما نشعره بحواسنا الظاهرية الخمسة.

أما فيما يتعلق بترتيب نزول السور القرآنية ترتيباً زمنياً فهو

عند المسلمين يعود إلى الصدر الإسلامي الأول، كما نجد ذلك في مصحف الإمام علي عليه السلام، والترتيب المنسوب لابن عباس.

أما محاولات المستشرقين في هذا الاتجاه فتعود إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر للميلاد، وهي في معظمها تعتمد الأسلوب العقلي والاجتهادي، وفي هذا السياق تصبّ المحاولة التي قام بها (ثيودور نولدكه)، معتمداً في ذلك على إشارات ومحاولات إسلامية واستشراقية سابقة.

لقد كانت ظاهرة الوحي من المسائل التي شغلت ذهن الإنسانية منذ القدم، من هنا فقد كثرت فيها الآراء وتعدّدت الاتجاهات، وقد اتخذت عبر الزمن أشكالاً وصيغاً مختلفة، حتى انتهت في القرون الأخيرة إلى صيغتها الأخيرة ـ وخاصة فيما يتعلق بالوحي الذي نزل على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله ـ على ألسنة المستشرقين والمتأثرين بهم من المثقفين المسلمين. ولما كانت هذه المحاولات من الذكاء والتستر وراء حجاب الحيادية بحيث تؤثر حتى على الأجيال المسلمة، فإن أهمية هذا البحث لا يمكن إغفالها بحال من الأحوال.

كما أن لمعرفة ترتيب النزول فوائد جمة لا يمكن أن تحصى، سواء على الصعيد التاريخي والكلامي والفقهي، فإننا إذا توصلنا إلى معرفة أن هذه السورة قد نزلت في هذه الفترة المحددة، وقبل أو بعد تلك السورة، سندرك الكثير من الحقائق التي لا يسعنا إدراكها لولا

معرفة التاريخ واليوم والساعة التي نزلت فيها تلك السورة. وهذه مسألة لا تخفى أهميتها وتعقيدها على من خبر مثل هذا البحث.

ستكون هيكلية بحوث هذا الكتاب مؤلفة من ثلاثة فصول وخاتمة، على النحو الآتي:

الفصل الأول: في الاستشراق، تحت عنوان: **(موقع نولدكه في الدراسات الاستشراقة والقرآنية)**. وسوف نفتتحه بدراسة حركة الاستشراق تاريخياً، ونتعرض فيه لغاياته، وأهدافه، ومدارسه. مع ذكر مناهج المستشرقين، وأهم ما قام به المستشرقون من الأعمال القرآنية، وصولاً إلى (ثيودور نولدكه).

الفصل الثاني: في ظاهرة الوحي، تحت عنوان: **(ظاهرة الوحي عند نولدكه)**، ونتعرض فيه لمفهوم الوحي، وتطوره عند الغرب، وصولاً إلى نظرية (ثيودور نولدكه) في الوحي بشكل عام. وكيف تعامل مع الوحي النازل على نبيّنا الأكرمﷺ بشكل خاص.

الفصل الثالث: في الترتيب الزمني لنزول القرآن، تحت عنوان: **(نظرية نولدكه في الترتيب الزمني لنزول القرآن)**، وسوف نتناول فيه أهم النظريات الإسلامية والاستشراقية في بيان ترتيب نزول القرآن، وصولاً إلى نظرية (نولدكه)، ومقارنتها بنظرية المهندس (مهدي بازركان)، في ترتيبه لسور القرآن، من حيث الحياديّة والسلامة من

التأثر بالرواية التاريخية. لننتهي بعدها إلى خاتمة مفادها عدم نجاح أي واحدة من هذه المحاولات.

وفي الختام أودّ التنويه إلى أنني على الرغم من الجهد الذي بذلته، واضطراري إلى السهر أحياناً حتى مطلع الفجر، لا أدعي العصمة من الخطأ. وتمام معوّلي في ذلك على سعة صدر القارئ، بأن يوفر لي حسناتي إن كانت هناك من حسنات، ليمحو بها ما سيعثر عليه من الهفوات. وإنني إن أخطأت فمن عندي، وإن أصبت فبرحمةٍ من ربّي.

ولا يفوتني أن أتقدّم بالشكر الجزيل إلى جميع إخوتي الكرام على ما أغدقوه عليّ من عطفهم وملاحظاتهم القيّمة، والله أسأل أن يأخذ بأيديهم ويديّ إلى حيث الهداية والسعادة والنعيم، إنه كريم مجيب.

حسن علي حسن مطر الهاشمي

***

الفصل الأول

موقع (نولدكه) في الدراسات
الاستشراقية والقرآنية

- ١ -

مدخل تاريخي لحركة الاستشراق

يجدر بنا قبل كل شيء أن نتعرف معنى الاستشراق، وبداياته التاريخية، والأهداف والتطلعات التي نشأ من أجلها.

وسندرك من خلال طيات هذا الفصل، أنّ بدايات الاستشراق إنما كانت ضمن جهود فردية، وحركات عفوية في غالبها، ثم انتظم بعضها عبر التاريخ ولمختلف الأسباب، ضمن مؤسسات وجدت في المستشرقين ضالتها. إذ أدركت أنّ بإمكانها الوصول إلى غاياتها، وأهدافها، ومطامحها الدينية التبشيرية، أو الاقتصادية، أو الاستعمارية، من طريق تنظيم جهودها وتوحيد صفوفها. وبذلك كان للاستشراق مدارسه المختلفة باختلاف أهدافه وتطلعاته. ولكي يتسنى لنا معرفة هذه الأهداف، وتلك المدارس. لابدّ لنا أوّلاً من معرفة معنى الاستشراق، ضمن العناوين الآتية:

أ ـ الاستشراق لغة واصطلاحاً:

الاستشراق لغة: اشتقاق من استشرق، على وزن استفعل، وهو للسؤال والطلب غالباً، نحو: (استخرجته). ويجيء للاعتقاد في الشيء أنه على صفة أصله، نحو: (استسمنت ذا ورم) أي: حسبته سميناً. أو (استنوق الجمل) أي: حسب الجمل ناقة. ويكون للتحوّل إلى الشيء حقيقة، نحو (استحجر الطين)، أي: صار حجراً حقيقة. أو مجازاً، أي: صار كالحجر في الصلابة. وكما في المثل: (إنّ البغاث بأرضنا يستنسر)[1]، أي: يصير كالنسر في القوّة[2]. وعلى قياسه تقول: (استشرق الغربي)، أي: صار شرقياً، وقد يراد منه الدخول في الشرق، فتقـول: (أشرق الرجل) أي: دخل في شروق الشمس ، وفي التنزيل : ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ**﴾[3]، أي مصبحين. وتقول: (أشرق القوم)، أي: دخلوا في وقت الشروق، وفي التنزيل: ﴿**فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ**﴾[4]، أي: لحقوهم وقت دخولهم في شروق الشمس.

واصطلاحاً هو: علم يدرس تراث الشرق وحضاراته ومجتمعاته،

---

١ ـ مثلٌ يضربُ للضعيف يصير قوياً، وللذليل يعز بعد الذل، وقيل: معناه من جاورنا عزّ بنا. والبغاث: ضعاف الطير.

٢ ـ الأسترابادي، رضي الدين، شرح شافية ابن الحاجب، ج١، ص١١١، بيروت، ١٩٧٥م.

٣ ـ الحجر: ٧٣.

٤ ـ الشعراء: ٦٠.

ماضيها وحاضرها، ويدخل ضمن معنى الشرق، أيّ منطقة شرقية. لكن (المصطلح) هنا يعني أحياناً: (ما له علاقة بالدراسات الإسلامية والعربية، أو اللغات التي أثرت العربية فيها، كاللغة التركية، والفارسية). وبعبارة أخرى: إن للاستشراق المصطلح إطلاقين:

الأول: البحث في تراث الشرق عامة.

الثاني: البحث في تراث الإسلام، وكلّ ما له صلة به خاصّة.

وقد بدأت هذه الدراسات تتسع، وتستقل عن بعضها. حتى أصبح لكلّ دراسة مساحتها التي تعنى بها، فبدأ بعضهم يطلق على دراسة اللغة العربية، وشؤون العرب، تسمية الدراسات العربية (Arabistics). ويطلق على المستشرقين المتخصصين باللغة العربية، مصطلح (المستعربين)[١].

وعليه فإنّ الاستعراب فرع من فروع الاستشراق، وقد ظهر في الآونة الأخيرة، إذ تخصص بعض الباحثين من الغربيين في دراسة القضايا العربية دون غيرها. وقد يتسع هذا المصطلح، ليشمل كلّ باحثٍ غير عربي تخصّص في دراسة العربية وما يتعلق بها من العلوم والمعارف، حتى وإن كان شرقياً. فالياباني أو الصيني مثلاً قد يكون

---

١ ـ أنظر: الساموك، سعدون محمد، مناهج المستشرقين، ص١٧، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد.

مستعرباً، ولكن لا يمكن عدّه مستشرقاً، لكونه شرقياً أصلاً بحكم الجغرافيا[1]. نعم يمكن اعتباره مستشرقاً من باب التوسع اللفظي؛ فيكون مستشرقاً بالمعنى الخاص.

وبذلك تكون النسبة القائمة بين الاستشراق والاستعراب، نسبة العموم والخصوص من وجه، إذ يجتمعان في الغربي إذا نظر إلى العالم العربي، فهو حينها مستعرب ومستشرق. ويفترق الاستعراب عن الاستشراق، إذا كان الدارس للشؤون العربية صينيّاً، أو يابانياً، أو هندياً. ويفترق الاستشراق عن الاستعراب، إذا لم تكن الدراسة الشرقية، التي يعنى بها الغربي عربية، كأن تكون هندية، أو فارسية، أو تركية.

ب - نشأة الاستشراق وتاريخه:

لا يمكن الاطلاع بدقة على البداية الحقيقية، والمنظمة للاستشراق. ذلك أنه حركة نشأت بجهود عفوية أولاً، ثمّ ما لبثت أن تطوّرت، لتغدو حركة منظمة، لها كوادرها ومؤسساتها المختلفة.

ويمكن حصر آراء الباحثين في تاريخ الاستشراق، في النقاط الآتية:

---

١ ـ أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٢٤، ط١، ١٩٩٨م.

الأولى: يرجع بعض الباحثين الاستشراق إلى أواخر القرن السابع من الميلاد[1]. ويستند في ذلك إلى كتابات بعض المسيحيين من العرب عن الإسلام، من أمثال: (يوحنا الدمشقي)[2] وأضرابه.

إلا أن هذا الرأي غير منسجم مع المفهوم العام للاستشراق؛ لأن (يوحنا الدمشقي)، لم يكن غربياً، بل هو مسيحي عربي، فهو لذلك شرقي، وليس مستشرقاً.

الثانية: هناك من يرجع الاستشراق إلى المرحلة التي نقل فيها الكنسيون، علوم الكنيسة، وفلسفة اليونان، من الحواضر العربية إلى روما، حين كانت الكنيسة في احتضار فكري. وكانت هذه المرحلة قد بدأت منذ وقت مبكر في تاريخ الإسلام، فكان أعظم ما قام به العرب، إلى جانب نشرهم الإسلام، وتأليفهم في علومه المختلفة، قيامهم بترجمة آداب وفلسفات العالم، وخاصة اليونانية، والرومانية، والهندية، والفارسية، ومناقشتها والرد عليها. فكانت علوم الكنيسة من العلوم

---

١ ـ المصدر المتقدم، ص٢٤.

٢ ـ القديس يوحنا الدمشقي (Gohn of Damascus, Saint: حوالي ٦٧٥ ـ ٧٤٩م): لاهوتي وراهب سوري. يعتبر أحد آباء الكنيسة النصرانية الشرقية. وهو حفيد (منصور بن سرجون) الذي كان وزيراً لمعاوية بن أبي سفيان، وضع نحواً من مئة وخمسين مصنفاً أهمها: (منهل المعرفة)، وهو كتاب موسوعيّ في ثلاثة أجزاء كان له أثرٌ كبيرٌ في التفكير الديني النصراني خلال القرون الوسطى. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٦، ص١٧.

التي تناولوها بالترجمة، والنقد، والمناقشة. وكان للإسلام بذلك الفضل على الغرب. فبدون هذه الترجمات، لم يكن لدى الغرب قدرة على استعادة تراثه اليوناني والروماني. وخاصة في العصر الذي أطبق الجهل فيه على جميع الشعوب الأوربية[1].

وبذلك يمكن القول: إن حركة الاستشراق قامت على دعائم حركات سابقة، بادر إليها المسلمون، يمكن تسميتها بـ (الاستغراب) إذا صحّ التعبير. إذ قام المسلمون بتشجيع من دينهم، الذي يأمرهم بطلب العلم أينما كان، وحيثما وجد، بالسعي لتحصيله. فجدّوا في تعريب الكتب، من مختلف اللغات الرومانية واليونانية. بل حتى الشرقية منها كالفارسية والهندية. وذلك في عصر كانت أوربا تسير نحو الأفول والانحدار؛ فالتهمت نيران محاكم التفتيش جميع الكتب. ولم تستفق إلا بعد أن أتت النيران على آخر ورقة من آخر كتاب. فلم يجدوا بدّاً من استرجاعها من النسخ العربية المترجمة عنها. فكان لابد لهم أولاً من تعلم العربية، والعيش في أوساط المتكلمين بها. ومن هنا يمكن عدّ هذه الناحية، من الأسباب التي أدّت إلى ظهور الاستشراق.

الثالثة: هناك من الباحثين من يرى الاستشراق نتيجة طبيعية من نتائج الحروب الصليبيّة، لكونها آخر مراحل الصراع الديني المسلح

---

١ ـ الساموك، سعدون محمد، مناهج المستشرقين، ص١٧، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد.

بين المسلمين والمسيحيين. إذ توصّل الغرب بعد ذلك الصراع الطويل إلى قناعة مفادها: (عدم إمكان التغلب على المسلمين عسكرياً، ما داموا متمسكين بدينهم وقرآنهم).

ولا يخفى الدور الذي لعبه (لويس التاسع)[1] قائد الحملة الصليبية السابعة (والأخيرة) في ذلك ، إذ صرّح للجهات المعنية في أوربا بعد عودته من أسره في مدينة المنصورة بمصر: إنه لا جدوى من القتال مع المسلمين؛ لأنهم يملكون عقيدة راسخة تدفعهم إلى الجهاد، وتحضهم على التضحية بكلّ ما يمتلكون. وعليه لابدّ من الفصل بين المسلمين وبين مصدر قوتهم المتمثل بالقرآن الكريم، من طريق الغزو الفكري. فتبنت الكنيسة هذا المشروع، وقامت برعاية كلّ الجهود الرامية إلى ذلك. وهذه الجهود هي التي تطوّرت بالتدريج؛ لتكوّن فيما بعد حركة الاستشراق[2].

وبذلك يكون الاستشراق قد نشأ في القرن الثاني عشر من الميلاد، مقترناً بظهور أوّل نتاج استشراقي متمثل في ترجمةٍ لمعاني

---

١ ـ لويس التاسع (١٢١٤ – ١٢٧٠م): ملك فرنسا (١٢٢٦ – ١٢٧٠م). تزعّم الحملة الصليبية السابعة (عام ١٢٤٨م)، فأسر في المنصورة بمصر (عام ١٢٥٠م). ومن ثمّ عاد إلى فرنسا (عام ١٢٥٤م)، وراح يعد العدة لحملة صليبية ثامنة، ولكنه مات بالطاعون في تونس بُعيد مغادرته فرنسا (عام ١٢٧٠م). أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٦، ص١٤٦، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٨١م.

٢ ـ انظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٢٥، ط١، ١٩٩٨م.

القرآن الكريم، وظهور أوّل قاموس لاتيني ـ عربي[1] أيضاً.

الرابعة: يرى كثيرٌ من الباحثين أنّ الاستشراق قد نشأ في القرن العاشر للميلاد، حين بدأت الدراسة الغربية للشرق، والتي كان رائدها الراهب (جربير)[2]، الذي تعلم العربية في قرطبة. ثمّ عاد إلى بلاده، ليتولى البابوية، ملقباً نفسه: (البابا سلفستر الثاني).

الخامسة: وأخيراً هناك من يرجع نشأة الاستشراق إلى القرن الثامن عشر، متخذاً من حملة (نابليون بونابرت)[3] على مصر نقطة انطلاق للحركة الاستشراقية.

---

١ ـ أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٢٤، ط١، ١٩٩٨م.

٢ ـ جربير سلفستر الثاني (Sylvester II, Gerbert: ٩٣٠ ـ ١٠٠٣م): راهب فرنسي انتخب في (٢/ ٤/ ٩٩٩م) بابا كنيسة روما الكاثوليكية، وذهب إلى الأندلس لإكمال دراسته، وهناك تعلم الكثير من العلوم الإسلامية، يُعزى إليه إدخال الأرقام العربية، والساعة ذات الميزان إلى فرنسا، وله الفضل في تشجيع نفوذ العربية في العالم الأوربي، كما أن له الفضل في تنشيط الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وللمزيد راجع: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١٧٨ ـ ١٧٩.

٣ ـ نابليون بونابرت (Napoleon Bonaparte: ١٧٦٩ ـ ١٨٢١م): نابليون الأول (Napoleon I)، إمبراطور فرنسا (١٨٠٤ ـ ١٨١٥م)، يعدّ أحد أعظم القادة العسكريين في جميع العصور. تنازل عن العرش سنة ١٨١٤م؛ فنفي إلى جزيرة ألبا، وقد حاول استعادة عرشه خلال فترة (الأيام المئة)، ولكنه هُزم هزيمة حاسمة في معركة (واترلو) سنة ١٨١٥م؛ فنفاه الإنجليز إلى جزيرة هيلانة حيث مات فيها. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٧، ص١٠٠.

وعلى الرغم من أنّ هذه الحملة كانت عسكرية بامتياز، إلا أن اصطحاب (نابليون) في حملته هذه مطبعة وعدداً من العلماء والباحثين. هو الذي دفع إلى القول بأنها بداية الاستشراق[1].

إلا أن هذا الرأي مردود بما قيل من أن (نابليون بونابارت) قد تأثر في وضع خطته بكتاب (رحلة في مصر وسوريا)[2] للمستشرق الكونت (دي فولني)[3]. وعليه لابدّ أن يكون هناك استشراق، وأن يكون هناك رجال قد سبقوا نابليون في كتابتهم عن الشرق؛ ليتسنى له التأثر بهم، ومن هنا لا تكون حملته باكورة وتأسيساً للاستشراق، نعم يمكن تصنيفها على أنها مواصلة واستمرار للجهود الاستشراقية.

هذا ويحاول الدكتور (سعدون محمود الساموك) إرجاع جذور الاستشراق إلى القرن الميلادي الأول، فقد قال: (لابد من التنويه إلى أنّ دراسة الغربيين لأحوال الجزيرة العربية، أو الشرق، قد سبقت عصر الصليبيين بكثير. وحسب آراء المؤرخين، فقد عثر على كتابٍ لمؤلفٍ

---

١ ـ أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٢٥، ط ١، ١٩٩٨م.

٢ ـ م.ن، ص٢٤ ـ ٣٩..

٣ ـ دي فولني (De Volney): مستشرق فرنسي رحل إلى مصر وسوريا سنة ١٧٨٢م، ودوّن آراءه في كتابٍ لم يلبث أن نال شهرة واسعة عدّ معها واحداً من كتاب الرحلات المشهورين، وقد أهدى نسخة منه إلى قيصرة روسيا (كاترين الثانية)، وأهدى نسخة أخرى إلى نابليون بونابرت الذي تأثر به في حملته على مصر. أنظر: طلال المختار (آثار حملة بونابرت على مصر)، ص٢٤، الجامعة اللبنانية.

غربيّ مجهول، بعنوان: (الطواف حول البحر الإريتري)، يعود وفقاً لرأي (الدكتور جواد علي) إلى نهاية القرن الأول للميلاد)[١].

ولكننا إذا أخذنا تعريف الاستشراق الاصطلاحي بمعناه الأعم، أمكننا الرجوع بالاستشراق إلى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح، إذ نجد جذوراً استشراقية عند المؤرخ اليوناني (هيرودوتس)[٢]، فقد نشأ هذا الرجل، وكله طموح إلى التعرف على ما يحيط باليونان من الحضارات؛ فسافر لذلك إلى بلاد الشرق كثيراً، وقد شملت أسفاره كلاً من مصر وما بين النهرين. وسجل مشاهداته، ومسموعاته، في تسعة أجزاء، حتى لقب بـ (أبي التاريخ). ولما اشتمل تاريخه على سجل ضخم بتاريخ الحضارات الشرقية أيضاً، كان لنا أن نعدّه رائد الاستشراق الأول، ونقول لذلك: (إذا كان هيرودوتس جديراً بلقب أبي التاريخ، فهو بلقب جدّ الاستشراق أولى وأجدر).

---

١ ـ السamوك، سعدون محمد، مناهج المستشرقين، ص١٩، نقلاً عن عبد الجبار ناجي، تطوّر الاستشراق في دراسة التراث العربي، ص١٣.

٢ ـ هيرودوتس(Herodotus): مؤرخ ورحالة يوناني عاش في الفترة ما بين (٤٨٥ ـ ٤٢٥ ق.م)، وضع كتاباً أرّخ فيه للحروب اليونانية الفارسية راجع:(Persian Wars- Greco)، ويعتبر هذا الكتاب أقدم أثرٍ إغريقي نثري رئيس باق. قام برحلات متعددة في أصقاع العالم المعروف في عهده، فتوجّه جنوباً إلى مصر، وشرقاً إلى بابل، وشمالاً حتى سواحل البحر الأسود، يعرف بـ (أبي التاريخ)، أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٥، ص٩٩، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٨١م.

هذا ولكن هناك من شكك في أسبقية (هيرودوتس) في كتابة التاريخ، واتهمه بالاستيلاء على مؤلفات من سبقه في هذا المضمار، بدعوى أن هيرودوتس قد استعان بمؤلفات وكتابات (هيكاته)، دون الإشارة إليها. وإنّ عدم أمانة (هيرودوتس)، وخيانته، لم تقتصر على تجاهل اسم (هيكاته) في نقل المعلومات، بل أضاف إلى ذلك جريمة أخرى، تجسدت في إتلافه جميع مؤلفات (هيكاته) وكتبه(١)!

ولكننا لم نفهم كيف يتم التوفيق بين إتلاف (هيرودوتس)، لـ(جميع) مؤلفات (هيكاته)، وبين وصول هذه المؤلفات إلينا. وإذا وصل إلينا بعضها، كيف يحقّ لنا اتهام (هيرودوتس) بإتلافها بأجمعها كما جاء في نصّ الاتهام!

ولذلك فنحن نشعر بأنّ هناك حاجة في نفس من يلصق بهيرودوتس مثل هذه التهمة.

وأما إذا أخذنا المعنى الاصطلاحي الخاص للاستشراق، الذي هو دراسة التراث الإسلامي، فسيكون الاستشراق ظاهرة مرتبطة بالصدام الحضاري بين الشرق والغرب، إثر الفتوحات الإسلامية، وشعور العالم المسيحي بالخطر. وازدياد قوّة هذا الشعور بإخفاق

---

١ ـ تاريخ جهان واسلام (١)، من كتب النظام التعليمي المقررة في إيران للمرحلة الثانية من الإعدادية، ص٥٦ ـ ٥٧، ط ٩، ١٣٨٧هـ ش.

الحروب الصليبية[1]، حيث بدأ التفكير بوقف هذا التيار الجارف من خلال السعي إلى تشويه الإسلام، والتشكيك فيه، بتقديم صورة كريهة عنه. من هنا يكون منشأ الاستشراق مقارناً للحروب الصليبية، أو من إرهاصاتها. وعندها يكون الاستشراق ـ بهذا المعنى ـ قد نشأ بالتحديد في القرن الثاني عشر للميلاد.

ج - أهداف الاستشراق وغاياته:

إنّ مسيرة الاستشراق قد قطعت أشواطاً تاريخية كبيرة، تمتدّ لقرون طويلة. وقد تشعبت وتفرّعت غاياتها طوال هذه المدة. فكان منها ما هو عسكري، أو ديني، أو اقتصادي، أو استعماري، أو ثقافي بحت. ومنه ما كان يهدف لأكثر من واحدة من الغايات المتقدمة، ولكنّ هذه الغايات في غالبها، كانت تتردد بين الديني، والاستعماري. ولذلك سنقصر البحث على هاتين الغايتين، إذ يمكن ملاحظتهما بوضوح بالنظر في الأعمال الاستشراقية أولاً، وبالنظر إلى الجهات الداعمة لهذه الأعمال ثانياً. فالغالب على الاستشراق الديني هو التحامل، والتهجّم

---

١ ـ ينبغي الإشارة إلى أنّ (البابا أربانوس) فرض على الجيوش أن ترسم شارة الصليب على ثيابها وسروج خيولها، ومن هنا اكتسبت هذه الحملات اسم (الحروب الصليبية)، أما في العالم الإسلامي فلم تعرف آنذاك إلا بـ (حروب الفرنجة)، ويمكن معرفة ذلك لمن يطالع النصوص الإسلامية في تلك المرحلة، وهناك سيجد صيغاً أخرى، مثل: (الفرنج)، و(الإفرنج)، و(الإفرنجة).

على الإسلام ورموزه، وممارسة نشاطه تحت دعم وتمويل ومباركة المؤسسات الدينية والكنسية. في حين نجد الاستشراق الاستعماري، مدعوماً من قبل المؤسسات الحكومية، ودوائر الدولة. وقد تتقاطع مصالح هذين النوعين من الاستشراق، فيحدث نوعٌ من التنسيق المشترك بينهما. مع احتفاظ كلّ منهما بأهدافه وغاياته لنفسه. ويمكن القول: إن معظم المستشرقين قديماً وحديثاً قد اعتمدوا في تناولهم للإسلام والقرآن، على الافتراضات الخاطئة والنتائج المسبقة، والصور النمطية.

وهذا ما أقرّ به بعض المستشرقين ومنهم (برنارد لويس)[١]، إذ قال:

«لا تزال آثار التعصّب الديني ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين، ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية»[٢].

---

١ ـ برنارد لويس (B. Lewis): ولد سنة ١٩١٦م، وتخرج من جامعتي لندن وباريس، وعيّن معيداً للتاريخ الإسلامي بجامعة لندن ثمّ أستاذاً للتاريخ بجامعة كاليفورنيا، التحق بالعمل بوزارة الخارجية البريطانية، وهو ما يوضح نشاطه السياسي. خلف الكثير من الأبحاث، ويأتي في مقدمتها كتابه المعنون بـ(أصول الإسماعيليين والإسماعيلية)، و(أبحاث حول تاريخ اهتمام الإنجليز بالعلوم العربية)، و(الغرب في التاريخ) الذي ترجمه الدكتوران (نبيه أمين فارس) و(محمد يوسف زايد)، أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٥٦١.

٢ ـ زقزوق، محمد، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٧٣، نقلاً عن كتاب الإستشراق أهدافه ووسائله، ص٣٦.

كما قال المستشرق الإنجليزي (نورمان دانييل)[1].

«على الرغم من المحاولات الجديدة المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة، للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب النصارى من الإسلام، فإنهم لم يتمكنوا أن يتجرّدوا منها تجرّداً تاماً»[2].

ومما يؤكّد خدمة المستشرقين للمصالح الاستعمارية ما جاء في المنشور الذي وزع على أهالي طرابلس وبرقة في ليبيا يوم ٥/ أكتوبر/ ١٩١١م، وقد اختار المستشرقون عباراته بدقة عالية، مراعين جميع الظروف والأوضاع السياسية، والاجتماعية، والدينية. إذ جاء فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم.. والصلاة على كافة المرسلين صلى الله وسلم عليهم أجمعين.. فيا سكان طرابلس وبرقة، أذكروا أن الله قال في كتابه العزيز: ﴿لاَ يَنْهَاكُمْ اللهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ

---

١ ـ نورمان دانييل (Norman Danial): مستشرق إنجليزي ولد سنة ١٩١٩م، وتخرّج من جامعة أدنبره، وعمل في عدد من البلاد العربية، وكان آخر أعماله مدير المجلس الثقافي البريطاني في القاهرة، له عدد من الأعمال يهتم معظمها بالبحث عن العلاقة بين الإسلام والغرب، منها: (الإسلام والغرب)، و(الإسلام)، و(أوربا والإمبراطورية)، و(العرب وأوربا في القرون الوسطى). حصر اهتمامه بتحسين صورة الإسلام في أوربا، وبتحسين العلاقة الإسلامية المسيحية. أنظر: ميشال جحا، (الدراسات العربية والإسلامية في أوربا)، ص٥٨.

٢ ـ زقزوق، محمد، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٧٣، كتاب الأمة، ط١، نقلاً عن المصدر نفسه.

مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْـمُقْسِطِينَ﴾[1])... ثمّ خلص المنشور إلى القول التالي: (إرادة الله ومشيئته سبحانه قضتا أن تحتل إيطاليا هذه البلاد، لأنه لا يجري في ملكه إلا ما يريد، فهو مالك الملك وهو على كل شيءٍ قدير، فمن أراد أن يظهر في الكون غير ما أظهره مالك الملك ربّ العالمين، المنفرد بتصرّفاته بملكه، الذي لا شريك له فيه، فقد جمع الجهل بأنواعه وكان من الممترين، وبناءً عليه يلزم على كلّ مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الإرادة الربانية، وأبرزت القدرة الإلهية، فالملك له سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء)[2].

لا يخفى أنّ هذا النوع من السفسطة إنما يعود بجذوره إلى التركة الأموية في الإسلام، حيث نجدها في سياسة معاوية حين أراد توريث سلطانه لولده يزيد، معتبراً أن أمر يزيد (واستخلافه) قضاء من القضاء[3].

ويمكن تلخيص النشاط الاستعماري للاستشراق، في تجنيد الدوائر الغربية لبعض المستشرقين عملاء سرّيين داخل الشرق. ومن ذلك ما قامت به الحكومة البريطانية من إرسالها المستشرق (هنري

---

١ ـ الممتحنة: ٨.

٢ ـ القمودي، محمد، سموم الاستشراق، مجلة العربي، العدد: ٢٧٣، السنة: ١٩٨١م. نقلاً عن المصدر المتقدم.

٣- الدينوري، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج١، ص١٦٧.

بالمر)[١] إلى صحراء سيناء عام ١٨٨٢م، حيث اغتيل على يد البدو هناك. ولم يكن من الصدفة إرسال الغرب رجالاً ونساءً مثل (جرترود بيل)[٢]، و(تي أي لورنس)[٣] ...

---

١ ـ ادوارد هنري بالمر (E. H. Palmer: ١٨٤٠ ـ ١٨٨٣م): مستشرق بريطاني مشهور، ولد في كمبرج، أولع باللغة العربية حتى قرض الشعر بها. رحل إلى الشرق وعاش في البادية العربية، وفي سنة ١٨٦٩م أوفدته إلى الشرق الأدنى جمعية البحث عن الآثار الفلسطينية، وصحبه السير ريتشارد بورتون، استعمله الجيش البريطاني في أغراض تجسسية وتخريبيّة نظراً لإتقانه اللغة العربية ومعرفته بقبائل العرب، ولتضلعه بلهجات البدو وعاداتهم، عُرف بينهم بـ (الشيخ عبد الله)، ولما نشبت ثورة عرابي باشا (١٨٨٢م)، رجع إلى مصر، وكلفته حكومته بالاتصال ببعض الشيوخ؛ فمنحهم بُدَراً كثيرة، وكانت نهايته أن قتل غيلة على يد البدو أنفسهم. خلف الكثير من الأعمال في طليعتها: (ترجمة القرآن الكريم)، و(رحلة في شبه جزيرة سيناء)، وغيرها. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٤٨٢ ـ ٢٨٣.

٢ ـ مس جرترود بيل (Miss Gertrude Bell: ١٨٦٨ ـ ١٩٢٦م): مستشرقة إنجليزية، عملت في السلك السياسي، وعيّنت مترجمة في السفارة البريطانية في مصر، وفي البصرة وبغداد من العراق، وسميّت ملكة العراق غير المتوّجة. أنشأت لها متحفاً في بغداد وقد توفيت هناك. أتقنت العربية والفارسية والفرنسية والألمانية، وخلفت العديد من الأعمال. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٥٠٢ ـ ٥٠٣.

٣ ـ تي اي لورنس (T. E. Lawrence: ١٨٨٨ ـ ١٩٣٥م): شخصية استشراقية شهيرة، ارتبط اسمه بالعرب حتى عرف بـ (لورنس العرب: Lawrence of Arabia)، تلقى العلم في جامعة أكسفورد، ورحل إلى فرنسا، وبلغ رتبة مقدّم في الجيش، وعمل في سلاح الطيران الملكي. أثر تأثيراً بارزاً في تقرير البيئة السياسية المتعلقة بالعالم العربي، خلف العديد من الأعمال، منها: (أعمدة الحكمة السبعة)، و(القلاع الصليبيّة)، و(ثورة في الصحراء العربية). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٥١١ ـ ٥١٢.

كعملاء للإمبراطورية البريطانية[1].

وفيما يتعلق بالبعد الاستعماري للاستشراق يعترف المستشرق الأسباني (بيدرو مارتينث مونتافث)[2] قائلاً:

«ظاهرة تاريخية معروفة، وهي أن معظم المستشرقين الغربيين كان مرتبطاً بشكلٍ ما بالنفوذ الاستعماري الغربي في المنطقة، وعلينا أن نعترف بهذا، فنحن نتكلم عن التاريخ، وليس عن أشياء خيالية، أو بعيدة عن الحقيقة»[3].

وقبل الانتقال من هذا العنوان، لابد لنا من التنويه بجهود طائفة أخرى من المستشرقين الذين أخذوا على أنفسهم منهجاً علمياً حيادياً وموضوعياً، تجرّد من جميع السلبيات التي واكبت الدراسات

---

١ ـ سعيد، إدوارد، الاستشراق، نقلاً عن المصدر المتقدم، ص٤٠ ـ ٤١.

٢ ـ بيدرو مارتينث مونتافث (P. Martinez Montavez): مستشرق أسباني ولد سنة ١٩٣٣م، أعدّ دراسة الدكتوراه بالقاهرة عن المجاعة في مصر أيام المماليك وتبدّل الأسعار، وعمل مديراً للمركز الثقافي الأسباني في القاهرة من ١٩٥٨ ـ ١٩٦٢م، وخلف الكثير من الأعمال العلمية نذكر منها: (أمراء الأندلس وخلفاؤها)، و(شخصية المنصور في نصوص المؤلفين النصارى)، وترجم الكثير من الأعمال الأدبية العربية إلى الإسبانية، منها أعمال نجيب محفوظ، ويوسف إدريس وغيرهما، أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦١٦.

٣ ـ مجلة الموقف الأدبي، العدد: ٢٢، سنة ١٩٨١م.

الاستشراقية الأخرى. ونذكر من أولئك على سبيل المثال: (جان جاكوب ريسكه)[1]، و(لورا فيشيا فاغليري)[2]، و(روجيه غارودي)[3] وغيرهم[4].

---

١ ـ جون جاكوب ريسكه (Johann Jakob Reiske: ١٧١٦ ـ ١٧٧٤م): مستشرق ألماني من الرعيل الأول، وعالم باليونانيات. أحبّ اللغة العربية بشدّة، وتحمّل في سبيل تعلمها الكثير من المشاق، اهتم بنشر النصوص، ومنها: (رسالة ابن زيدون إلى ابن عبدوس)، والجزء الأول من (تاريخ أبي الفداء)، وترجم إلى الألمانية (لامية العجم للطغرائي)، أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٢٩٨ وما بعدها.

٢ ـ لورا فيشيا فاغليري (L. Veccia Vaglieri) مستشرقة ايطالية مهتمة بالتاريخ الإسلامي وبالقضايا الليبية، لها روح منصفة ترتفع إلى أشدها في كتابها (الدفاع عن الإسلام)، وقد خلفت العديد من الأعمال، منها: (قواعد العربية)، و(اشتراك سليمان الباروني في حرب ليبيا)، وترجمت كتاب (فصول من النزاع بين علي ومعاوية وتمرّد الخوارج). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٤٠٤.

٣ ـ روجيه جان شارل غارودي (R. J. C. Garaudy): مفكر فرنسي ولد سنة ١٩١٣م بمدينة مرسيليا، كان مسيحي الديانة، شيوعي الفكر. اختير عضواً في الحزب الشيوعي ورئيساً لجمعية الشبان المسيحيين البروتستانت. اعتقل سنة ١٩٤٠م وسجن بالصحراء الجزائرية حيث احتك بالإسلام، وبعد دراسات فلسفية عميقة تجوّل فيها بين نظريات وأفكار متعددة تنتمي إلى أديان ومذاهب متعددة. أشهر إسلامه سنة ١٩٨٢م بسويسرا، وكتب حول الإسلام كتباً متعددة أهمها: (وعود الإسلام)، و(الإسلام دين المستقبل)، و(لماذا أسلمت؟) أنظر: محمد الميلي (روجيه غارودي والمشكلة الدينية)، ص٢٣ وما بعدها، دار قتيبة، نقلاً عن كتاب الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٤٧.

٤ ـ الزيادي، محمد فتح الله، المستشرقون أهدافهم وغاياتهم، ص٤٧، ١٩٩٨م.

- ٢ -
المدارس الاستشراقية

قد يبدو من هذا العنوان أنّ للاستشراق مدارس علمية تميّزه من بعضه، ولكننا نخيّب أمل القارئ منذ البداية، ونعترف له بعدم وجود مثل هذه المدارس، إذ لم تشهد النور على هذا الصعيد إلا محاولات متواضعة لم يكتب لها النجاح.

من ذلك ما فعله (الهراوي)[1] فقد عمد إلى تصنيف المستشرقين إلى ثلاث مدارس، على النحو الآتي:

١ ـ المدرسة المختصّة بالمباحث القرآنية.

٢ ـ المدرسة المختصّة بحياة النبيّ الأكرم وسيرته.

٣ ـ المدرسة المختصّة بالتاريخ العربي.

ولكنه تقسيم غير واضح المعالم، ضبابي الملامح، ولا يستقيم لا عكساً ولا طرداً، وذلك لأنه يحصر الاستشراق بالجانب الإسلامي. مضافاً إلى استحالة تصوّر مدرسة استشراقية تعنى بالنبي الأكرم ﷺ ولا تبحث في القرآن الكريم، أو تفصل التاريخ العربي عن جانبه الإسلامي، وتأثير القرآن فيه. فإننا لو أخذنا صاحبنا (ثيودور نولدكه) مثلاً، لوجدناه قد كتب في تاريخ القرآن، وهو الكتاب مورد البحث،

---

١ ـ أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه وغاياته، ص٦٩، ط١، ١٩٩٨م.

كما ألف في السيرة النبوية كتابه (حياة محمد عرض مبسّط مستمدّ من المصادر)، وأسهم في مجال الكتابة عن التاريخ الإسلامي، إذ اضطلع بالجزء الخاص بالساسانيين عند إخراج طبعة ليدن النموذجية لتاريخ الطبري، وشفعها بترجمة ألمانية هي: (تاريخ الفرس والعرب في عصر الساسانيين). وبذلك يدخل عضواً في جميع المدارس التي اقترحها الهراوي. وكان بإمكان الهراوي أن يضيف إلى مدارسه الاستشراقية المقترحة (المدرسة الأدبية واللغوية)، التي تعنى بالتراث الأدبي للشرق والعرب، كالأدب الجاهلي، أو الإسلامي بعصريه الأموي والعباسي. وسيمكن لنولدكه أيضاً أن يدخل هذه المدرسة من أوسع أبوابها بسبب إسهامه في الكثير من الأعمال التي قام بها في هذا المجال، ومنها كتاباه: (مختارات من الشعر العربي)، و(نحو اللغة العربية الفصحى).

وهناك محاولة خجولة أخرى قام بها الدكتور نجيب العقيقي[1]، قسّم فيها الاستشراق إلى مدرستين، هما:

١ ـ المدرسة السياسية التي تبحث في الأدب بمفهومه العام.

٢ ـ المدرسة الأثرية التي تهتم بالآثار.

وعلى الرغم من هذا التقسيم والتصنيف، نجد الدكتور (العقيقي) نفسه، قد خصص جزءاً كبيراً من كتابه لدراسة المستشرقين على أساس تقسيمهم إلى مدارس جغرافيـة، ومع ذلك لم يتطرّق إلى بيان

---

١ ـ أنظر: المصدر المتقدم، ص٧٠.

ما يميّز كلّ مدرسة من الأخرى، بل حصر اهتمامه بأشخاص المستشرقين وكأنه قد اقتنع في نهاية الأمر بالتوزيع الجغرافي للمستشرقين وعدل عن التقسيم الأول، حتى خرج كتابه في طبعته الجديدة دون أن يضمّنه فصلاً خاصاً بالمدارس الاستشراقية[1].

أمّا نحن فنقول: لا بأس بتقسيم المدارس الاستشراقية على الأساس الجغرافي، ولكنه حتى في هذه الحالة ينبغي أن يخضع لمتبنيات علمية تميز الاستشراق الفرنسي من الاستشراق الألماني مثلاً، وإنّ المناهج المتبعة في هذه المدرسة الاستشراقية تختلف عن المدرسة الاستشراقية الأخرى في مناهجها ومتبنياتها. إلا أننا لا نجد من ذلك شيئاً، ونجدهم يميزون المدارس الاستشراقية المزعومة على الأساس الجغرافي على أمور سطحية وقشرية يقحمونها إقحاماً، حتى لتكاد تكون مضحكة لشدة ما يبدو عليها من الصنعة والتكلف، من ذلك مثلاً أنهم يميزون المدرسة الاستشراقية الإيطالية من غيرها بحضور الكثير من المستشرقات والعناصر النسوية، من أمثال: (ماريا نللينو)[2] وهي

---

١ ـ المصدر المتقدّم، ص٦٩ ـ ٧٠.

٢ ـ ماريا نللينو (Maria Nallino): كريمة المستشرق الكبير كارلو نللينو، وواحدة من أشهر المستشرقات الإيطاليات، ولدت سنة ١٩٠٨م، ودرست على يد والدها واستأنفت نشاطه العلمي بعد وفاته، اختيرت عضواً مراسلاً في المجمع اللغوي في مصر، لها عدد من الأعمال، منها: (مجموعة آثار كارلو نللينو)، و(الإسلام والأقليات الدينية في الدستور السوري الجديد). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٣٩٧.

بنت المستشرق (كارلو نللينو). و(أولجا بنتو)[1]، و(أنجيلا كوداتزي)[2]، و(إيستر بانيتا)[3] وغيرهنّ. وكأن مجرّد الحضور النسوي يجعل من الاستشراق الإيطالي مدرسة. كما أنهم يشيرون إلى ظاهرة التوريث في الاستشراق الإيطالي، حيث نجد الأولاد يكملون مسيرة آبائهم، ونذكر مثالاً على ذلك: (ميكلنجلو) ابن (جويدي)، و(فرانتشيسكو) ابن (غبريالي).

وكما ترى، فإن مجرد الحضور النسوي، أو توريث الآباء الصنعة لأبنائهم، لا يصحّ مقياساً علمياً لتحديد معالم مدرسة من المدارس.

ولتوضيح الفكرة أكثر، نضرب مثلاً بتقسيم المدارس النحوية وحصرها في المدرستين الكوفية والبصرية، فإنّ الكوفة والبصرة وإن كانتا حاضرتين جغرافيتين، ولكننا لا نجد للتراب مدخلية في هذا

---

١ ـ أولجا بنتو (Olga Pinto): مستشرقة إيطالية مغمورة، شغلت منصب أمينة المكتبة الوطنية بروما، وخلفت عدداً من الآثار العلمية، منها: (الكتب العربية في مكتبة روما)، و(المخطوطات العربية غير المفهرسة في المكتبة الوطنية بفلورنسا).

٢ ـ انجيلا كوداتزي (Angela Codazzi): مستشرقة إيطالية، خلفت آثاراً محدودة، منها: نشر مخطوط (آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كلّ مكان) لابن حنين، و(رسالة في القياس المسطح) لليون الإفريقي. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٤٠٣.

٣ ـ ايستر بانيتا (Ester Panetta): مستشرقة إيطالية تخصّصت في تتبع التراث الليبي، ومن ضمن ما خلفته: (تقاليد وعادات شعبية من ليبيا)، و(الأمثال العربية في بنغازي)، و(الملابس الشعبية في بنغازي)، وغيرهما. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٤٠٣.

التصنيف، فهناك نحاة مبثوثون في كافة الأقطار والعواصم الإسلامية في الحجاز، والمغرب العربي، والقاهرة، والأندلس، وبغداد. ولم تكن لهذه الحواضر على الرغم من ذلك مدارس تعرف بها، وما ذلك إلا لرجوعها في النهج إلى إحدى هاتين المدرستين، إذ تقوم المدرسة النحوية البصرية بزعامة (سيبويه)[1] على اعتماد الأقيسة العقلية في تأسيس القواعد النحوية. بينما تعتمد المدرسة الكوفية بزعامة (الكسائي)[2] على الرواية والنصوص العربية، قرآنية وشعرية، ومن هنا كانت المدرسة الكوفية مدرسة استقرائية، بينما كانت المدرسة البصرية مدرسة قياسية.

ولذلك حينما تم اختراع المدرسة البغدادية، انتفض بعض أعلام النحو واللغة من المعاصرين[3] بالاعتراض على ذلك، مبيناً أن هذه

---

١ ـ سيبويه، عمرو بن عثمان (٧٦٠؟ ـ ٧٩٦؟م): عالم نحوي عربي، فارسي الأصل. ولد في شيراز، ونشأ في البصرة، أخذ العلم عن الخليل بن أحمد الفراهيدي. وهو صاحب (الكتاب في النحو) والذي يعرف بـ (الكتاب) فحسب، إعظاماً لشأن صاحبه، أو لأنّ سيبويه مات قبل أن يضع عنواناً خاصّاً لكتابه هذا. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٩، ص٤٨.

٢ ـ الكسائي، أبو الحسن (٩٥٣ ـ ١٠٠٢م): نحوي، كوفي. أحد القرّاء السبعة. تعلم على الرؤاسي، والخليل بن أحمد. مؤدّب الأمين والمأمون ولدي الرشيد. له (رسالة في ما يلحن فيه العامة). أنظر: المنجد في اللغة والأعلام.

٣ ـ هو العلامة الدكتور مهدي المخزومي، ولزيادة الاطلاع، راجع كتابه القيّم (مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو).

المدرسة البغدادية المزعومة ما هي إلا صورة للمدرسة الكوفية، إذ وجدها تقتفي آثارها في التأسيس للقواعد النحوية باتباع المنهج الاستقرائي. أو بكلمةٍ أدقّ: إن نشأة المدارس النحوية، وانقسامها إلى الكوفية والبصرية إنما كان في بغداد، حيث بدأ أتباع البصريين من البغداديين يطلقون على أنفسهم تسمية البصريين تمييزاً لأنفسهم من تلك الجماعة البغدادية الأخرى التي كانت تسير على نهج الكوفيين.

هذا وقد حاول بعض اختراع مذاهب ومدارس نحوية أخرى، لا موطن لها إلا في خياله كالمدرسة الحجازية، أو المصرية، أو الأندلسية، وفي ذلك يقول العلامة الدكتور مهدي المخزومي:

«وقع المحدثون والمعاصرون في الوهم، وراحوا يبالغون في تصنيف النحاة، حتى تجاوزوا ثلاثة المذاهب إلى أكثر من ذلك وزعموا أنّ هناك مذهباً أندلسياً وآخر مصرياً... وأغلب الظن أن (فلوجل) الذي حقق الفهرست ونشره هو الذي أوقع المحدثين والمعاصرين في مثل هذا الوهم؛ فقد كان نشر له بحثٌ عن المدارس النحويّة، أشار إليه (بروكلمان) في (تاريخ الأدب العربي)، و(كوتولد فايل) في مقدّمة (الإنصاف). وعنوان البحث يدلّ على تعدّد المدارس أو المذاهب عنده، وكان العرب يصدرون عن هذا الرأي في أكبر الظنّ منذ اتصالهم بكتابات المستشرقين. وكان (فايل) على صواب

حين قال: (إنّ فلوجل لابد أن يكون قد عانى كثيراً من الجهد للوصول إلى هذه النتيجة، وهي القول بتعدد المذاهب والمدارس النحوية). وإنعام النظر في حقيقة الأمر يجعل أمثال هذه المحاولات المعاصرة من قبيل الأوهام التي لا وجود لها إلا في أذهان أصحابها»[1].

وعليه لو كانت لدينا مثل شجاعة هذا العالم النحوي، لأرجعنا جميع المدارس الإستشراقية القائمة على أساس الانتماء الجغرافي إلى مدرستين أو ثلاثٍ مثلاً، دون أن تكون هناك أهمية للهوية الجغرافية لهذه المدرسة الاستشراقية أو تلك. وإنما نأخذ البلد عنواناً مشيراً إلى أتباع المدرسة الاستشراقية، حتى وإن كان المنتمي لها من بلد آخر.

علاوة على ذلك فإننا نجد غياباً كاملاً للمدرسة النمساوية في التقسيمات الاستشراقية المزعومة، في حين أن من أقطابها المستشرق (أوليفي شتراوس)[2]، ولا نجد أيضاً أدنى ذكر للمدرسة المجرية، في حين أن المستشرق المجري (إجناتس جولدزيهر) يعدّ من أبرز أعلام الاستشراق في العالم، ومع ذلك فإننا نجد هذا المسكين مقطع الأوصال؛

---

١ ـ المخزومي، مهدي، الدرس النحوي في بغداد، ص٧ ـ ٨، دار الرائد العربي، ط٢، بيروت، ١٩٨٧م.

٢ ـ أوليفي شتراوس (Strauss, E.): مستشرق نمساوي. تخرّج من جامعة فيينا، وعني بالمماليك وأهل الذمّة، من آثاره: (المجلة المشرقية النمسوية) عن مماليك مصر سنة ١٩٣٦م. وله بالعبرية (اليهود وفتوحات المغول). أنظر: نجيب العقيقي، ج٢، ص٦٤٢.

لكثرة ما يتم سحبه إلى هذه المدرسة الاستشراقية تارة، وإلى تلك المدرسة تارة أخرى، وبذلك كان وفقاً للتقسيم الجغرافي للمدارس الاستشراقية، رغم شهرته مستشرقاً بالتبني!

لذلك كله فإننا نفضل أن يتمّ تقسيم المدارس الاستشراقية على أساس توجهات المستشرقين وأهدافهم ومناهجهم، وبذلك فإننا نقترح في هذه العجالة التأسيس لمدارس استشراقية ثلاث، وهي:

١ـ مدرسة الاستشراق الديني. ومن أقطابها: (البابا غريغوريوس الثالث عشر)[١]، والراهب الفرنسي (جربير) المعروف بالبابا سلفستر الثاني.

٢ ـ مدرسة الاستشراق الاستعماري. ومن البارزين فيها: (تي أي لورنس العرب)، و(المس جريترود بيل)، و(إدوارد هنري بالمر).

٣ ـ مدرسة الإستشراق العلماني. ومن أهم رموزها: المجري (اجناتس جولدزيهر)، والألماني (ثيودور نولدكه).

---

١ ـ غريغوريوس الثالث عشر (Gregory XIII: ١٥٠٢ ـ ١٥٨٥م): بابا رومة منذ عام ١٥٧٢ حتى وفاته عام ١٥٨٥م. وضع برنامجاً طموحاً لإصلاح الكنيسة. أسس الجامعة الغريغورية (Gregorian University)، وعدداً من الكليات مُسنِداً مهمّة الإشراف عليها إلى اليسوعيين، وبذل جهداً كبيراً لإعادة بعض البلدان البروتستانتية إلى الحظيرة الكاثوليكية. أصلح التقويم اليوليوسي (Julian calendar)، وأقر بدلاً منه تقويماً جديداً عُرف بـ (التقويم الغريغوري) نسبة إليه. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٥، ص٣٣.

إلا أن هناك أمرين يحولان دون الخوض في بيان معالم هذه المدارس وأبعادها، والمنتسبين إليها من المستشرقين على اختلاف جنسياتهم وانتماءاتهم الجغرافية، وذانك الأمران هما: ضيق الوقت الممنوح لنا لإنجاز هذا البحث. والثاني: ندرة المصادر الاستشراقية المتاحة لنا، التي توفر المواد الإنشائية لبناء مثل هذا الصرح. يضاف إلى ذلك أنّ البحث في أبعاد هذه المدارس سيخرجنا عن موضوع هذه الرسالة ونطاقها. ولذلك فإننا سنترك الخوض في هذا البحث إلى رسالة أوسع، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لذلك.

وإذا سلمنا صحّة تقسيم المدارس الاستشراقية على اساس البعد الجغرافي، فإننا حتى في هذه الصورة نستدرك على بعض الباحثين ما أهمله من البلدان التي نشط فيها الاستشراق، من قبيل الفاتيكان، التي تعتبر حالياً دولة معترفاً بها رسمياً. ونستبعد الحركة الصهيونية، خلافاً لبعض الباحثين مثل (سعدون محمود الساموك)؛ وذلك لعدم وجود رقعة جغرافية معروفة للصهاينة، وإذا سلمنا جدلاً باعتبار الأرض الفلسطينية المحتلة بلداً لهم، فهي إنما تقع في الشرق الأوسط بإجماع الجغرافيين، وبذلك سيخرجون تخصّصاً عن كونهم مستشرقين، لكون فلسطين شرقية بالأصالة. اللهم إلا من باب التوسع في اللفظ.

والذي يهمّنا من هذا التقسيم ذي البعد الجغرافي في بحثنا هذا، هو الاستشراق الألماني، وأعلام المستشرقين فيه، ومنهم على وجه الخصوص (ثيودور نولدكه) وكتابه (تاريخ القرآن)، ولذلك سنشبعه

بحثاً بعد استيفاء البلدان الاستشراقية الأخرى. وعليه نستعرض تلك البلدان على النحو الآتي:

- **الاستشراق الإيطالي:**

يرجع بعض الباحثين صلة إيطاليا بالاستشراق إلى ما قبل الميلاد، نظراً لقربها الجغرافي من البلاد العربية والإفريقية[1]. وهناك من ذهب إلى أن الدراسات الاستشراقية في إيطاليا ترقى إلى القرن السادس عشر، ثمّ ترقى إلى إرجاع جذور الاستشراق فيها إلى العصور الوسطى.

ولكن هذه الدراسات لم تتطوّر إلا في القرن التاسع عشر، حين تأسست (الجمعية الإيطالية للدراسات الإستشراقية) سنة ١٨٧١م، فاتخذ الاستشراق منذ ذلك الحين طابعاً سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً، فأدّى إلى التمهيد لغزو الأراضي الليبية سنة ١٩١٢م[2]. ويمكننا منح الاستشراق الإيطالي المميزات الآتية:

١ ـ كانت باكورة الاستشراق الإيطالي ذات طابع ديني، ثم تطوّرت أهدافه لتكون استعمارية، وقد ظهر ذلك جلياً في ظلّ

---

١ ـ أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٨١، ١٩٩٨.

٢ـ أنظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج المستشرقين،ص٤٤، نقلاً عن ميشال جحا، الدراسات الشرقية في أوربا،ص٥٦ ـ ٥٨.

الاحتلال الإيطالي لليبيا، والحبشة، والصومال.

٢ ـ إرسال البعثات الاستشراقية للعيش في الشرق والبلاد العربية، والتدريس في مؤسساتها العلمية وجامعاتها وخاصة مصر، وقد درس على يد هؤلاء المستشرقين عدد من قادة الفكر العربي، ومنهم على سبيل المثال: (طه حسين)[١]، الذي درس على يد المستشرق (كارلو نللينو)[٢].

٣ ـ تمكن بعض المستشرقين الإيطاليين من نيل شرف العضوية في أكثر من مجمع، ونذكر منهم: (كارلو نللينو)، و(فرانتشيسكو

---

١ ـ طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م)، أديب وناقد مصري. اعتبر أحد أبرز رواد التجديد في الأدب العربي الحديث. فقد بصره وهو طفل صغير. اشتهر بآرائه الجريئة في الأدب والحياة وبحمله لواء الثورة على التقليد. أشهر آثاره: (في الشعر الجاهلي)، و(الأيام)، و(المعذبون في الأرض)، و(من تاريخ الأدب العربي). أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٥، ص١٣٥، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٨١.

٢ ـ كارلو الفونسو نللينو (Carlo Alfonso Nallino: ١٨٧٢ ـ ١٩٣٨م): من أشهر المستعربين في ايطاليا، ولد في تورينو، رغب كما يقول بنفسه في معرفة كلّ شيء؛ فعني بالجغرافيا والفلك والأدب والتاريخ والتصوّف والفلسفة والفقه بل وحتى اللهجات، وطار له فيها صيتٌ بعيد، درّس في الجامعات المصرية، ومن أبرز تلاميذه فيها، عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، اختص باللغة العربية والحضارة الإسلامية.

ومن أشهر مؤلفاته: (تاريخ الأدب العربي)، و(تاريخ الفلك عند العرب في العصور الوسطى). تولت ابنته ماريا نللينو نشر أبحاثه بعد وفاته في ستة مجلدات تناول فيها العرب لغة وعقيدة وتاريخاً وحضارة. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٣٧٧ ـ ٣٨٠.

غبريالي)[1]، و(إغناطيوس جويدي)[2].

٤ ـ عدم اهتمام الاستشراق الإيطالي بسائر أجزاء الشرق الأخرى، وخاصة الشرق الأقصى[3].

٥ ـ حضور الكثير من المستشرقات والعناصر النسوية، من أمثال: (ماريا نللينو) بنت المستشرق (كارلو نللينو)، و(أولجا بنتو)، و(أنجيلا كوداتزي)، و(إيستر بانيتا)، وغيرهن[4].

٦ ـ تميز الاستشراق الإيطالي من غيره بظاهرة التوريث، ونذكر مثالاً على ذلك: (ميكلنجلو) ابن (جويدي)، و(فرانتشيسكو)

---

١ ـ فرانتشيسكو غبريالي (Francesco Gabrieli): مستشرق وابن أحد المستشرقين الكبار (جوزيف غبريالي)، اهتم بالشعر العربي القديم، والتاريخ العربي، شغل مناصب علمية متعددة، منها: عضوية المجمع العربي في دمشق، والمجمع اللغوي في القاهرة. من مؤلفاته: (تاريخ الأدب العربي)، و(عالم الإسلام)، و(خصائص الحضارة العربية الإسلامية) وغيرها.

٢ ـ انياتسو جويدي (Ignazio Guidi: ١٨٤٤ ـ ١٩٣٥م): أحد أبرز أعلام المستشرقين الإيطاليين، ولد في روما. وعيّن أستاذاً للأدب العربي في الجامعة المصرية، ودرس على يده عدد من قادة الفكر العربي في مصر. عدّ شيخ المستشرقين في اللغات السامية، وأتقن اللغة العربية وحاضر بها، ونشر عدداً من الأعمال، منها: قسم من تاريخ الطبري، وفهرس العديد من المخطوطات في مكتبة فيتوريو ايما نويل، ومكتبة انجليكا اكسندرينا، أشهر كتبه: (تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٣٧٥.

٣ ـ أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٨٢ ـ ٨٤، ١٩٩٨.

٤ ـ م.ن، ص٨٣.

ابن (غبريالي)، و(ماريا) بنت (كارلو نللينو)، إذ نجد الأولاد يكملون مسيرة آبائهم[١].

● **الاستشراق الفاتيكاني:**

إن الفاتيكان وإن كانت في واقعها مقاطعة تحيط بها البلاد الإيطالية من جميع جهاتها، ولكنها تعدّ حالياً دولة دينية ذات سيادة، ومعترفاً بها بين الدول العالمية وأروقة الأمم المتحدة، وقوام جيشها ألوية من القسس غير المسلحين. وإنهم رغم فقدانهم تلك السلطة التي كانوا يتمتعون بها قبل عصر النهضة، والتي كانت تخوّلهم قيادة الدول الأوربية سياسياً، وعسكرياً، ودينياً. لا يزال كلّ بابا في الفاتيكان يدعو إلى دراسة الإسلام وتراث المسلمين. وقد تجلى هذا الاهتمام من خلال تأسيس البابا (غريغوريوس الثالث عشر) الكلية المارونية في روما، التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، وقد تخرّج فيها نخبة من المتخصصين باللغات الشرقية، وانتشروا في مختلف البلدان الأوربية[٢]. ومن خصائص الاستشراق الفاتيكاني، ما يلي:

١ ـ يتميّز الاستشراق الفاتيكاني من غيره بحكم طبيعة هذه

---

١ ـ أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٨٤.

٢ ـ انظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج المستشرقين، ص٢٧، نقلاً عن ميشال جحا، الدراسات العربية والإسلامية في أوربا، ص٨٤.

الدولة الدينية والتبشيرية بكونه استشراقاً دينياً بحتاً، ولا يعني ذلك تبرئة ساحته من سائر مناهج الاستشراق الأخرى، فإن الاستعمار السياسي لا يكون مراداً للفاتيكان إلا على نحو الطريقية، للوصول إلى غايته الدينية.

٢ ـ نظراً للدافع الديني الذي تمتاز به الفاتيكان، فإن دائرة نشاطه تستوعب جميع أجزاء العالم، ولكنه فيما يتعلق بالجانب الإسلامي، فقد تمحورت دراساتها الاستشراقية حول اللغة العربية، وتأليف الكتب فيها وفي بعض لهجاتها.

٣ ـ إن البعد الروحي الذي تتمتع به الفاتيكان، وهيمنتها على جميع العالم المسيحي من الناحية الدينية، يجعل من الصعب تصنيفها ضمن جغرافية محدّدة. ولا نجد أنفسنا بحاجة إلى التذكير بعدم قناعتنا بتقسيم المدارس الاستشراقية على أساس الانتماء إلى الرقعة الجغرافية.

● **الاستشراق الهولندي:**

إن علاقة هولندا بالاستشراق عريقة جداً، ولعل جامعة ليدن من أشهر الجامعات التي اهتمت بالدراسات الاستشراقية، وهي تحتوي أضخم مجموعة للمخطوطات والمراجع العربية، وقد خدمت هذه المدينة الفكر الاستشراقي في كلّ أوربا، كما أن لجامعتها مطبعة شهيرة أسسها المستشرق (توماس أربينوس)، ثمّ أشرف عليها المستشرق بريل سنة

١٨١٢م. وقد ظهرت في هولندا الكثير من الكتب في قواعد اللغة العربية، ومعجمات عربية ـ لاتينية، وحققت فيها الكثير من المخطوطات، واشتهر من بين مستشرقيها الكثيرون، ومنهم: (رينهارت دوزي)[١]، و(فنسنك)[٢]، وهذا الأخير هو واضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث[٣].

ولا يخفى أن بداية الطباعة في أوربا إنما نشأت وتطورت في

---

١ ـ رينهارت بيتر ان دوزي (Rinhart Pieter Ann Dozy): مستشرق هولندي من أصل فرنسي، ولد وتوفي بليدن، ودرّس في جامعاتها قرابة ثلاثين سنة، تخصص في اللغة العربية، ونال عضوية الكثير من المجامع العربية.
من أشهر ما خلف: معجمه الذي سمّي باسمه (Supplement aux dictionnaires Arabes)، و(تاريخ المسلمين في اسبانيا)، و(الألفاظ الاسبانية والبرتغالية المنحدرة من أصول عربية)، إلى غير ذلك من الآثار العلمية الشهيرة. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦٥٨ فما بعد.

٢ ـ أرينت جون فنسنك (Arent Jan Wensinck: ١٨٨٢ ـ ١٩٣٩م): مستشرق هولندي، درس على يد كبار المستشرقين من أمثال: هوتسما، ودي خويه، وإسنوك، وهوخرونيه، وسخاو. وخلف سخاو في كرسيه بجامعة ليدن سنة ١٩٢٧م. نال شهادة الدكتوراه في رسالته (محمد واليهود في المدينة) سنة ١٩٠٨م. وضع المعجم لألفاظ الحديث، وإلى جانب ذلك أصدر متناً سهل التناول للأحاديث النبوية مرتباً ترتيباً هجائياً، وقد نقله إلى الحروف العربية الدكتور محمد فؤاد عبد الباقي تحت عنوان (مفتاح كنوز السنة) سنة ١٩٣٤م.

٣ ـ أنظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج المستشرقين، ص٢٨، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد.

هولندا على يد (جوهان غوتنبرغ)[1]؛ فلقب بمخترع الطابعة، وكان أول كتابٍ قام بطبعه نسخة من الكتاب المقدس سنة (١٤٥٦م)[2].

ويمتاز الاستشراق الهولندي باحتضانه الكثير من المؤسسات العلمية التي تعنى بالتراث الشرقي، ومنها: جامعة ليدن التي تحتوي أكبر مجموعة للمخطوطات، والمراجع العربية والإسلامية. مضافاً إلى معهد الشرق الأوسط الحديث بجامعة أمستردام[3].

● الاستشراق الفرنسي:

يعود الاهتمام باللغة العربية في الاستشراق الفرنسي إلى أواسط القرن الثالث للميلاد، حين أخذت فرنسا بالاهتمام باللغات الشرقية، ثمّ ازداد هذا الاهتمام في القرن السادس عشر عندما أُنشئت (الكلية الملكية) لتدريس اللغات الأجنبية، وقد نشطت الدراسات الشرقية فيها

---

١ ـ جوهان غوتنبرغ (Gohann Gutenberg: ١٤٠٠؟ ـ ١٤٦٨؟م): طابع ألماني، إخترع طريقة للطباعة بالحروف المعدنية المنفصلة أو المتحركة (١٤٣٦ ـ ١٤٣٨م)، واستخدمت من غير أن يطرأ عليها تغييرٌ جذريّ حتى مطلع القرن العشرين. يعتقد أنه أتمّ طبع (الكتاب المقدّس) عام ١٤٥٥م، ولم تبق لنا الأيام من هذه الطبعة الفريدة غير عشرين نسخة، وقد وجدت أولاها في مكتبة الكاردينال (مازاران) في باريس؛ فنسبت إليه. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٥، ص٤٨ ـ ٤٩.

٢ ـ أنظر: تاريخ إيران وجهان(١)، من كتب النظام التعليمي المقرّرة في إيران للمرحلة الثانية من الإعدادية،ص٢٢٢، ط٩، ١٣٨٧هـ ش.

٣ ـ أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص١٠٣ ـ ١٠٤، ١٩٩٨.

في القرن السابع عشر لأسباب سياسية. وكانت أبرز تلك الدراسات تبحث في تاريخ البربر في الشمال الإفريقي، حيث كان الفرنسيون يحتلون شمال إفريقيا، بالاضافة إلى لبنان وسوريا.

ولم تكن فرنسا كغيرها من الدول الاستعمارية في الغرب، فلم تكن لتكتفي بنقل التراث وتشويهه، بل كانت تسعى مع ذلك إلى مسح أهمّ الآثار التي تربط الشعب بتراثه، ومن هنا فقد عملت على فرنسة اللغة في البلدان التي تستولي عليها[١].

وهناك من يُرجع توطيد صلة الفرنسيين بالشرق إلى تواجد الدولة الإسلامية في الأندلس، ثم ربطها بحملة نابليون على مصر، وأخيراً بالاحتلال الفرنسي للكثير من البلدان الشرقية[٢]، ويمكن رسم الملامح الآتية للاستشراق الفرنسي:

١ ـ له الأثر الكبير في توجيه الاستشراق الألماني والانحراف به نحو منعطفات دينية وسياسية.

وبرز ذلك من خلال دراسة الكثير من المستشرقين الألمان على يد المستشرقين الفرنسيين، منهم:

---

١ ـ انظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج الاستشراق، ص٣٢ ـ ٣٣، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد.

٢ ـ أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٨٤، ١٩٩٨.

(سلفستردي ساسي)[1] و(فرايتاج)[2] و(فلوجل) و(فلايشر)[3].

٢ ـ كان لجامعة السوربون ذات الشهرة العالمية أثرٌ واضح في تنشيط الدراسات الشرقية في فرنسا.

---

١ ـ دي ساسي (Antoine Isaac Selvester De Sacy: ١٧٥٨ ـ ١٨٣٨م): شيخ المستشرقين الفرنسيين، يحيط الغموض بالكيفية التي صار بها مستشرقاً، كما يقول (هرتفج دارنبور) في ترجمته: (لا نعرف أسماء أساتذته، ولا الغاية التي كانت في اختياره التخصص في الدراسات العربية والشرقية بعامّة)، ويقال إنه بدأ تعلم العبرية وهو في الثانية عشرة من عمره، وإنه كان يلتقي بعض رجال الدين وبعض اليهود، فكان في أحاديثه معهما فرصة لتبادل الآراء، ولم يبد اهتماماً باللغة العربية إلا بعد سنة ١٧٨٥م حيث أدرك أهميّتها بالنسبة إلى دراسة الكتاب المقدّس وتاريخ الأديان. أنظر: عبدالرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٣٣٤ فما بعد.

٢ ـ جورج وليم فرايتاج (Geaorg Wilhelm Freytag: ١٧٨٨ ـ ١٨٦١م): مستشرق ألماني ذائع الصيت، ولد في لونبرج، وتلقى مبادئ العربية في ألمانيا، ورحل في طلبها إلى باريس، حيث تضلع بها على يد (دي ساسي)، عينته جامعة بون أستاذاً للغة العربية فيها سنة ١٨١٩م؛ حيث وافاه أجله. اهتم بالأدب العربي القديم، ونشر منه قصائد كثيرة، من أشهرها: قصيدة البردة لكعب بن زهير بن أبي سُلمى، ومرثية تأبط شراً. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦٩٧ ـ ٦٩٨.

٣ ـ فلايشر (Fleischer. H. L.: ١٨٠١ ـ ١٨٨٨): مستشرق ألماني ذائع الصيت، عرف بأنه مؤسس الدراسات العربية المنظمة في ألمانيا مجارياً بذلك فرايتاج وفلوجل، شغل كرسي اللغة العربية في جامعة (ليبزيج) مدة خمسين عاماً حتى وفاته، خلف آثاراً كثيرة، منها: (تاريخ العرب قبل الإسلام)، و(فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة درسن الوطنية)، و(فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة مجلس الشيوخ). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٠٦ ـ ٧٠٧.

٣ ـ تأسيس الكثير من المعاهد، والمدارس، والمراكز الثقافية، في بلاد الشرق التي كان لها التأثير الكبير في فرنَسَة لغاتها.

٤ ـ يعدّ الاستشراق الفرنسي المرجع الأوربي الأول في الأبحاث والدراسات الخاصة بالطوارق والبربر، وقد ساعد على ذلك تمركز المستعمرات الفرنسية في أفريقيا. وإن اهتمام الاستشراق بهذا النوع من الدراسات، لا يخلو من نوايا استعمارية خبيثة.

٥ ـ ضمّ بين صفوفه الكثير من ضباط القوات المسلحة الفرنسية، وأتاح لهم عملهم في المستعمرات الفرنسية النبوغ في ميدان الدراسات الشرقية في مختلف جوانبها، ونذكر من هؤلاء: (جاكو)[١]، و(مونتاني)[٢]، و(برشيه)[٣]، وغيرهم[٤].

---

١ ـ جاكو (Jacquat. Cl.): أحد الضباط في الجيش الفرنسي الذين استشرقوا، خلف دراستين، هما: (دولة العلويين) سنة ١٩٢٩م، و(أنطاكية مركز سياحة) في ثلاثة أجزاء، سنة ١٩٣١م. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٢٤٢.

٢ ـ روبرت مونتاني (Robert Montagne: ت: ١٩٥٤م): مستشرق فرنسي، كان أستاذاً في الكوليج دي فرانس، ومديراً لمركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية، وعنى بالدراسات الاجتماعية المتصلة بشمال أفريقيا والشرق الأدنى.

٣ ـ ليون برشيه (Leon Bercher: ١٨٨٩ ـ ١٩٥٥م): مستشرق فرنسي، كان في البدء ضابطاً مترجماً، ثمّ تدرّج في عدّة وظائف إدارية في تونس، وعمل فيها مديراً للدراسات في معهد الدراسات العليا سنة ١٩٥٠م، من أعماله: ترجمة (طوق الحمامة) لابن حزم، وترك بعد وفاته ترجمة كتاب (التحفة) لابن عاصم، وهي في الفقه المالكي. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٩١.

٤ ـ أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٨٥ ـ ٨٧، ١٩٩٨.

• الاستشراق الأمريكي:

ورثت الولايات المتحدة الأمريكية في بداية أمرها الاستشراق من مجموعة من البلدان الأوربية، إذ شكّل سكانها مزيجٌ من الألمان، والهولنديين، والبريطانيين، والأسبان، والإيطاليين، وغيرهم من الذين هاجروا إلى العالم الجديد بُعيد اكتشافه من قبل البحار الإيطالي (كريستوفر كولمبوس)[1] من باب الصدفة إذ أراد اجتياز المحيط الأطلسي للوصول إلى الساحل الشرقي من الهند الصينية، في رحلة أريد منها التخلص من دفع الإتاوة للدولة العثمانية؛ فرست به سفنه الثلاث ـ في غفلةٍ من أمره ـ على ساحل العالم الجديد، متصوّراً أنه قد وصل إلى الساحل الهندي، فأطلق على (حمر الجلود) تسمية (الهنود) من باب الخطأ في تحديد المصداق، وبقي على جهله بحقيقة اكتشافه حتى وافته المنية. بل بقي البحارة الذين واصلوا مسيرته على جهلهم

---

١ ـ كريستوفر كولومبوس (Christopher Columbus)، ملاح إيطالي، ولد عام ١٤٥١م، وتوفي عام ١٥٠٦م، عمل في خدمة إسبانيا، مهّدت رحلاته الأربع إلى العالم الجديد السبيلَ لحركة الاستكشاف والاستعمار الأوربية، وغيّرت مجرى التاريخ. آمنَ بأنّ في إمكانه الوصول إلى الشرق من طريق الإبحار غرباً. فقام بأولى هذه الرحلات في الثالث من أغسطس عام ١٤٩٢م مبحراً من ميناء بالوس (Palos) بسفنه الثلاث؛ فوصل إلى جزر بهاما (Bahama Islands) في الثاني عشر من أكتوبر عام ١٤٩٢م، وبذلك اكتشف أمريكا، من غير أن يدري أنه فعل. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٣، ص٦١، دار العلم للملايين،ط١، بيروت، ١٩٨٠.

هذا حتى عام ١٥٠٢م، حين أدرك مواطن إيطالي آخر هو (أمريكو فسبوتشي)[١] أن ما وصل إليه زميله (كريستوفر كولومبوس) لم يكن هو الهند أو الصين، بل هو عالم جديد، ومنذ ذلك الحين اشتهرت (أمريكا) باسم هذا الملاح الإيطالي[٢].

ثم تتابع المهاجرون من سائر البلدان الأوربية إلى الوفود على هذا العالم البكر جماعاتٍ جماعات، ولم تمض مدّة طويلة حتى انصهر هؤلاء المهاجرون في مجتمع واحد، له سمات مشتركة حملت هدفاً ومساراً واحداً. الأمر الذي انعكس على الاتجاه الاستشراقي فيه.

إن الاستشراق الأمريكي خلافاً للمدارس الاستشراقية الأخرى، لا يتمتع بماض عريق، فهو حديث حداثة أمريكا نفسها، فلم يلحظ الاستشراق الأمريكي إلا في فترات قريبة جدّاً، وبشكل مثير في القرن العشرين تحديداً، بحيث صارت معقلاً لأهم مراكز الاستشراق وأخذ أبرز أعلام الاستشراق يتخذون من أمريكا وجامعاتها مقرّاً لهم.

---

١ ـ أمريكو فسبوتشي (Amerigo Vespucci)، (١٤٥٤ ـ ١٥١٢م): بحّار ايطالي، راد سواحل العالم الجديد بعد كولومبوس، وذلك بعد رحلتين رئيستين: (١٤٩٩ ـ ١٥٠٠)، و(١٥٠١ ـ ١٥٠٢م)، وقد قادته رحلته الثانية إلى استنتاج أنّ العالم الجديد قارّة مستقلة، وليست جزءاً من آسيا كما تصوّر كريستوفر كولومبوس، ومن هنا دعي العالم الجديد بأمريكا تخليداً لذكرى هذا الملاح. أنظر: موسوعة المورد، منير البعلبكي، ج١٠، ص٩١، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، ١٩٩٢.

٢ ـ أنظر: تاريخ إيران وجهان (١)، من كتب النظام التعليمي المقرّر في إيران للمرحلة الثانية من الإعدادية،ص٢٢٠، ط٩، ١٣٨٧هـ ش.

وفي هذه المرحلة لم يعد الاستشراق ذا طبيعة دينية، وإنما نجده متمحّضاً للأغراض السياسية، والاقتصادية، والاستعمارية البحتة. فتأسست مجلة (الشرق الأوسط) في عام١٩٢٧م، ونظمت جمعية الاستشراق الأمريكي ندوة خاصة عن الإسلام، وكان من نتائجها أن وجد الاستشراق الأمريكي نفسه أمام حاجة ملحة لدراسة مركّزة للتاريخ الإسلامي الحديث، بدلاً من الوسيط. ويشير (بيتر جران) إلى هذه الحقيقة قائلاً:

«إن صانع القرار السياسي الأمريكي لم يكن ليتكهن بالثورات التي حدثت في المنطقة العربية، من هنا فقد صارت الدعوة ضرورية وملحة لاستحداث نوع جديد من الاستشراق، يركز على التاريخ الحديث والمعاصر للأمة العربية، لا كما هو الحال في الاستشراق التقليدي الذي يركز على التاريخ العربي الوسيط»[١].

وهذا هو السرّ في تفوّق الاستشراق الأمريكي وتغلبه على الاستشراق الأوربي، وذلك لصلته الوثيقة بالهيمنة التي مارستها الولايات المتحدة على شعوب العالم بأسره، والشرق في مقدمته[٢].

---

١ ـ انظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج الاستشراق، ص٣٤، نقلاً عن عبد الجبار ناجي، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي.

٢ ـ انظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص١٠١ ـ ١٠٢، ط١.

● الاستشراق البريطاني:

يعود الاستشراق البريطاني إلى القرون الوسطى، إذ اشتغل عددٌ كبيرٌ من علماء تلك الفترة بدراسة اللغة العربية وآدابها، ومنهم: (إدواردز أف باث)[1]، الذي ترجم أعمال الفلاسفة اليونان. كما تأسس أول كرسي للدراسات العربية في جامعة كمبرج سنة ١٦٢٣م، وأول كرسيّ للدراسات العربية في جامعة أُكسفورد سنة ١٦٢٦م.

كان الاستشراق البريطاني في بداية أمره ذا طابع ديني، ولكنه أخذ في العصور المتأخرة منحىً سياسياً استعمارياً صارخاً، إذ اشتهرت الدولة البريطانية بانتهاج سياسة (فرق تسد)، للاستيلاء على مقدّرات الشعوب، وتجزئة أراضيها، وتقطيع أوصالها، وقد ركزت لإنجاز مشروعها هذا على نشر الدراسات الطائفية، ونجحت من خلالها في الاستيلاء على معظم أرجاء الكرة الأرضية، حتى باتت إمبراطوريّتها تعرف بـ (الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس).

وكان المستشرقون البريطانيون يعملون في كلّ المجالات التي تخدم الاستعمار البريطاني، ومن بينها شركة الهند الشرقية البريطانية،

---

١ ـ إدواردز أف باث(Edwards, A.B.): مستشرق بريطاني. من آثاره:(النيل)، و(إحصاءات سياسية واقتصادية عن الشرق الأوسط) لندن سنة ١٩٥٠م. أنظر: العقيقي، ج٢، ص٤٩٠.

التي كان المستشرق الإنجليزي (كلود لويس جيمس)[١]، ممثلاً لها في بغداد. وكان المستشرق (وود برتشرد)[٢] قنصلاً بريطانياً في تونس. كما قام المستشرق (بالمر) الذي أرسلته جمعية استكشاف فلسطين، بدراسة الصحراء في سيناء وفلسطين، وفي سيناء واجه مصيره الأسود، فقد اغتيل على يد البدو الذين طمعوا بأكداس ما كان في حوزته من الأموال التي كان يحملها لشراء الضمائر والذمم، وبناء العلاقات المشبوهة[٣].

● الاستشراق الإسباني:

إن لإسبانيا صلة وثيقة بالعالم الإسلامي والعربي، فقد زحفت الحضارة العربية والإسلامية وامتدت في ربوع الأندلس واستقرت فيها لأكثر من خمسة قرون، الأمر الذي أتاح للمستشرقين من الأسبان أن ينشطوا في دراسة تاريخ العرب والمسلمين، والوقوف على

---

١ ـ كلود لويس جيمس (James, G. L.): ممثل شركة الهند الشرقية، ثمّ المقيم البريطاني في بغداد. من آثاره: (رحلة رايس في العراق) سنة ١٨٢٠م، وقد نشرته أرملته، ونقله إلى العربية اللواء بهاء الدين نوري. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٤٧٦.

٢ ـ وود برتشرد (Brecherd, W.): قنصل إنجلترا في تونس. من آثاره: (الأدلة الجلية في موافقة الشريعة الإسلامية لقواعد الإنسانية)، الإسكندرية سنة ١٨٧٨م، و(الإسلام والإصلاح) سنة ١٨٧٨م. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٤٨٢.

٣ ـ أنظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج المستشرقين، ص٢٩، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد.

تأثيراتـه.

وعليه فإنّ الاهتمام الإسباني بالشرق أمر طبيعي، يحتمه الواقع التاريخي الذي ترك وراءه مادة علمية كبيرة، شكلت الدافع الأول الذي حرّك الأسبان نحو الاهتمام بالعلوم الشرقية والتخصص فيها.

يعود تأسيس المدارس العربية في إسبانيا إلى أواسط القرن الثالث عشر للميلاد، وذلك بأمر الملك (ألفونسو العاشر)، وكان أساتذتها من العرب الأقحاح. إلا أن حركة الاستشراق لم تبلغ ذروتها في إسبانيا إلا في القرن التاسع عشر على يد المستشرق (مايكل آسين بلاثيوس)[1]، الذي قام بتأسيس مجلة (الأندلس) الاستشراقية الشهيرة.

وأما فيما يتعلق بالمكتبات التي تحتوي على كنوز نفيسة من المخطوطات العربية والإسلامية، فليس هناك أشهر من مكتبة (الاسكوبال)، وكذلك (المكتبة الوطنية) في مدريد.

هذا وتستعين الحكومة الإسبانية ببعض المستشرقين في مجالها

---

١ ـ مايكل آسين بلاثيوس .(Miguel Asin, Y. Palacios: ١٨٧١ ـ ١٩٤٤م): مستشرق إسباني، ولد في مدينة سرقسطة. التحق بالمعهد المجمعي لتخريج رجال الدين، وظلّ يتابع دراسته هناك حتى تخرّج قسيساً، وبدأ عمله الكهنوتي سنة ١٨٩٥م في كنيسة سان كيتانو، تلقى اللغة العربية على (ريبيرا) سنة ١٨٩١م. نال شهادة الدكتوراه من جامعة مدريد سنة ١٨٩٦م، ونشر رسالته عن العقيدة والأخلاق والتصوّف لدى الغزالي سنة ١٩٠١م.

أنظر: عبدالرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١٢١ فما بعد.

الدبلوماسي، ومنهم على سبيل المثال: (اميليو غارثيا غوميث)[1]، الذي عمل سفيراً لأسبانيا في كل من بغداد وبيروت. كما شغل مستشرقون آخرون مناصب علمية كبيرة في البلاد، منهم: (بيدرو مارتينث مونتافث) وهو مختصّ بالأدب العربي الحديث، ويرأس جامعة مدريد[2].

ويمتاز الاستشراق الإسباني بالنقاط الآتية:

١ ـ يكاد الاستشراق الإسباني يكون قريباً من الاستشراق الألماني، في تركيزه على التراث العربي والاهتمام به حفظاً، وفهرسة، وتحقيقاً، ونشراً. ولكنه تقدّم عليه بامتلاكه جزءاً كبيراً من التراث العربي والإسلامي في المكتبات التي خلفها المسلمون في إسبانيا.

٢ ـ مع أن القرن العشرين قد شهد انحساراً واضحاً في العمل الاستشراقي، إلا أننا نجد شذوذاً عن ذلك في الاستشراق الإسباني، إذ نرى عدداً من المستشرقين الأسبان وفي طليعتهم (آسين بلاثيوس)

---

١ ـ إميلو غارثيا غوميث (Garcia Gomez, E.): ولد في مدريد سنة ١٩٠٥م، وتخرّج في جامعتها سنة ١٩٢٦م. سُمّي أستاذاً بجامعة غرناطة ومدريد، ومديراً للمعهد الثقافي الأسباني العربي. قصد لبنان وسوريا ومصر، وانتخب عضواً في مجامع عديدة، منها. اختير سفيراً لإسبانيا في كلّ من بغداد وبيروت. من آثاره: (رواية عربية ـ مصدر مشترك لابن الطفيل وجراثيان)، و(نصّ عربي من أسطورة الإسكندر)، وهما رسالتاه للدكتوراه. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦١٠.

٢ ـ أنظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج المستشرقين، ص٤٤ ـ ٤٥.

الذي ألف قرابة ٢٥٠ كتاباً وبحثاً، بعضها في عدّة مجلدات. ومثله (جونثاليث بلانثيا)[١]، الذي خلف ما يقارب ٣٢٠ كتاباً وبحثاً. وهذا العدد الهائل من الكتب يذكرنا بما تميز به المستشرقون الألمان في مراحلهم الاستشراقية الأولى.

٣ ـ كانت الفلسفة، والتصوّف، والتاريخ، والآداب، من أبرز الميادين التي ركز عليها المستشرقون الأسبان، فقد أنتجوا فيها مؤلفات كثيرة. ومن البارزين في هذا المجال: (بلاثيوس)، و(رايموندو مارتيني)، و(الأب داريو).

٤ ـ فهرسة المخطوطات العربية من المجالات التي اهتم بها المستشرقون الأسبان، ومن أهم الأسماء فيها: (باسكول جاينجوس)[٢]،

---

١ ـ أنجل جونثاليث بلانثيا (Angel Gonzalez Palaencia: ١٨٨٩ ـ ١٩٤٩م): من أشهر المستشرقين الأسبان، اهتم بالفلسفة الإسلامية والأدب العربي في الأندلس. حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة مدريد في سنة ١٩١٥م في رسالة هي تحقيق كتاب (تقويم الذهن) لأبي الصلت الداني. خلف عدداً من الآثار، منها: كتابه الذي ضمن له شهرة واسعة: (تاريخ الأدب العربي في إسبانيا)، و(المخطوطات العربية والإسبانية المكتوبة بالخط العربي)، كما اهتم بتاريخ المستعربين، وهم (الأسبان النصارى الذين اعتنقوا الإسلام في طليطلة)؛ فأصدر عنهم كتاباً بعنوان: (المستعربون في طليطلة إبان القرن الثاني عشر والثالث عشر). أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٧٢.

٢ ـ باسكول جاينجوس (Pascual Gayangos: ١٨٠٩ ـ ١٨٧٩م): مستشرق إسباني، درس العربية على يدي المستشرق الفرنسي الشهير سيلفستر دي ساسي ، ورحل إلى شمال أفريقية لإتقان اللغة العربية. أسهم في تحرير دائرة معارف تدعى =

و(سلفادور غوميث)[١]، و(ألاركون)[٢].

٥ ـ كان للقساوسة والرهبان أثر واضح في تنشيط الاستشراق الإسباني، وذلك من طريق انخراطهم الشخصي في هذا الميدان، أو بدفعهم الباحثين الآخرين إليه، ومن أشهر هؤلاء الرهبان والقساوسة يمكننا تسمية: (يوحنا الإشقوبي)[٣]،

= (Penny Cyclopaedia)، شغل مناصب متعدّدة، منها: رئيس كرسي اللغة العربية في جامعة مدريد، ومديراً للتعليم العام، وعضواً في مجلس الشيوخ. له آثار عديدة، منها: ترجمة (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) إلى الإنجليزية في مجلدين أنظر: عبدالرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١٧٠.

١ ـ سلفادور جوميث (Salvador Gomez Nogales): راهب إسباني، ولد سنة ١٩١٢م، اهتم بالجوانب الفلسفية، والفلسفة الإسلامية بوجه خاص، وله أعمال حول ابن رشد وابن حزم، ومن أعماله: ترجمة (تهافت التهافت)، لابن رشد إلى الإسبانية، و(ما وراء الطبيعة عند العرب)، و(نظرية الاستسلام في صوفية الإشراق) الخ. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦١٣.

٢ ـ ألاركون سانتون (Alarcon Y. Santon: ١٨٨٠ ـ ١٩١٣م): مستشرق إسباني، تمكن من اللغة العربية، خلف عدداً من الأعمال، منها: (فهرس المخطوطات العربية والأعجمية المكتوبة بلغة عامية في مدينة العرائش). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٥٩١.

٣ ـ يوحنا الإشقوبي (Juan Alfonsi De Segobia): لاهوتي إسباني، ولد في السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر للميلاد في إشقوبية، وتوفي بعد سنة ١٤٥٦م. أرسله الملك يوحنا الثاني إلى بازل لحضور مجمعها الذي انعقد سنة ١٤٣٣م وما تلاها، فمارس فيه نشاطاً كبيراً. صار كاردينالاً سنة ١٤٤٠م، ثمّ تخلى عنها واعتزل في دير (إيتون) =

و(بيدرو دي الكـالا)[١] ، و(ريموندو مارتيني)[٢] ، و(فـرانتشيسكو كانيس)[٣].

= في سافويا بفرنسا، وفي خلوته هناك فكر في الدفاع عن المسيحية ضدّ الإسلام، إذ تبيّن له عدم جدوائية مقاومته عسكرياً؛ فلجأ إلى سلاح الكتابة. واستعداداً لذلك رأى ضرورة ترجمة القرآن إلى اللاتينية، ثمّ كتب ردّاً على الإسلام بعنوان (طعن المسلمين بسيف الروح)، وقد ضاع هذا الرد، كما ضاعت ترجمة القرآن. لكن (أنطونيو) قرر في كتابه (المكتبة الإسبانية القديمة) أنه رأى مخطوط كتابه في الردّ على الإسلام. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٤١.

١ ـ بيدرو دو الكالا (Pedro de Alcala): من الرعيل الأول من المستشرقين الإسبان، عاش في القرن الخامس عشر، تعلم العربية وأتقن الخطابة بها؛ فأوفده رئيس أساقفة طليطلة (فرناندو دي تالابيرا) للتقريب بين المسلمين والنصارى في مملكة غرناطة سنة ١٤٩٩م، ومن آثاره: (الإرشادات) بالأسبانية والعربية، وهو أول مصنف لقواعد اللغة العربية في أوربا، ويعزى إليه أنه أوّل من وضع قاموساً بلغة أوربية ـ عربية. أنظر: عبد الحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٤٩، نقلاً عن الزيادي، ص٩٣.

٢ ـ رايموندو مارتيني (R. Martint: ١٢٣٠ ـ ١٢٨٤م): من طلائع الرهبان المستشرقين، حيث كان في طليعة العشرين راهباً الذين أتقنوا العربية وعلمها في تونس، وأتقن إلى جانبها لغات شرقية أخرى، وقد تبحّر في القرآن، وحفظ صحيحي مسلم والبخاري، خلف بعض الآثار، منها: (خنجر الإيمان) في الردّ على المسلمين واليهود، اعتمد فيه حجج الغزالي وغيره ممن تصدّوا لمجادلة المشائين، وظلّ هذا الكتاب طوال قرون نموذجاً رفيعاً للجدل الديني بين فقهاء المسيحية والإسلام واليهودية. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٣١.

٣ ـ فرانتشيسكو كانيس (Francisco Canes: ١٧٣٠ ـ ١٧٨٩م): راهب فرنشسكاني من الحفاة (dascalzo)، عمل في كلية الآباء المبشرين الإسبان في دمشق، وعضواً في =

٦ ـ إنّ الاستشراق الأسباني شديد الشبه بالاستشراق الإيطالي، إذ توجد فيه الكثير من المستشرقات، وخاصة في العصر الحديث، ومن أبرزهن: (رافائيلا ماركيث)[١]، و(ماريا فاثكيث)[٢]، و(خواكينا إيبانيث)[٣]، وغيرهن.

٧ ـ ركز الاستعمار الأسباني على التواجد في أمريكا اللاتينية، ولم يكن له مساهمة واضحة أو ناجحة في النشاط السياسي والاستعماري في الشرق الأوسط والبلدان العربية والإسلامية، كما هو الحال لدى غيرهم من المستشرقين في البلدان الأوربية[٤]. ولا غرو في

= أكاديمية التاريخ، له من الأعمال: (قاموس إسباني ـ لاتيني ـ عربي)، و(النحو العربي العامي والفصيح). أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٤٥٩.

١ ـ رافائيلا ماركيث (Rafaela castrillo Marques): مستشرقة إسبانية، ولدت سنة ١٩٣١م، تخصّصت في اللغة العربية، وحصلت على شهادة الدكتوراه في تاريخ شمال إفريقيا، أنظر: ميشال جحا، الدراسات العربية، ص١٦١، نقلاً عن الزيادي، ص٩٤.

٢ ـ ماريا فاثكيث (Maria Vazquez): مستشرقة إسبانية، تخصّصت في اللغة العربية، وزارت عدداً من البلاد العربية، عملت في المعهد الإسباني العربي للثقافة. أنظر: ميشال جحا، الدراسات العربية، ص١٦١، نقلاً عن الزيادي، ص٩٤.

٣ ـ خواكينا إيبانيث (Joaquina Ibanez): مستشرقة إسبانية، تخصّصت في اللغة العربية، ودرست في معهد الدراسات العربية في جامعة غرناطة، نالت الدكتوراه في أشعار (ابن ليون) حول الزراعة، أنظر: ميشال جحا، الدراسات العربية، ص١٦٢، نقلاً عن الزيادي، ص٩٤.

٤ ـ أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٩٢ ـ ٩٥، ١٩٩٨.

ذلك، فبعد أن كان الأسبان هم الذين اكتشفوا العالم الجديد والقارّة الأمريكية، فقد انحصر اهتمامهم الاستعماري بهذا الجزء الغربي من العالم.

أضف إلى ذلك أن المنافسة بين الأسبان والبرتغاليين في مجال الاكتشافات الجغرافية، كانت تحدث بينهما بعض النزاعات. الأمر الذي دعاهما إلى إبرام ميثاق يقتسمان بموجبه العالم فيما بينهما، فكان الشرق من حصة البرتغال، بينما ترك الغربُ للأسبان.

● الاستشراق الروسي:

مرّ الاستشراق الروسي بمرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل ثورة أكتوبر عام ١٩١٧م، وقد انطلق الاستشراق فيها من الأمور الثلاثة الآتية:

١ ـ الموقف المتوتر والمشوب بحروب دائمة مع الإمبراطورية العثمانية.

٢ ـ موقف الكنيسة من الإسلام.

٣ ـ الحرص الروسي على عدم التخلف عن ركب أوربا الغربية علمياً وحضاريّاً.

وقد دخلت أول مطبعة عربية إلى روسيا عام ١٧٢٠م، بأمر من

(بطرس الأكبر)[١]، كما ظهرت أول مجلة استشراقية في نهاية القرن التاسع عشر، وهي مجلة (المذكرات) التي أسسها (البارون فيكتور رومانوفتش روزن).

المرحلة الثانية: مرحلة ما بعد الثورة الشيوعية، التي أخذ الاستشراق فيها بالاهتمام بواقع القضايا التاريخية، والآيدويولوجيات السياسية والفكرية التي تشغل العالم العربي المعاصر، وتوظيف الاستشراق من أجل تطوير العلاقات الاقتصادية والسياسية بين الاتحاد السوفيتي والبلاد العربية، فصدرت مجلة (الشرق الثوري) عام ١٩٢٩م، وكان الكثير من قادة الأحزاب الشيوعية والاشتراكية في مصر وفلسطين يشرفون على مواد نشرها.

وكان للمستشرق (كولتشكوفسكي)[٢] أثر كبير في تطوير حركة

---

١ ـ بطرس الأول، المعروف بـ (بطرس الكبير أو الأكبر) (peter I) also (Peter the great: ١٦٧٢ ـ ١٧٢٥م): قيصر روسيا (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥م). عدّه بعض المؤرخين أعظم قياصرة روسيا بلا استثناء، أعاد تنظيم الجيش، وأنشأ أسطولاً بحرياً، وأقام مئات المصانع، وبذلك جعل من روسيا دولة أوربية ذات شأن. عزز السلطة الملكية على حساب سلطة النبلاء ورجال الكنيسة الأرثوذوكسية، وعمل من أجل بسط سلطان روسيا حتى سواحل بحر البلطيق والبحر الأسود. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٨، ص١٦.

٢ ـ إغناطيوس يوليا نوفيتش كراتشكوفسكي (Ignatig Julianovic Krackovskij: ١٨٨٣ ـ ١٩٥١م): من أبرز المختصين بالدراسات العربية من بين المستشرقين الروس. نصحه أستاذه شيخ المستشرقين الروس (البارون فيكتور رومانوفتش روزن) صاحب =

الاستشراق السوفيتي، إذ أدت به رحلته إلى سوريا ولبنان ومصر إلى معرفة الأدب العربي الحديث؛ فأصبح من أكثر المتحمّسين له والداعين إلى دراسته.

هذا وتوجد عشرات الآلاف من المخطوطات العربية في الاتحاد السوفيتي. ويعدّ متحف (ابورميتاج) في مدينة لينينغراد من أهمها. وقد أسس في موسكو سنة ١٩٢٠م (المعهد المركزي للغات الشرقية الحيّة). كما أنشئت عام ١٩٢٢م (جمعية المستشرقين الروس) في موسكو، وهي الجمعية التي تصدر مجلة (الشرق الجديد). وفي سنة ١٩٣٠م أنشئ (المعهد الاستشراقي) التابع لأكاديمية العلوم. وأسست أيضاً (جمعية المستعربين) عام ١٩٣٤م في لينينغراد. وفي تشرين الثاني من عام ١٩٣٧م تم عقد مؤتمر المستعربين السوفيت؛ ليفتتح عصراً جديداً لعلم الاستشراق، فأصبح (معهد الاستشراق لأكاديمية العلوم السوفيتية)

= الفضل الأكبر على الاستشراق في روسيا، باختيار مهنة التدريس في الجامعة. عنى بالعلاقات بين الآداب المسيحية والآداب الإسلامية في الشرق. ارتحل إلى سوريا ولبنان ومصر، فعقد أواصر الصداقة مع بعض الأدباء هناك، منهم: (أمين الريحاني)، و(محمد كرد علي)، و(جرجي زيدان). وفي مصر عثر على رسالة لأبي العلاء المعرّي تحت عنوان (رسالة الملائكة) هاجم فيها تصوّر الفقهاء والمفسّرين للملائكة. ومنذ ذلك الحين اهتم بجمع مخطوطات أبي العلاء المعرّي بواسطة التصوير الفوتوغرافي، ومن ثمرات أبحاثه في هذا المجال، بحث بعنوان (في نشأة وتأليف رسالة الغفران لأبي العلاء المعرّي). للمزيد أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المورد، ص٤٦٨ فما بعد.

الذي أنشئ بعد عام ١٩٣٧م، محوراً لحركات الاستشراق في الاتحاد السوفيتي[(١)].

هذا ويمكن عرض ملامح الاستشراق الروسي فيما يأتي من النقاط:

١ ـ بدأ الاستشراق الروسي بالاهتمام باللغات الشرقية قبل الثورة البلشفية، وكان للاستشراق الألماني تأثيرٌ ملحوظ في تكوينه.

٢ ـ تركيز الاهتمام على الأدب العربي نثراً وشعراً، وكان نتيجة ذلك أن تمخض عن الكثير من المؤلفات باللغة الروسية، نذكر منها: مئة وأربعة وعشرين كتاباً. ومن أعلام المدرسة الأدبية: (كراتشوفسكي)، و(كريمسكي)[(٢)].

٣ ـ كان للوجود الإسلامي في بعض المناطق الروسية، الأثر الواضح والملموس في مدّ الاستشراق الروسي بمادة سخيّة نفعته في مجال البحث والتحقيق، وخاصة ما خلفه من مخطوطات كثيرة بالعربية والروسية، ومنها الكثير من مؤلفات أعلام المسلمين، مثل:

---

١ ـ انظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج المستشرقين، ص٤٥ ـ ٤٧، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد.

٢ ـ كريمسكي (Krymsky. A. E.: ١٨٧١ ـ ١٩٤١م): مستشرق روسي شهير، اهتم باللغة والتاريخ والأديان، شغل مناصب علمية عديدة، أهمها: سكرتير مجمع العلوم الأوكراني، خلف عدداً من الأعمال، منها: (العالم الإسلامي ومستقبله)، و(تاريخ الإسلام)، و(الشاعر الزنديق أبان اللاحقي) الخ. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٣، ص٩٤٧.

(الخوارزمي)[1]، و(البيروني)[2]، و(ابن سينا)[3]، و(الفارابي)[4].

---

١ ـ الخوارزمي، محمد بن موسى(٧٨٠ ـ ٨٥٠م): فلكي وعالم في الرياضيات، واضع علم الجبر، ترجمت كتبه إلى اللاتينية؛ فكانت مرجع الدارسين في أوربا فترة طويلة من الزمان، أشهر آثاره كتاب (الجبر والمقابلة)، وله كتاب في علم الحساب لم يحفظ لنا إلا في ترجمته اللاتينية، وهي بعنوان (Algoritmi de numero Indorum)، ومن هذا العنوان نشأت لفظة (algorism)، التي تعني في الإنجليزية (علم الحساب). منير البعلبكي، موسوعة المورد، المجلد الأول، ص٨١، ط١، بيروت، ١٩٨٠م.

٢ ـ البيروني، أبو الرّيحان محمد(٩٧٣ ـ ١٠٤٨م): مؤرّخ ورياضي وفلكي، وضع معادلة لاستخراج مقدار محيط الأرض، وقال: إنّ الأرض تدور حول محورها، وإنّ سرعة الضوء أعظم من سرعة الصوت. ومن مصنفاته (الآثار الباقية عن القرون الخالية)، وقد ترجم إلى الإنجليزية، و(القانون المسعودي) وهو كتاب مهم في الفلك، ألفه للسلطان مسعود بن السلطان محمود الغزنوي. منير البعلبكي، موسوعة المورد، المجلد الثاني، ص٧٠، ط١، بيروت، ١٩٨٠م.

٣ ـ ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله (٩٨٠ ـ ١٠٣٧م): فيلسوف وطبيب، لقب بـ(الشيخ الرئيس)، ويُعدّ منظم الفلسفة والعلم في الإسلام، كما كان أرسطو في اليونان، تجاوزت مصنفاته المئة مصنف. من أشهرها كتاب (القانون) في الطب، وقد نقل إلى اللاتينية، وظلّ يدرّس في معاهد الطب الأوربية حتى القرن السابع عشر. وقد برع ابن سينا في الشعر أيضاً، وله قصيدة مشهورة في (النفس). منير البعلبكي، موسوعة المورد، المجلد الأول، ص٢٢٣ ـ ٢٢٤، ط١، بيروت، ١٩٨٠م.

٤ ـ الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ (٨٧٨ ـ ٩٥٠م): فيلسوف مسلم، يعتبر أحد ألمع النجوم الساطعة في تاريخ الفكر العربي، وأحد أوائل المفكرين الذين عرفوا العرب بفلسفتي أرسطو وأفلاطون. حاول التوفيق بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية. تأثر به كلّ من ابن سينا وابن رشد. لقب بـ (المعلم الثاني) باعتبار أن أرسطو هو المعلم الأول. اتصل ببلاط سيف الدولة الحمداني في حلب، ابتداءً من عام ٩٤٢م، حيث قضى بقية حياته. أشهر آثاره (آراء أهل المدينة الفاضلة).

٤ ـ نظراً لكثرة المخطوطات الإسلامية في روسيا، فقد اهتم المستشرقون الروس بفهرستها، ويعد (إيفانوف)[١] من أبرز المفهرسين من المستشرقين الروس.

٥ ـ ظهور المطابع الشرقية في روسيا مبكراً، الأمر الذي أنتج طبع الكثير من نفائس الكتب، في مختلف المجالات. ومن أشهرها مطبعة: (قازان)، و(بطرسبورغ)[٢].

● الاستشراق الألماني:

بدأت عناية المستشرقين الألمان بحضارة الإسلام منذ أن اتصلت ألمانيا ببلاد الإسلام إثر الحملة الصليبية الثانية في سنة ١١٤٧م، وخاصة بعد أن بدأ رجال الدين بترجمة الكتب العربية. فعندما أنجزت أول ترجمة للقرآن الكريم بين عامي (١١٤١ ـ ١١٤٣م) إلى اللغة اللاتينية، نجد الألماني (هرمان الدلماشي)[٣] قد أسهم فيها، إلا أن هذه

---

١ ـ إيفانوف (Ivanow, W.): من أعلام المستشرقين الروس الذين وقفوا علمهم على دراسة العقيدة الإسماعيلية. من آثاره: (المخطوطات الإسماعيلية في المتحف الآسيوي)، و(فهرس المؤلفات الإسماعيلية). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٣، ص٩٧٠ ـ ٩٧١.

٢ ـ انظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٨٤، ١٩٩٨.

٣ ـ هرمان الدلماشي (Hermann Alemanus: ت: ١١٧٢م): زميل روبرت في رهبانيته ودراساته وترجماته، عيّن رئيساً لشمامسة (سربابيلون)، ثمّ راعياً لكنيسة (شيني)، ثمّ أسقفاً على (إستورجة). نقل (إصلاح المجسطي) للمجريطي، وعلم الأخلاق، وبعض =

الترجمة لم تبصر النور إلا بعد أربعة قرون من إنجازها.

وفي عام ٩٥٦م، قام (أوتو الكبير)(١) إمبراطور ألمانيا، و(عبدالرحمن الناصر)(٢) بالأندلس بتبادل السفراء فيما بينهما، وكان هدف الإمبراطور الألماني من وراء ذلك على ما يبدو معرفة اللغة العربية لتساعده على ترجمة التوراة؛ وذلك لاشتراك العربية والعبرية في أصلهما السامي.

كما بدأت محاولة تدريس العربية مع الألماني (يعقوب كريستمان:

= الرسائل في الكيمياء، وصنف في كتاب البلاغة والشعر لأرسطو، مستعيناً بشرح الفارابي على البلاغة، وبتلخيص ابن رشد للشعر. كما ترجم تلميذه (رودلف دي بروجس) شروح مسلمة المجريطي على النظام الرياضي لبطليموس. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٢٤.

١ ـ أوتو الأوّل (Otto I: ٩١٢ ـ ٩٧٣م): ملك ألمانيا (٩٣٦ ـ ٩٧٣م)، رأس الإمبراطورية الرومانية المقدّسة (٩٦٢ ـ ٩٧٣م). قوّى دعائم (الرايخ) الألماني بسحقه عدداً من الثورات الداخلية وانتصاره الحاسم على المجر. نشب صراعٌ عنيفٌ بينه وبين البابا يوحنا الثاني عشر. شهدت ألمانيا في عهده فترة انبعاث ثقافي. يعرف بـ (الكبير: the great). أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٧، ص١٨٢.

٢ ـ عبدالرحمن الناصر (٨٩١ ـ ٩٦١م): أمير قرطبة (٩١٢ ـ ٩٦١م) وأوّل خليفة أمويّ في الأندلس (٩٢٩ ـ ٩٦١م)، بنى قصر الزهراء في قرطبة، وجعل من عاصمته (قرطبة) أهم مراكز الثقافة في أوربا كلها. وقيل: إنها اشتملت في عهده على مئة وثلاثة عشر ألف دار، وواحدٍ وعشرين ربضاً (أي ضاحية)، وسبعين مكتبة عامة، ومساجد وقصورٍ لا تكاد تحصى. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج١، ص٢٢.

١٥٥٤ ـ ١٦١٣م)، وهو الذي وضع فهرسة موجزة لبعض المخطوطات العربية، ووضع كراساً لتعليم كتابة الحروف العربية، كما ترجم بعضاً من أجزاء الإنجيل إلى العربية للتمرّن على القراءة. وقد أعد بنفسه الحروف العربية في قوالب خشبية للمطبعة التي كان (جوتنبرغ) قد اكتشفها حديثاً. وفي عام ١٥٨٥م عُيّن (كريستمان) أستاذاً في جامعة هايدلبرج، واقترح إنشاء كرسي للدراسات العربية فيها، بغية نقل الفلسفة والطب من مصادرها العربية. ولكنه للأسف الشديد مات دون تحقيق غايته.

وقد كان لألمانيا قصب السبق في طباعة أول مصحف كتب له البقاء والنجاح على الإطلاق، فقد طبع القرآن للمرّة الأولى في مدينة البندقية الإيطالية عام ١٥٤٣م، إلا أن السلطات الكنسية أمرت باتلافه مباشرة، وبعد ذلك بأكثر من قرن من الزمن بادر (هنكلمان) لطبع القرآن في مدينة (هامبورغ) الألمانية، وذلك في سنة ١٦٩٦م[١].

وكان المستشرقون الألمان في مطلع القرن الثامن عشر يقصدون هولندا لتعلم اللغات الشرقية، ومن ضمنها العربية. وبعد عودتهم أخرجوا الدراسات في جامعاتهم من نطاق التوراة إلى ميدان الثقافة العامة.

---

١ ـ أنظر: معرفت، محمد هادي، تاريخ قرآن، ص١٣٨، وزارت فرهنك وإرشاد إسلامي، ط٩، طهران، ١٣٨٦ش.

وكان (يوهان جاكوب ريسكه: ١٧١٦ ـ ١٧٧٤م) أبرز مستشرق ألماني أسس الدراسات العربية في ألمانيا، وهو أول مستشرق ألماني نذر حياته للدراسة العربية والحضارة الإسلامية، ورأى إمكانية دراسة العربية لذاتها، وذلك في زمنٍ لم يكن فيه من يهتم بالدراسات العربية، وقد اهتم بالمخطوطات العربية، وكان له اهتمام واسع بالشعر العربي، حتى اعتبر نفسه (شهيد الأدب العربي). وقد ذهب ريسكه ـ كما جاء في ترجمته لمقدّمة كتاب (تقويم التواريخ) لحاجي خليفة ـ إلى أنّ ظهور النبي محمد وانتصار دينه هما من أحداث التاريخ التي لا يستطيع العقل الإنساني إدراك مداها، ورأى في ذلك برهاناً على تدبير قوّةٍ إلهية مقتدرة، كما ذهب إلى أنّ عليّ بن أبي طالب هو الأحق بالخلافة بعد النبي مباشرة، ورأى أنه أحسن أميرٍ عرفه العالم الإسلامي. ورأى في صراع علي ومعاوية نموذجاً لانتصار الشرّ على الحق[١].

وربما كان (رايسكه) أول مستشرق واجه علماء اللاهوت، ودعا إلى دراسة العربية بصورة مستقلة، ووقف في وجه ما أشاعه المستشرق الهولندي (أدرينوس غولندوس، ت: ١٧١٨م) من كون اللغة العربية لهجة عبرية، وتابعه على ذلك المستشرق الهولندي (ألبير شولتز: ١٦٨٦ ـ ١٧٥٠م).

---

١ ـ بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص٣٠٠، دار العلم للملايين، ط٣، بيروت، ١٩٩٣.

وفي مطلع القرن التاسع عشر انتقل الألمان إلى فرنسا، حيث كان (سلفستر دي ساسي: ١٧٥٨ـ ١٨٣٨م)، أستاذ اللغتين العربية والفارسية في مدرسة اللغات الشرقية في باريس، فدرس الألمان على يده وتأثروا به، ومنهم (فلايشر: ١٨٠١ ـ ١٨٨٨م) و(هانريش إيفالد)[١]، اللذين اعتبرا من المؤسسين للدراسات العربية في ألمانيا.

ومنذ أواسط القرن التاسع عشر ـ وهي الفترة التي نبغ فيها ثيودور نولدكه ـ حاول الاستشراق أن يكتسب صفة العلمية، وبدأ يتحلى بروح الموضوعية ولو بصورة نسبية، وذلك عندما تحوّل الاستشراق إلى علم قائم على النقد التاريخي. وهذا ما لاحظه المستشرق الألماني (رودي باريت)[٢]، إذ قال:

---

١ ـ هانريش إيفالد (Ewald, H.: ١٨٠٣ ـ ١٨٧٥م): بدأ دراسته الاستشراقية في ألمانيا، ثمّ قصد (دي ساسي) مع فلايشر؛ فأخذا عنه، وسُمّيَ إيفالد أستاذاً في جوتنجين؛ فوجّهها وجهة تاريخ العرب وأديانهم وآدابهم. وكان من جملة أساتذة ثيودور نولدكه، الذي أخذ عنه اللغة الفارسية والتركية والسنسكريتية. ترجمت آثاره إلى الإنجليزية وغيرها من اللغات. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٠٣.

٢ ـ رودي باريت (Rudi Paret: ١٩٠١ ـ ١٩٨٣م): مستشرق ألماني، ترجم القرآن إلى الألمانية، ولد في أسرة يكثر فيها القساوسة المسيحيون. درس على يد صهر ثيودور نولدكه المستشرق (إينو ليتمن)، وشغل كرسي علوم الإسلام والساميات في جامعة بون خلفاً لـ (باول كاله) سنة ١٩٤١م. عمل في قوات (رومل) في ليبيا، وأسر في سنة ١٩٤١م. من آثاره: رسالة صغيرة بعنوان (محمد والقرآن)، وقد تميّز بقوّة التعاطف مع الإسلام. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرق، ص٦٢.

«إن الاستشراق لم يتوفر على هذه العلمية إلا عندما تأكد استعداد الناس للانصراف عن الآراء المسبقة، وعن كلّ أنواع الانعكاس الذاتي، والاعتراف للعالم الشرقي بما له من طابع خاص، ولكنهم حين جدّوا في نقل صورة موضوعية له، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً»[١].

وقد تميّز الاستشراق الألماني بجمع المخطوطات، ونشرها، وفهرستها، مع اهتمام خاص بالجانب الصوفي والأدبي. وعنى أيضاً بوضع معاجم باللغة العربية، ودراسته لجوانب الفكر العربي الإسلامي في القديم خاصة. وكان الانشغال بالنصّ القرآني ممّا تميّزت به الجهود الألمانية من سائر جهود المستشرقين الآخرين.

وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي أن أقدم ترجمة ألمانية عن النص العربي مباشرة، هي ترجمة (ديفد فريدريتش ميجرلان) وهو أستاذ في جامعة (فرانكفورت)، وقد ظهرت هذه الترجمة سنة ١٧٧٢م[٢].

---

١ ـ الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، (المستشرقون الألمان منذ نولدكه)، رودي باريت، نقلاً عن مقال للدكتور عباس أرحيلة، من موقعه على الأنترنيت، موقع تفسير: شبكة التفسير والدراسات.

http://www. Tafsir.org/vb/showthread.php?t=11367

٢ ـ بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص٤٤٤، دار العلم للملايين، ط٣، بيروت، ١٩٩٣.

هذا ويصل مجموع عدد ترجمات معاني القرآن إلى الألمانية إلى ما يزيد على الأربعين ترجمة. ويلاحظ أن الاستشراق الألماني تميّز بحضور الكثير من أعلامه في جامعة القاهرة ومنهم على وجه الخصوص (برجشتريسر)[١]، و(إينو ليتمان)[٢]، و(جوزيف شاخت)[٣].

---

١ ـ جوتهلف برجشترسر (Gotthelf Bergstrasser: ١٨٨٦ ـ ١٩٣٣م): مستشرق ألماني، مسيحي بروتستانتي (لوثري)، برز في نحو العربية، واللغات السامية، وعني بدراسة اللهجات العربية، وبقراءات القرآن. درس على يد المستشرق الكبير (أوجست فيشر)، ونال شهادة الدكتوراه في (رسالة حنين بن إسحاق ومدرسته) سنة ١٩١٢م. وفي سنة ١٩١٨م كلفته وزارة الحربية الألمانية بالقيام برحلة استكشافية لسوريا وفلسطين. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٨٥.

٢ ـ إينو ليتمان (Enno Littmann: ١٨٧٥ـ١٩٥٨م): مستشرق ألماني، عني بالنقوش العربية القديمة، واهتم بالأدب الشعبي، درس على يد ثيودور نولدكه فصلاً كاملاً (١٨٩٨ ـ ١٨٩٩م) في جامعة إشتراسبورج، وتزوج من حفيدته، وفي سنة ١٩٠٤م دعته جامعة برنستون ليشترك في بعثة أثرية للتنقيب عن الآثار السامية في سوريا وفلسطين، وبعد تقاعد ثيودور نولدكه خلفه في جامعة اشتراسبورج سنة ١٩٠٦م، وظلّ في هذا المنصب حتى سنة ١٩١٤م. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٥١٢.

٣ ـ جوزيف شاخت (Joseph Schacht: ١٩٠٢ ـ ١٩٦٩م): مستشرق ألماني متخصص في الفقه الإسلامي، انتدب عام ١٩٣٤م للتدريس في الجامعة المصرية واستمر أستاذاً فيها حتى عام ١٩٣٩م، ولما كان ناقماً على النازية، فقد انتقل من مصر مباشرة إلى لندن، ليعمل مع الإذاعة البريطانية لحساب بريطانيا والحلفاء ضد النازية، وقد تزوج أثناء إقامته فيها، فمنح الجنسية البريطانية، ثمّ غادر إلى الولايات المتحدة، ولم يعد إلى وطنه ألمانيا وظلّ خارجها إلى آخر يومٍ من حياته. أنظر: عبدالرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٣٦٦.

وفي أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن العشرين، بدأ اليهود بالهروب من النازية، والوفود على القاهرة. فكان منهم: (بول كراوس)[1]، و(ماكس مايرهوف)[2]، وكانت لهما عناية خاصة بالفلسفة والعلوم الإسلامية.

---

١ ـ بول كراوس (Paul Eliezer Kraus: ١٩٠٤ ـ ١٩٤٤م): مستشرق ألماني من أصول يهودية، رحل إلى فلسطين سنة ١٩٢٢م، ثمّ عاد إلى جامعة برلين سنة ١٩٢٨م؛ ليحصل على شهادة الدكتوراه منها. ولما جاءت النازية إلى الحكم سنة ١٩٣٣م، قرّر مغادرة ألمانيا والسفر إلى باريس، وأعانه على ذلك (لوي ماسينيون). وفي سنة ١٩٣٦م، عيّنته كلية الآداب في الجامعة المصرية مدرّساً للغات السامية. عني بدراسة رسائل جابر بن حيّان في الكيمياء. وبين عامي (١٩٤٣ ـ ١٩٤٤م)، شغل بفكرة خطرت بباله قادته إلى نظرية مفادها إنّ جميع نصوص أسفار الكتاب المقدّس إنما هي نظمٌ شعريّ، وليست نثراً، ولكنه واجه بسببها هجوماً عنيفاً في القدس. انتحر لأسباب سياسية وعائلية وفكرية. وقد شهد له أعلام المستشرقين من أمثال: ماسينيون، وديمومبين، وبيكر بالعمق والشمول والتفرد، وكانوا يتوقعون له مستقبلاً باهراً. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٤٦٤ ـ ٤٦٧؛ ونجيب العقيقي، المستشرقون ج٢، ص٧٦٣ ـ ٧٦٥.

٢ ـ ماكس مايرهوف (Max mayerhof: ١٨٧٤ ـ ١٩٤٥م): متخصص في طبّ العيون، ولد في أسرة يهودية عريقة أنجبت كثيراً من العلماء الأعلام، مثل إبن عمّه: أوتو مايرهوف، الحائز على جائزة نوبل في الطب، وابن عمّه الآخر عالم المصريات: فوهايم اسبيجلبرج. قرّر الإقامة في القاهرة سنة ١٩٠٣م، وأخذ هناك يزاول مهنة الطب، ويعالج الفقراء بالمجان، ومن النوادر التي رواها عنه (إينو ليتمن): إن أحد زبائنه المصريين إمتنع عن دفع أتعابه قائلاً: (ضاعف الله لك الأجر)؛ فأجابه مايرهوف: (ولكني لا أعرف أين يقع بنك الله!). ولما جاءت النازية إلى الحكم تخلى عن جنسيته الألمانية، وتجنس بالجنسية المصرية. توفي عن عمر يناهز السبعين إثر مرض عضال. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٥٤٠ ـ ٥٤١؛ ونجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٦٦.

وعيّن إلى جانب هؤلاء في مجمعي اللغة العربية بالقاهرة ودمشق كلّ من: (هارتمان)[١]، و(أوجست فيشر)[٢]، و(كارل بروكلمان)[٣]، و(هلموت ريتر)[٤].

---

١ ـ مارتين هارتمان (Martin Hartmann: ١٨٥١ ـ ١٩١٨م): مستشرق ألماني عني خصوصاً بالإسلام في العصر الحاضر. درس على يد المستشرق اللغوي الكبير فلايشر، اشتغل مترجماً رسمياً في وزارة الخارجية الألمانية. وفي سنة ١٨٧٨م أنشئ معهد اللغات الشرقية في برلين لغرض إعداد موظفي وزارة الخارجية؛ فدعي ليكون أستاذ اللغة العربية فيه، فاستمرّ يعمل هناك حتى وفاته سنة ١٩١٨م. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٦٠٧. ونجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٢٥ ـ ٧٢٦.

٢ ـ أوجست فيشر (August Fischer: ١٨٦٥ ـ ١٩٤٩م): مستشرق ألماني، تخرّج باللغات الشرقية على يد (توربكه)، وخلف (سوسين) في ليبزيج سنة (١٨٩٩ ـ ١٩٣٠م)، وقد تخرج على يديه كبار المستشرقين من أمثال: شاده، وجراف، وبجشترسر، وقد نحا نحو فلايشر في العناية بفقه اللغة كأسٍ لدراسة النصوص وتحقيقها. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٧١.

٣ ـ كارل بروكلمان (Karl Brokelmann: ١٨٦٨ ـ ١٩٥٦م): مستشرق ألماني، ولد في روستوك. تخرّج باللغات السامية على يد أعلام المستشرقين، ومنهم نولدكه. طارت له شهرة في فقه العربية والتاريخ الإسلامي، وتاريخ الأدب العربي، حتى عدّ إماماً من أئمتها. اشتهر بالموضوعية والعمق والشمول، مما جعله مرجعاً للمصنفين في التاريخ الإسلامي. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٧٧ ـ ٧٧٨.

٤ـ هيلموت ريتر (Hellmut Ritter: ١٨٩٢ ـ ١٩٧١م): مستشرق ألماني. تتلمذ من بين المستشرقين على يد ثيودور نولدكه، وكارلمان. ولما قامت الحرب العالمية الأولى عمل مترجماً في الجيش الألماني المحارب في العراق وتركيا. وفي سنة ١٩١٩م، عيّن خلفاً لتشودي في معهد هامبورغ للمستعمرات حتى سنة ١٩٢٦م. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٢٧٧.

وتولّى المستشرق الألماني (فوهايم شبيتا)[1] إدارة دار الكتب المصرية، وذلك في سنة ١٨٧٥م، وبادر إلى فهرسة مخطوطاتها في نحو أربعين صفحة. هذا وقد تميّز الاستشراق الألماني بما يأتي:

١ ـ حياده وبُعده النسبي عن الغايات السياسية أو الاستعمارية أو الدينية فهو بشكلٍ عام لاينطلق من خلفيات آيدولوجية واستعمارية. فألمانيا لم تكن لها مستعمرات في البلدان العربية أو الإسلامية، كما أنها لم تعن بالجانب التبشيري ونشر المسيحية، أو بالأحرى لم يترك لهم غيرهم حرية العمل في هذا الحقل. ومع هذا يصعب وصف الجهود الألمانية بالحياد المطلق والموضوعيّة النزيهة؛ فها هو المستشرق الألماني (رودي باريت) الذي توفي عام ١٩٨٣م، يعترف قائلاً:

> «من التعسف أن يظن المرء أن في إمكانه معالجة جهود الألمان على أنها مطلقة، وأن يفصلها عن ارتباطها بالأوشاج والأربطة العالمية»[2].

---

١ ـ فوهايم شبيتا (Spitta, W.: ١٨٥٣ ـ ١٨٨٣م): مستشرق ألماني. تخرّج باللغات الشرقية عي يد فلايشر من ليبزج، ونال الدكتوراه برسالة عن تاريخ أبي الحسن الأشعري ومذهبه (١٨٧٥م)، ثمّ عيّن مديراً بدار الكتب المصريّة. ولما قامت ثورة عرابي أُبعد عن مصر؛ فخلفه فيما بعد كارل فولليرس. توفي ولما يتجاوز عقده الثالث متأثراً بداء السل. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٠٥.

٢ ـ الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية (المستشرقون الألمان منذ نولدكه)، رودي باريت عن مقال للدكتور عباس أرحيلة من موقعه المتقدّم على شبكة الأنترنيت.

وقد قام المستشرق الألماني (كارل هاينريش)[1] مؤسس مجلة (الإسلام)، بدراسات تخدم الغايات الاستعمارية الألمانية في إفريقيا.

٢ ـ اهتمامه بالقديم والتركيز على دراسة التراث الإسلامي العربي وتاريخ الحضارة الإسلامية، وإذا كان الإسلام قد استقطب اهتمام المستشرقين، فإن ما ميّز الاستشراق الألماني أيضاً، هو أنه أصبح مصدراً معتمداً في الدراسات القرآنية لدى المستشرقين الأوربيين عامة.

ـ ٣ ـ

مناهج المستشرقين في دراسة الإسلام والقرآن

ذكرنا أن بداية الاستشراق بمعناه الاصطلاحي الخاص كانت متزامنةً مع الحروب الصليبية، أو من آثارها. وهو ما أكده المستشرق الألماني (رودي باريت)، حيث قال: (إن الهدف الرئيس من جهود

---

١ ـ كارل هاينريش بيكر (Karl Heinrich Bekker: ١٨٧٦ ـ ١٩٣٣م): مستشرق وسياسي ألماني. ولد في أسرة برجوازية، وقد دفعته نزعة البحث في تاريخ الأديان إلى ناحية الاستشراق. زار مصر سنة ١٩٠١م، وفيها توطدت علاقته بالإمام محمد عبده. دعي إلى التدريس في (معهد هامبورغ الاستعماري)، ثمّ تقلب في المناصب السياسية، فعمل وكيل وزارة سنة ١٩١٩، ثم وزيراً للمعارف سنة ١٩٢١م، ووزيراً لها للمرة الثانية سنة ١٩٢٥م. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١١٣ ـ ١١٥.

المستشرقين في القرن الثاني عشر للميلاد، وفي القرون التالية هو التنصير)، وعرّف التنصير بأنه: (إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى النصرانية).

وبحلول العصور الحديثة امتزجت الدراسات الاستشراقية ذات الطابع الديني المرتبط بالتنصير والتبشير، بالعوامل الاقتصادية والاستعمارية، واصطبغ ذلك كله بالمظاهر السياسية.

ثم امتدت ظاهرة الاستشراق وأخذت أبعاداً علمية في المعاهد والجامعات الغربية، وهي وإن تأثرت في هذه المرحلة بالدراسات اللاهوتية، إلا أن ضغوط الكنيسة بدأت فيما بعد بالتقلص والانحسار، لتحل محلها الآيديولوجيات الحديثة والعلمانية.

وعليه يمكن القول: إن المستشرقين في دراستهم للإسلام والقرآن الكريم بمختلف مشاربهم ينقسمون إلى عدة طوائف وأصناف، فمنهم الأكاديمي الذي درس الاستشراق دراسة منهجية في الجامعات والمراكز العلمية، وغالباً ما تكون أهداف هؤلاء محددة من قبل الحكومات لغايات سياسية، وجاسوسية، واستعمارية.

وهناك من المثقفين الذين أرادوا تحقيق أهدافٍ وغايات معينة ترمي إلى الانتقاص من الإسلام والقرآن الكريم، ولذلك تغلب على مؤلفاتهم: (الانتقائية والعشوائية)، والبعد عن الحياد والمنهج العلمي إلا ما رحم ربّي.

وهناك من المستشرقين من لم يضع لنفسه هدفاً معيناً أو نتيجة مسبقة، وهم قلة قليلة طبعاً، ولكن مع ذلك لم تخلُ قلوبهم من بقايا غلّ على الإسلام وأهله، فتجد في مؤلفاتهم الغث والسمين.

وقد ظهر منذ عصر النهضة إلى يومنا هذا مستشرقون لهم وجهة نظرهم العلمانية البحتة تجاه الدين بمفهومه العام الذي يشمل حتى المسيحية واليهودية، ومن أولئك يمكن تسمية المستشرق المجري (إجناس جولدزيهر)[1]، وصاحبنا المستشرق الألماني (ثيودور نولدكه) وغيرهما، وهم لا يرون للدين تلك القداسة التي نراها نحن ونعتبرها من البديهيات الأولية، ولذلك حينما يجحفون في تعاطيهم مع الإسلام، نجد من المسلمين من ينقض عليهم بعكس إشكالاتهم على الأديان التي ينتمون إليها، والقول بورودها على التوراة والإنجيل أيضاً[2]،

---

١ ـ إجناس جولدزيهر (Ignaz Goldziher: ١٩٢١ ـ ١٨٥٠م): مستشرق مجري، ولد في مدينة (إشتولفسنبرج) في أسرة يهودية، درس على يد المستشرق الألماني (فليشر). حصل على الدكتوراه عام ١٨٧٠م، ثمّ عاد إلى بودابست ليعيّن مدرساً مساعداً في جامعتها، وسافر بعدها إلى الشرق؛ فأقام في كلّ من القاهرة وسوريا وفلسطين، وتلقى أثناء إقامته بمصر بعض الدروس في الأزهر الشريف. انتخب عضواً مراسلاً للأكاديمية المجرية سنة ١٨٧١م، ثمّ عضواً عاملاً سنة ١٨٩٢م، ورئيساً لأحد أقسامها سنة ١٩٠٧م، وصار أستاذاً للغات السامية سنة ١٨٩٤م. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١٩٧ فما بعد.

٢ ـ أنظر: حب الله، حيدر، الاستشراق وتاريخية التفسير القرآني، مجلة المنطلق الجديد، العدد: ٦، لعام: ٢٠٠٣م.

غافلاً عن أن في هذا النهج دعماً للمسار الفكري الذي ينتهجه هؤلاء المستشرقون، بدلاً من أن يكون رداً عليهم.

بل يمكننا القول: إنّ النظرة السلبية لهؤلاء المستشرقين تجاه الإسلام بوصفه ديناً، ما هي إلا انعكاس لردتهم على الكنيسة بسبب ممارساتها السابقة ضد العلم والعلماء، واتهامها إياهم بالكفر والهرطقة والزندقة، وبذلك يمكن القول: (إن الإسلام في هذه الناحية، يدفع ضريبة أخطاء رجال المؤسسة الدينية المسيحية)!

وقد كان القرآن محطّ أنظار المستشرقين بجميع طوائفهم؛ لأنه يشكل حجر الزاوية في حياة المسلمين، ولكونه الأصل الأول في معرفة حقيقة وجوهر الإسلام، والذي يحدد علاقة الإسلام بالديانات السابقة لكونه يقف وقفة المهيمن عليها.

وكما وقف مشركو قريش من القرآن، واعتبروه شعراً، أو سحراً، أو كهانة، أو أنه من أساطير الأولين. وكما رموا صاحب الرسالة بالافتراء والكذب تارة وبالجنون تارة أخرى، وبحثوا لمعلوماته عن مصدرٍ في الأرض، كانت جهود الاستشراق لا تخرج عن هذه التوجهات. وقدا ظلت قريش والمستشرقون يعتبرون القرآن من تأليف النبي محمّدﷺ، وقد سعت جهود الاستشراق في معالجتها لموضوع القرآن الكريم إلى طمس مقولة الوحي فيه؛ لتثبت بشريته أولاً، وليتسنى لها أن تطفئ نوره ثانياً، وقد قال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا**

نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[1].

ولذلك فإننا نأخذ على هؤلاء المستشرقين بجميع طوائفهم ومناهجهم وانتماءاتهم، مع استثناء القلة القليلة منهم، الملاحظات الآتية:

أولاً: إنّ كثيراً منهم لم يأخذ الإسلام من مصادره الأصلية أو من علماء المسلمين، وإنما اعتمد في دراساته على ما كتبه من سبقه من المستشرقين، مما جعل أغلب دراساته متسمة بالتقليد، والنقص، والتشويه، والبعد عن المنهج العلمي.

ثانياً: وضعهم للأهداف والنتائج أولاً، ثمّ تلمّس الأدلة الواهية، أو المختلقة للوصول إلى ذلك، فمثلاً يضع أحدهم في المقدمة: إن القرآن الكريم ليس من الله تعالى وحياً على نبيّنا محمد ﷺ، ويبني على ذلك الأساطير والافتراءات.

ثالثاً: تدل مناهج بعضهم على أنه لا يريد الاعتراف إلا بديانتين هما: (اليهودية والمسيحية)، ويعدّون كلّ ما ذكره الإسلام والقرآن إنما هو مأخوذ من تينك الديانتين، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى تصوير النبي محمدﷺ كاردينالاً أو قسّاً نصرانيّاً تمرّد على البابوية، فلما أخفق في ذلك المسعى وأحبطت آماله فرّ إلى الجزيرة

---

١ ـ التوبة: ٣٢.

العربية[1]، وأراد هناك أن يظهر بوصفه زعيماً لدين جديد!

رابعاً: تتسم مناهجهم بالتشكيك دون التحقيق العلمي والاستدلال العقلي، فيكفي عندهم أن يقولوا عن الوحي الذي نزل على رسول الله ﷺ إنه مرض عقلي يصيبه؛ فيكون معه هذيان، وهو ما ينطق به الرسول من كلمات يزعم أنها من ربّه.

ولا يقيمون أيّ دليلٍ على ذلك، مع أنّ الأقوال التي تصدر عمّن يصابون بالحمّى أو الصرع تكون مضطربة وغير منضبطة، والقرآن المنزل من الله تبارك وتعالى معلومٌ في بلاغته، بيّنٌ في إعجازه.

خامساً: عدم الإحاطة العلمية التامة بالموضوع، فحين يتحدّثون عن موضوعٍ معيّن لا تجدهم يستقصون النصوص والآراء، وإنما يكتبون بحدود نصوص معيّنة، يرون فيها تحقيق أهدافهم، وترويج أباطيلهم.

من ذلك أنهم نقلوا أفكاراً مشوّهة عن العرب والمسلمين، وصوّروا نبيهم ودينهم أبشع تصوير، فصوّروا الرسول ﷺ قاتلاً، وزير نساء، وكافراً، وساحراً، ودجّالاً، وخائناً، وفاجراً، وشيطاناً، وإرهابياً يشيع الموت، وينشر الدمار، وداعية إباحية، اتخذ من شيوعية المرأة وسيلة لهدم الكنيسة المسيحية وفضائل أخلاقها.

---

١ ـ السعيد، حسن، المتظاهرون بالإسلام، ص٣٦، دار الهادي، ط ١، بيروت، ٢٠٠٧م.

آخذين بذلك من الأمور والصور شكلياتها دون أن يدرسوا الأسباب التي أدت إليها، فحين يتكلمون على نساء النبي صلى الله عليه وآله يصفون النبي داعية للإباحية، متناسين أن تعدد الزوجات كان موجوداً حتى في القرن المسيحي الأول، ولم تمنعه الكنيسة إلا في القرن الثاني، وكان (أوغسطين) مؤرّخ الكنيسة يهاجم (تروتوليان) أحد أعمدة الكنيسة في القرن الأول؛ لاتخاذه أحد عشر امرأة له[١].

هذا وإن هؤلاء من ناحية أخرى لم يسألوا أنفسهم: لو كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله داعي إباحية على زعمهم لمجرد سماحه بتعدد الزوجات، فلماذا اكتفى بزوجة واحدة، ولم يجمع بين عدد من الزوجات حتى ناهز الخمسين من عمره الشريف، ولم يتخذ لنفسه زوجة أخرى إلا بعد وفاة السيدة خديجة الكبرى عليها السلام. فلماذا لم يلجأ إلى هذه الإباحية المزعومة قبل البعثة وفي صدر الشباب! حين كان المقتضي لذلك وعدم المانع متوفرين، في فورة الشباب وانعدام المسؤولية في تحمل أعباء رسالة السماء وإدارة الدولة؟!

ولم يقف المستشرقون على حدود الهجوم، والمساس بشخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وإنما تعدّوه إلى القرآن الكريم؛ فراحوا يصفونه بأنه مستقىً من أصول مسيحية ويهودية، تلقاها النبي صلى الله عليه وآله من أحبار

---

١ ـ أنظر: الساموك، سعدون محمد، مناهج المستشرقين، ص٢١، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد.

اليهود والرهبان، وإذا جاؤوا إلى تفسير آياته، عمدوا إلى الكلمات التي تحتمل أكثر من معنى في لغاتهم؛ ليطبقوها على المعنى الذي يتفق وغاياتهم، دون الرجوع إلى التفسير الإسلامي لها.

من ذلك ما ذهب إليه (ثيودور نولدكه)، إذ قال: (إنّ الإسلام في جوهره دينٌ يقتفي آثار المسيحيّة. أو بعبارة أخرى: إنّ الإسلام هو الصيغة التي دخلت بها المسيحيّة إلى بلاد العرب كلها)[١]!

وكانت معظم هذه الصور قد دونها القديس (يوحنا الدمشقي)، الذي عاش في العصر الأموي في دمشق. وبعضها في رسالة منتحلة نشرها مؤلف يدّعي أنه كان مسلماً وارتد عن الإسلام وآمن بالمسيحية، اسمه (عبدالمسيح بن إسحاق)، وكان المستشرقون من المبشرين المسيحيين قد أعادوا نشرها في القرن التاسع عشر بلندن[٢].

سادساً: الحرص على إتقان عملية التسلل الفكري بطريقة خبيثة لا يشعر بها إلا القليل من الباحثين، وذلك بالمدح والثناء والإطراء على النبيﷺ، ثمّ الانتقال إلى إبراز هوّة الخلاف المزعوم في الفكر الإسلامي والعقائد، والاستشهاد بأحداث تاريخية مشبوهة، لايعرف حقيقتها إلا من درس أسبابها وملابساتها.

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٨، منشورات الجمل، بغداد، ٢٠٠٨.

٢ ـ انظر: الساموك، سعدون محمد، مناهج المستشرقين، ص١٧ ـ ١٨، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، نقلاً عن كتاب (المستشرقون والإسلام) لعرفان محمد.

وقد صرّح بهذا النهج (لود فيكو ماراتشي)[1]، إذ قال في كتابه (دراسة عن الإسلام):

«لو أردت وصف حياة محمد حسب رواة كتبنا؛ لتعرضت لسخرية المسلمين، فإن هناك بوناً شاسعاً بين ما نتناقله نحن عن محمد، وبين ما يراه المؤرخون المسلمون. حتى أن القارئ لا يكاد يصدق أن الكلام في الحالتين يدور حول الشخص ذاته، ولذلك سوف أتبع المؤرخين، ليس لأني أعتقد بصدق كلّ ما يقولونه، بل لأننا إذا أردنا مكافحة أعداء أمتنا، لابدّ لنا أن نحاربهم بأسلحتهم. أضف إلى ذلك إن كثيراً من كتابنا يذكرون أموراً عن محمد لا يمكن أن تثير لدى المسلمين إلا السخرية، ولا تزيدهم إلا تمسكاً بعقائدهم الباطلة»[2].

ومع ذلك يجدر بنا في الختام التنويه إلى فضل الاستشراق

---

١ ـ الأب لود فيكو ماراتشي (Marracci, P. L.: ١٦١٢ ـ ١٧٠٠م): ولد في ضاحية لوكا، وانضمّ إلى رهبنة المردي ديو، وأصبح من علمائها، وعنى بالإسلام وكتب عنه كثيراً. من آثاره: (دراسة عن الإسلام) سنة ١٦٩١م، ثمّ جعلها مقدّمة لقرآن نشره متناً وترجمة إيطالية. عاون على ترجمة الكتاب المقدّس إلى العربية سنة ١٦٧١م في رومة. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٣٦٢.

٢ ـ العاني، عبد القهار داود، مناهج المستشرقين، ص٦١ ـ ٦٣، نقلاً عن: (المستشرقون بين الإنصاف والعصبية)، لمحمد علوي المالكي. و(مناهج المستشرقين)، للدكتور محمد السويسي ، و (الفكـر الإسلامي الحديث) عن المستشرقين الناطقين بالإنجليزية ، مجلة (The Muslim World)، العدد: تموز ١٩٦٣م. تعريب الدكتور محمد فتحي عثمان.

والمستشرقين على التراث الإسلامي، فلولاهم ولولا الإشكالات التي كانوا يصدرون عنها، لما تحرّك المسلمون لاستنطاق النصوص الدينية، ولما خرجوا منها بأجوبة كان لها الأثر البالغ في تعزيز مسيرة الإسلام، وهذا ما ينبغي لنا أن نفتح له صدورنا، وأن نتعامل معه تماماً كما كان يتعامل أئمتنا في مواجهة الملاحدة والزنادقة، فإن ما تقوم به الغالبية من المستشرقين هو بالضبط ما كان يقوم به الزنادقة في صدر الإسلام، الذين كانوا يبثون أفكارهم في مركز الإسلام.

فنجد أبا شاكر الديصاني مستنداً إلى الكعبة ينشر أفكاره بكل حرية رغم وجود أئمة المسلمين الذين لم يضيقوا ذرعاً به ولا بأمثاله، بل كانوا يجيبون عن إشكالاته بكلّ رحابة صدر، لعلمهم بأن هذا هو منهج الإسلام الصحيح الذي يدعو إلى مقارعة الكلمة بالكلمة الطيبة، وقد قال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1].

ـ ٤ ـ
المستشرقون والأعمال القرآنية

لقد اهتم الاستشراق منذ بدايته بالقرآن الكريم، وهذا شيء

---

١ ـ النحل: ١٢٥.

طبيعي جدّاً، إذ لا يمكن الفصل بين المسلمين وكتابهم، وسرعان ما تطوّر هذا الاهتمام بمرور الزمن مع تطوّر الكتابة وصناعة الطباعة، فظهرت منذ ذلك الحين طبعات مختلفة للقرآن، وتمّت ترجمته إلى مختلف اللغات الأوربية، ونجمل الكلام بهذا الشأن على النحو الآتي:

طباعة القرآن وترجمته في أوربا:

إنّ أوّل طبعة للقرآن في نصّه العربي الكامل هي تلك التي تمّت في البندقية بتاريخ يُرجّح أن يكون سنة ١٥٣٠م تقريباً. إلا أن جميع نسخ هذه الطبعة قد تمّ إتلافها بأمرٍ من الكنيسة. ولم يعثر لها على أثرٍ حتى الآن[١]. وأقدم من ذكرها هو (توماس أربينوس)[٢]، في كتابه (مبادئ اللغة العربية). المطبوع في لندن، سنة ١٦٢٠م.

---

١ ـ ذكرت جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٢/٧/١٢م، أن باحثة ايطالية عثرت على نسخة من هذه الطبعة في أحد البيوت الأثرية بمدينة فينيسيا. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٤٣٨.

٢ ـ توماس أربينوس (Erpenius, Th.: ١٥٤٨ ـ ١٦٢٤م): مستشرق هولندي، ولد في جوركوم، وتخرّج باللاهوت من جامعة ليدن. ارتحل إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا طلباً للكتب والمخطوطات العربية. ولدى عودته إلى ليدن عيّن أول أستاذ للعربية في جامعتها سنة ١٦١٣م، ثمّ أنشأ مطبعة في داره، وهي المعروفة حالياً بـ(دار بريل)؛ فصار في كرسيّه ومطبعته صاحب مدرسة جديدة أشبه بمدرسة (دي ساسي) مع فارق الزمن، وعدّ بحق مؤسس النهضة الاستشراقية في هولندا. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦٥٣ فما بعد.

ثمّ قام (كرستيانوس رافيوس) سنة ١٦٤٦م، بطبع السور الثلاث عشرة الأولى من القرآن بحروف لاتينية، وفي مقابلها ترجمة لاتينية. واستعمل (رافيوس) طريقة خاصة في رسم الحروف العربية بالحروف اللاتينية.

وأما أول طبعة للنص الكامل للقرآن بحروف عربية، كتب لها الانتشار، ولا يزال يوجد منها نسخ في بعض مكتبات أوربا، فهي تلك التي قام بها (ابراهام هنكلمان)، في مدينة هامبورج بألمانيا، سنة ١٦٩٤م.

ثمّ صدرت طبعة كاملة أخرى أجود من السابقة، وقد حظيت بالشهرة والذيوع، وهي الطبعة التي قام بها (لود فيكو ماراتشي)، الراهب المنتسب إلى (جمعية رهبان أم الله)، وتم طبعها في مدينة (باتافيا) سنة ١٦٩٨م.

وقبل ذلك كان قد نُشر سنة ١٦٩١م، كتاب بعنوان (الرائد إلى الرد على القرآن)، وبعد ذلك أعيد طبع هذا (الرائد) في مطبعة (باتافيا) مع نص القرآن في كتاب واحد؛ فأصبح الكتاب من قسمين، الأول: يشتمل على النص العربي للقرآن مع ترجمة لاتينية، وحواشٍ جزئية، يرد بها على مواضع من القرآن. والثاني: هو الرائد إلى الرد على القرآن).

ثمّ صدرت طبعة كاملة للقرآن في نصه العربي، تمت في

بطرسبرج سنة ١٧٨٧م، وقد نشرت برعاية إمبراطورة روسيا (كاثرين الثانية)[١]، وذلك خدمة لرعاياها المسلمين، وقد أشرف على الطبع (ملا عثمان إسماعيل)، وأضيف إلى فهارسه جدول تصحيحات لـ (٣٢٢) غلطة مطبعية.

لكن ما يفوق تلك الطبعات جميعها، والتي ستصبح عمدة الطبعات الأوربية والمرجع للباحثين جميعاً في أوربا، واعتمدها (ثيودور نولدكه) في كتابه (تاريخ القرآن) هي الطبعة التي قام بها (جوستاف فلوجل)[٢]، سنة ١٨٣٤م في (ليبتسك) عند الناشر (كارل تاوفنتس) الشهير.

هذا وقد قام (جوستاف فلوجل) بانجاز أول فهرس للقرآن في أوربا تحت عنوان عربي هو: (نجوم الفرقان)، وقد سبقه إلى ذلك في

---

١ ـ كاثرين الثانية (Catherine II) كاثرين العظمى (Catherine the Great: ١٧٢٩ ـ ١٧٩٦م): إمبراطورة روسيا (١٧٦٢ ـ ١٧٩٦م). أصلحت الإدارة. حاولت أن تضع دستوراً ديمقراطياً سنة ١٧٦٧م، وأن تحرّر الأقنان. راسلت (فولتير)، و(ديدرو). انتزعت شبه جزيرة القرم من العثمانيين سنة ١٧٨٣م، وشاركت في تقسيم بولندا سنة ١٧٩٥م. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٢، ص١٩٠.

٢ ـ جوستاف فلوجل (Flugel: ١٨٠٢ ـ ١٨٧٠م): أحد المستشرقين الألمان ذوي الشهرة الفائقة. اهتم بالعمل في التراث الإسلامي، وخلف فيه أعمالاً عظيمة، منها: نشر كتاب (كشف الظنون) لحاجي خليفة، و(نجوم الفرقان في أطراف القرآن)، وهو معجم مشهور، و(فهرس مخطوطات العربية والفارسية والتركية في مكتبة فيينا القيصرية) الخ. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٠١.

العالم الإسلامي (مصطفى بن محمد)، الذي صنف كتاباً في فهرسة القرآن يحمل نفس العنوان، وقد طبع في (كلكتا) سنة ١٨١١م. وقد أعيد طبع كتاب (فلوجل) في (ليبتسك) سنة ١٨٩٨م.

ثمّ قام (ميرزا محمد كاظم بك)(١) الأستاذ في جامعة سان بطرسبرج بعمل فهرس شامل للقرآن تحت عنوان عربي، هو (مفتاح كنوز القرآن)، وكما ورد تحت العنوان، فإنه: (فهرس كامل للقرآن، يحتوي جميعَ الألفاظ وعبارات النصوص التي ترشد المستشرقين في أبحاثهم عن الدين، والتشريع، والتاريخ، والأدب، الموجودة في القرآن الكريم، مرتبة بحسب ترتيب حروف الهجاء العربية. ويحتوي المفاتيحَ أو الكلمات الواردة في القرآن، مع الاستشهاد بكل المواضع التي استعملت فيها، والضرورية في الأبحاث العلمية)، وطبع في سان بطرسبرج سنة ١٨٥٩م.

هذا وقد ظهرت فيما بعد عدة ترجمات للقرآن، نذكر منها على سبيل المثال دون الحصر، الترجمات الآتية:

---

١ ـ كاظم ميرزا بك (١٨٠٢ ـ ١٨٧٠م): أعجمي متنصّر. درّس العربية في معهد الرهبان الأرثودوكسي بقازان، وفي جامعة بطرسبرج. آثاره: (مفتاح كنوز القرآن)، و(التحفة المفيدة في علم الأدب عند أهل العرب). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٣، ص٩٣٠.

١ ـ الترجمة اللاتينية الأولى:

إن أول وأقدم ترجمة كاملة للقرآن هي تلك التي دعا إليها ورعاها (بطرس المبجّل)[١]، وتولاها (بطرس الطليطلي)، و(هرمن الدلماشي)، و(روبرت كينت)، وراجعها (بييردي بواتيه). وتمت هذه الترجمة سنة ١١٤٣م، وطبعت في سويسرا سنة ١٥٤٣م. وهي أقرب إلى التلخيص الموسع (Paraphrase) منها إلى الترجمة. فهي لا تلتزم بالنص دقة وحرفية، ولا تلتزم بترتيب الجملة في الأصل العربي، وإنما تستخلص المعنى العام في أجزاء السورة الواحدة. وعلى رغم هذا العيب العام، والأخطاء الجزئية في بعض الآيات، إلا أنها بوصفها أول ترجمة للقرآن إلى لغة أجنبية تعد إنجازاً هاماً، وإن نشرها بعد أربعة قرون من كتابتها، لدليل على ما كان لها من مكانة سائدة خلال تلك القرون. وعن هذه الترجمة اللاتينية تمت الترجمة الإيطالية الأولى الآتية:

---

١ ـ بطرس المبجّل (Pierre le Venerable: نحو ١٠٩٢ ـ ١١٥٦م): فرنسي من الرهبانية البندكتية. مصلح رهبنة دير كلوني في فرنسا سنة ١١٢٢م. ترجم القرآن إلى اللاتينية، ولسعة اطلاعه عينته الرهبانية البندكتية رئيساً لديرها سنة ١١٢٣م، وانطلقت منه حركة إصلاحٍ عمّت النصرانية الأوربية، وجعل منها الرهبان الأسبان بعد أن آووا إليه مركزاً خطيراً لنشر الثقافة العربية. قصد الأندلس مستزيداً من علومها. ولما رجع إلى ديره نظمه وطفق يصنف الكتب في الردّ على علماء الجدل المسلمين وشجب اليهود. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٢٢ ـ ١٢٣؛ والمنجد في اللغة والأعلام، قسم الأعلام، ص١٣٠، دار المشرق، ط٣٣، بيروت، ١٩٩٢.

٢ ـ الترجمة الإيطالية الأولى:

وهي الترجمة التي قام بها (أريفا بيني) عن الترجمة اللاتينية المتقدمة، لا عن النصّ العربي للقرآن كما زعم المترجم كذباً. وقد تمّ إنجاز هذه الترجمة إلى الإيطالية سنة ١٥٤٧م.

٣ ـ الترجمة الألمانية الأولى:

وعن الترجمة الإيطالية المتقدمة، تمت الترجمة الألمانية الأولى التي قام بها (سالومون شفايجر)، عام ١٦١٦م.

ولم يضع حدّاً لاستعمال أو انتشار الترجمة اللاتينية الأولى التي أمر بها (بطرس المبجّل)، إلا الترجمة اللاتينية الجيدة والدقيقة التي قام بها (لود فيكو ماراتشي)، ونشرت سنة ١٦٩٨م، ومن الغريب ألا يعتمدها المترجم الألماني، رغم علمه باللاتينية قطعاً.

٤ ـ الترجمة الهولندية الأولى:

وعن هذه الترجمة الألمانية تمت ترجمة القرآن إلى اللغة الهولندية، سنة ١٦٤١م.

٥ ـ الترجمة الفرنسية الأولى:

وأول ترجمة للقرآن إلى الفرنسية هي التي قام بها (أندرياس دي رير)، سنة ١٦٤٧م. وقد كان المترجم يعمل قنصلاً لفرنسا في

مصر، وكان يتقن اللغة العربية، واللغة التركية. ولكن في ترجمته هذه الكثير من مواطن الغموض، مع افتقارها للتعليقات والشروح. ورغم ذلك ظفرت بنجاح كبير، وأضحت معتمداً للترجمات التي تلتها إلى الإنجليزية والهولندية. وعن هذه الأخيرة ترجم القرآن إلى الألمانية.

أما الترجمة الفرنسية الثاية فقد ظهرت بعد ذلك بـ ١٣٦ سنة، إذ أنجزت في باريس سنة ١٧٨٣م، وقام بها (سافاري). وجاء في مقدمتها مقارنة بين الترجمات الأقدم والأحدث، مع تعليقات موجزة يبدو أنه استقاها من تعليقات (لود فيكو ماراتشي)!

وفي عام ١٩٤٧م أصدر (بلاشير) ترجمته الفرنسية في ثلاثة أجزاء، مرتبة على ما ظنه ترتيب نزول القرآن زمنياً. ولكنه فيما بعد أعرض عن هذا الترتيب، وأعاد طبع هذه الترجمة بعد عشر سنوات على الترتيب الراهن. وقد أضحت هذه الطبعة هي الأوسع انتشاراً.

٦ ـ الترجمة الإنجليزية:

إن أقدم ترجمة إنجليزية للقرآن عن العربية مباشرة، هي التي قام بها (جورج سيل)[١]، وظهرت في لندن سنة ١٧٣٤م، وأعيد طبعها

١ ـ جورج سيل (George Sale: ١٦٩٧ـ ١٧٣٦م): محام ومستشرق إنجليزي. اشتهر بترجمة القرآن إلى الإنجليزية. درس العربية في أوقات فراغه، واقتنى مجموعة وافرة من مخطوطاتها، وقد تمّ إيداع هذه المخطوطات بعد وفاته في مكتبة بودلي بأوكسفورد. =

مراراً، وعنها ترجم القرآن إلى الألمانية على يد (ثيودور أرنولد).

٧ ـ الترجمة الألمانية:

إن أقدم ترجمة ألمانية عن النص العربي مباشرة هي ترجمة (ديفد فريدرش ميجرلن)، الأستاذ في جامعة فرانكفورت، وظهرت سنة ١٧٧٢م، تحت عنوان (الكتاب المقدس التركي) أو القرآن، الترجمة الألمانية الأولى عن الأصل العربي نفسه.

وهذه الترجمة هي التي قرأها (جيته)، ومنها بدأ إعجابه واهتمامه بالإسلام. وفي السنة التالية، أي ١٧٧٣م، ظهرت ترجمة ألمانية أخرى عن الأصل العربي، قام بها (فريدريش بويزن)، تحت عنوان: (القرآن، أو التشريع عند المسلمين، لمحمد بن عبد الله)[1].

= إلا أنها لا تحتوي أيّ تفسير من التفاسير القرآنية التي يشير إليها (سيل) في تعليقاته على ترجمته للقرآن؛ ولهذا فقد استنتج (دنسون روس) أن كلّ إشارات سيل إلى تفاسير القرآن إنما استقاها من تعليقات ماراتشي على ترجمته اللاتينية للقرآن. وقال روس: (إن ترجمة سيل لو قورنت بترجمة ماراتشي، تدلّ على أن ماراتشي قد أنجز من العمل ما يكاد يجعل عمل سيل قابلاً للإنجاز بواسطة معرفة اللغة اللاتينية وحدها). هذا وقد كان سيل منصفاً للإسلام، بريئاً – رغم تدينه المسيحي – من تعصّب المبشرين المسيحيين، حتى وصف بأنه نصف مسلم. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٣٥٨ ـ ٣٥٩. ونجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٤٧١.

١ ـ أنظر: بدوي، عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين، ص٤٤١ ـ ٤٤٣، دار العلم للملايين، ط٣، بيروت، ١٩٩٣م.

هذا وهناك من المعاصرين من عمل على ترجمة القرآن الكريم، وأفضلها ما قام به (رودي باريت)، كما أنجز الأب البروفسور (عادل ثيودور خوري) مؤخراً ترجمة أخرى للقرآن باللغة الألمانية، وصفت بأنها المعتمدة علمياً. وقد أشكل الأب (عادل خوري) على الترجمات السابقة، واعتبرها حاوية بعض الإشكالات وذكر لذلك مثلاً كلمة (ألا) الاستفتاحية، كما في قوله تعالى: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[1]، فقد فهمها (رودي باريت) مثلاً على أنها نافية، وبذلك ينقلب المعنى المراد في القرآن الكريم رأساً على عقب[2].

قال الرضي الأسترآبادي في شرحه على الكافية: (اعلم أن (ألا) و(أما)، حرفا استفتاح يُبتدأ بهما الكلام، وفائدتهما المعنوية: توكيد مضمون الجملة، وكأنهما مركبتان من همزة الإنكار وحرف النفي، والإنكار نفيٌ، ونفي النفي إثبات؛ فصارا بمعنى (إنّ) [التي هي للتأكيد دون النفي])[3].

---

١ ـ الرعد: ٢٨.

٢ ـ في حوار أجري مع (الأب البروفيسور عادل ثيودور خوري) في برنامج (الكلمة الطيّبة) على قناة المنار، بتاريخ: ٤/ ٥/ ٢٠٠٩م. وكان عنوان الحلقة: (ترجمة القرآن والحوار الإسلامي المسيحي).

٣ ـ الأسترآبادي، الرضي، شرح الرضي على الكافية، ج٤، ص٤٢١، منشورات مؤسسة الصادق، طهران، ١٩٧٨م.

ـ ٥ ـ

(ثيودور نولدكه) في سطور

ولد (ثيودور نولدكه) في مدينة هامبورغ ـ التي أطلق اسمه فيما بعد على أحد شوارعها ـ في الثاني من مارس سنة ١٨٣٦م في أسرةٍ عريقة قاتل قدماؤها الرومان، وشغل أفرادها مناصب إدارية وعلمية كبيرة. اشتهر (نولدكه) بمتانة الخلق، وسعة الأفق، ووضوح الفكرة، والتزامه أسلوباً علمياً صارماً طبع به الدراسات الشرقية طوال سبعة عقودٍ من حياته[١].

وقد درس اليونانية واللاتينية على يد والده؛ الذي كان وكيلاً للمدرسة الثانوية، ثمّ صار بعد ذلك ناظراً للمدرسة الثانوية في مدينة (لنجن)، وفي هذه المدينة قضى (نولدكه) المدّة من ربيع ١٨٤٩م، وحتى خريف ١٨٥٣م، للاستعداد لدخول الجامعة تحت إشراف أبيه؛ فأصبح ذا باعٍ طويل في الآداب اليونانية واللاتينية. وكان قد بدأ قبل ذلك بالإلمام بمبادئ اللغة العبرية. كما وقع له حادث جسماني اضطرّه إلى الانقطاع فترة عن الدراسة في المدرسة الثانوية؛ فوجّهه (إيفالد) إلى دراسة اللغتين العبرية والعربية وآدابهما؛ فدرس عنده اللغة السريانية، كما حضر درس (برتو) عن الآرامية الخاصّة بالكتاب المقدّس، ودرس

---

١ ـ أنظر: العقيقي، نجيب، المستشرقون، ج٢، ص٧٣٨.

السنسكريتية عند (بنفاي)، وكذلك بدأ وهو طالب في الجامعة دراسة اللغتين الفارسية والتركية.

نال درجة الدكتوراه الأولى سنة ١٨٥٦م وهو في العشرين من عمره على رسالته التي كتبها باللاتينية والتي تناول فيها (أصل القرآن وترتيب سوره)، وهو الموضوع الذي سيخصّه بعد ذلك بعامين بدراسة عميقة، حين أعلنت أكاديمية باريس عن جائزة لبحثٍ يكتب في هذا الموضوع؛ فتقدّم له (نولدكه)، وتقاسم هو و(شبرنجر)، و(ميكيله آماري) الجائزة التي ضوعفت حتى نال كل واحدٍ منهم مبلغ (١٣٣٣) فرنك فرنسي.

وبعد ذلك بعامين ترجم الكتاب إلى اللغة الألمانية، وأخرجه في طبعة منقحة، ثمّ توسّع فيما بعد في هذه الطبعة بالتعاون مع تلميذه (شفاللي)[١].

ثمّ بدأت بعد ذلك رحلاته العلمية إلى (ليبزيج)، و(فيينا)، و(ليدن). وذلك بهدف الوقوف على المخطوطات، واستكمال دراسته، فكانت زيارته لـ (فيينا) بين عامي ١٨٥٦م و١٨٥٧م، وتمكن فيها من

---

١ ـ فريدريش شيفاللي(.Schwally, Fr: ١٨٦٣ ـ ١٩١٩م): مستشرق ألماني، تخرّج باللغات الشرقية على يد نولدكه. من آثاره: نشر كتاب (المحاسن والمساوئ) للبيهقي في ثلاث مجلدات، وأعاد طبع (تاريخ النصّ القرآني) لأستاذه نولدكه، بعد تحقيقه والتعليق عليه في مجلدين. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٢٧.

الاطلاع على المخطوطات العربية، وفي الوقت نفسه اهتم بإتقان اللغتين الفارسية والتركية، وقراءة شعراء الصوفية من الفرس، وخاصّة (سعدي الشيرازي)[١] و(عطار النيسابوري)[٢].

وفي ليدن تعرّف من قريب على كبار المستشرقين هناك من أمثال: (رينهارت دوزي)، و(جونبول)[٣]، و(دي فرييس)[٤]،

---

١ ـ سعدي الشيرازي (١٢١٣؟ ـ ١٢٩٢م): شاعر فارسي. يعتبر أحد أكثر شعراء الفرس شعبية. كان متصوّفاً، وقد اضطرّه الغزو المغولي إلى التطواف في الأناضول وسوريا ومصر والعراق؛ ليستقرّ آخر الأمر في مسقط رأسه (شيراز). أشهر آثاره: (بوستان)، أي (البستان) سنة ١٢٥٧م، وگلستان، أي: (حديقة الورد) سنة ١٢٥٨م. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٨، ص١٨٤

٢ ـ فريد الدين عطار النيسابوري (١١٤٢؟ ـ ١٢٢٠؟): شاعر فارسي. يعتبر أحد أعظم الشعراء والمفكرين الصوفيين المسلمين. تركت أعماله أثراً ملحوظاً في الأدب الفارسي، وفي الآداب الإسلامية الأخرى أيضاً. أشهر آثاره: (منطق الطير)، وهو شبه ملحمة، نقف فيها على أوضح تفسير شعريّ للتصوّف الفارسي. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج١، ص٢٠٥.

٣ ـ ثيودور وليم جونبول (Theodor Willem Juynboll: ١٨٦٦ ـ ١٩٤٨م): مستشرق هولندي، درس في جامعة ليدن على يد (دي خويه) الآتي ذكره، ثمّ صبّ اهتمامه على علمي الفقه والحديث. من آثاره: (الاستشراق في هولندا)، و(الإسلام في جاوة). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦٧٠. وعبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٦٣٥.

٤ ـ دي فرييس (Vries, L. de): مستشرق هولندي. تخرّج من جامعة ليدن. من آثاره: (الخراج) ليحيى بن آدم، و(صوت جرس جديد في عالم الإسلام)، وهو عبارة عن رسالة تناول فيها الخلافة (ليدن ١٩٢٦م). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ص٦٧٦.

و(دي خويه)[1]، و(دي يونج)[2]، وغيرهم.

ومن (ليدن) عاد إلى (جوتا)، و(برلين) في ألمانيا حيث عكف على دراسة المخطوطات فيهما. وبقي في برلين حتى شهر سبتمبر ١٨٦٠م، واشتغل فيها مساعداً في مكتبة برلين لعامٍ ونصف العام، كلّف فيها بعمل فهرس للمخطوطات التركية.

وانتجاعاً للصحة ـ وقد كانت صحته منذ طفولته حتى آخر حياته ضعيفة تحالفت عليها الأمراض، ومع ذلك عاش حتى تجاوز الرابعة والتسعين! ـ قام سنة ١٨٦٠م برحلة من برلين حتى روما، وطاف بالبلاد الرئيسية أثناء الطريق، واستمرت الرحلة ثلاثة أشهر.

---

١ ـ ميشال دي خويه (Michael Jan De Goeje: ١٨٣٦ ـ ١٩٠٩م): مستشرق هولندي عظيم، درس على يد رينهارت دوزي. اتجهت عنايته منذ البداية إلى الجغرافية العربية؛ فكانت رسالته عن وصف المغرب، كما ورد في كتاب (البلدان) للمؤرّخ والجغرافي الشيعي المشهور (أحمد بن وضاح بن أبي يعقوب) المعروف بـ (اليعقوبي)، وطبعت هذه الرسالة في ليدن، وكتب عليها (نولدكه) نقداً. وعنى بـ (فتوح البلدان) للبلاذري. اشتهر ببعده عن الهوى في جميع أبحاثه؛ حتى فضله بعضهم على (فيستنفيلد). وقد انتخب عضواً في العديد من المجامع العلمية. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٢٣٠؛ ونجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦٦٣ ـ ٦٦٤.

٢ ـ دي يونج (Joan. P. de: ١٨٣٢ ـ ١٨٩٠م): مستشرق هولندي، تخرّج بالعربية في جامعة (أوترخت). تعاون مع (دي خويه)، و(جونبول)، في نشر مكتبة الجغرافيين العرب، وكتاب (الخراج) ليحيى بن آدم القريشي. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦٦١.

والعجيب أنه لم يرحل إلى البلاد العربية والإسلامية مطلقاً، رغم تخصصه في لغاتها، وآدابها، وتاريخها، وجغرافيتها!

تزوّج (نولدكه) سنة ١٨٦٤م، وكانت ثمرة هذا الزواج عشرة أولاد من البنين والبنات، توفي ستة منهم أثناء حياته. وبعد وفاة زوجته بأربع سنوات، وفي ربيع ١٩٢٠ بالتحديد ارتحل (نولدكه) إلى مدينة (كاركسرويه) في منطقة الراين الأعلى، حيث أقام في منزل ابنه الذي كان آنذاك يعمل مديراً للسكك الحديدية، حيث قضى عقده الأخير، وكانت وفاته في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر، عام ١٩٣٠م[١].

أ- أعماله وآثاره:

خلف (ثيودور نولدكه) وراء عمره المديد، ما يقرب من سبع مئة مقالةٍ، بالإضافة إلى ٢٤ كتاباً. حتى تمّ تصنيف فهرسٍ كامل بأعماله.

ولعل أهم الأسباب التي مكنت (نولدكه) من بلوغ هذه المكانة العلمية، وهالة الشهرة التي أحاطت به في حياته وبعد وفاته، إطلاعه الواسع على أهم المخطوطات في اللغات السامية، وانكبابه على دراسة

١ ـ أنظر: بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص٥٩٥ ـ ٥٩٨، دار العلم للملايين، ط٣، بيروت، ١٩٩٣م.

القرآن الكريم في ضوء تعمقه في تلك اللغات، وكذلك دراسته للشعر العربي القديم، وعنايته باللغة والنحو العربيين، مع التزامه منهجاً صارماً في التعامل مع الحقائق، من ذلك أنه طبق منهجاً تحليلياً على العهد القديم أثار عليه ضجّة داخل أروقة جامعة (كييل).

وإلى جانب اختصاصه بعلوم القرآن، وإسهامه في وضع أسس البحث العلمي للدراسات القرآنية التي جاءت بعده، فقد كانت له مشاركة فعالة في حقول قريبة من مجال القرآن الكريم، نجملها بالنحو الآتي:

أولاً: في حقل المعجم العربي:

سجّل (ثيودور نولدكه) على نسخته الخاصة من معجم فرايتاج (١٧٨٨ ـ ١٨٦١م) ـ وهو معجم لاتيني في أربعة أجزاء، نشره في (هاله) بين الأعوام (١٨٣٠ ـ ١٨٣٧م) ـ أمثلة كثيرة جداً نتيجة لاشتغاله بالنصوص العربية. وقام (يورج كرايمر)[1] ببحث الموارد التي سجّلها نولدكه، ونشرها في (معجم استشهادات اللغة العربية الفصحى ـ إعداد نولدكه) ونشرها بين عامي ١٩٥٢ و١٩٥٤م.

---

١ ـ يورج كرايمر (Kraemer, J.: ١٩١٧ ـ ١٩٦١م): أستاذ الفلسفة العربية في جامعة (توبنجين) سنة ١٩٥٠م. أقام بمصر في الفترة من عام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤م. عيّن أستاذاً للأدب العربي في (أرلنجين) سنة ١٩٥٤م. مات منتحراً سنة ١٩٦١م. من آثاره: (سقوط مملكة الصليبيين في القدس). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٨٧.

ثانياً: في حقل الشعر العربي:

أدرك المشتغلون بتراث الشرق الإسلامي أن تاريخ الشعب العربي المسلم مشدود إلى قطبين رئيسين، أحدهما: القرآن الكريم، والثاني: لغة هذا القرآن. ومن هنا كان اهتمام (ثيودور نولدكه)، إذ ألف كتابه (مختارات من الشعر العربي) ليكون مادة دراسية، وقد جمع فيه باقة من ديوان الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي. وقد ذكر المستشرق الألماني (رودي باريت) أن هذا الكتاب لا يزال معتمداً في الجامعات، يدرسه الطلاب المتخصّصون. وقد طبع سنة ١٨٩٠م، وأعيد طبعه سنة ١٩٣٣م، وأعيد طبعه للمرة الثالثة سنة ١٩٦٥م، وقام (أوجست موللر)[١] بتزويده بمعجم.

أما ثمرة دراساته للشعر العربي، فقد أودعها في كتابه (أبحاث لمعرفة شعر العرب القدماء)، الذي ألفه عام ١٨٦٤م، وهو مؤلفٌ من عدّة مقالات وترجمات، وقد ترجم الفصل الأول منه الدكتور (عبد

---

١ ـ أوجست موللر (Muller, Aug: ١٨٤٧ ـ ١٨٩٢م): ابن الشاعر الألماني الشهير (فيلهيلم موللر). تخرّج باللغات الشرقية على يد فلايشر، ثمّ علّم العربية في جامعة فيينا. إشترك مع جوهانسن رويديجر في إنجاز ما كان قد بدأه (فلوجل) من كتاب الفهرست لابن النديم. من آثاره: (الإسلام في الشرق والغرب) حيث قام بتصنيفه بعد اعتذار ثيودور نولدكه من ذلك. كما صنف معجماً لكتاب نولدكه في الأشعار والأغاني العربية. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧١٠ ـ ٧١١. وعبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٥٦٥.

الرحمن بدوي) في كتابه (دراسة المستشرقين حول صحّة الشعر الجاهلي)، وقد شغلت الصفحات من الصفحة ١٧ إلى ٤٠. وقد ختم (نولدكه) هذا الفصل بفقرة جديرة بالوقوف عندها، إذ عبر فيها عن تفاعله مع الشعر العربي الجاهلي الذي وجده عظيماً وبديعاً، زاخراً بروح القوّة والرجولة، إذا ما قورن بروح العبودية والخنوع الموجودة لدى الكثير من الشعوب الآسيوية الأخرى، ومن الأمثلة التي يسوقها على ذلك قول الشاعر:

سأغسل عني العار بالسيف جالباً   عليّ قضاء الله مـــا كان جالبـا

ثمّ علق على ذلك بالقول: (بهذه الكلمات يمضي العربي الحرّ إلى ساحة القتال ولقاء الموت. هذه الروح الرجولية التي تتجلى في قصائد الأعراب القدماء من سكان البوادي، يمكن أن تكون مثلاً لنا نحتذيه. والآن يبرز أمام الشعب الألماني السؤال عما إذا كان قد عقد العزم على غسل العار القديم بدمه)[1].

وقد ترجم وشرح قصائد عروة بن الورد عام ١٨٦٣م، وترجم وشرح خمساً من المعلقات بين الأعوام ١٨٩٩م و١٩٠١م.

---

١ ـ عن عبدالرحمن بدوي، دراسات المستشرقين حول صحّة الشعر الجاهلي، نقلاً عن عباس أرحيلة.

ثالثاً: في حقل النحو العربي:

أسهم نولدكه في هذا المجال بدراسات قيّمة، وخاصة بالدراسة التي ظهرت في مذكرات أكاديمية فيينا، سنة ١٨٩٧م تحت عنوان (في نحو اللغة العربية الفصحى)، وقد حدد فيه الأمثلة، ووضع القواعد وما شذ عنها. وقد تميّز بمجموعة هائلة من النصوص التي انتخبها وأثبتها في مذكراته لأهميتها النحوية، وقد أعيد طبع هذه الدراسة سنة ١٩٦٣م.

رابعاً: في مجال السيرة النبوية وتاريخ الإسلام:

كتب في مجال السيرة المحمدية كتابه (حياة محمّد عرض مبسط مستمد من المصادر)، سنة ١٨٦٣م. واعتبر الكتاب نموذجاً لما ينبغي أن يكون عليه عرض تاريخي علمي، معتمد على المصادر، وفي متناول القرّاء.

وفي حقل التاريخ الإسلامي اضطلع بالجزء الخاص بالساسانيين عند إخراج طبعة ليدن النموذجية لتاريخ الطبري، وأشفعها بترجمة ألمانية، تحت عنوان (تاريخ الفرس والعرب في عصر الساسانيين) سنة ١٨٧٩م.

ب- نولدكه والنصّ القرآني:

لا بأس قبل الخوض في نشاط (نولدكه) في المجال القرآني، بالإشارة أيضاً إلى الدراسات القرآنية السابقة والمعاصرة له، ونجملها بالنحو الآتي:

أ ـ في سنة ١٧٤٦م، باشر (ثيودور أرنولد) ترجمة القرآن إلى الألمانية عن نسخة مترجمة إلى الإنجليزية، وكان صاحب الترجمة الإنجليزية هو المستشرق الإنجليزي (جورج سيل)؛ فأضحت هذه الترجمة هي العمدة في تاريخ الدراسات القرآنية، وراجت رواجاً عظيماً خلال القرن الثامن عشر للميلاد.

ب ـ قام (فريدريتش روكرت)[1]، بترجمة قسم من القرآن الكريم إلى الألمانية، وبعد وفاته قام المستشرق الألماني (أوجست مولر) بطبع هذه الترجمة في فرانكفورت سنة ١٨٨٨م، وقيل: إن هذه الترجمة أقرب إلى بلاغة القرآن من سائر الترجمات الأخرى.

ج ـ وضع (جوستاف فلوجل)[2] طبعة للنصّ العربي للقرآن

---

١ ـ فريدريتش روكرت (Friedrish Ruckert: ١٧٨٨ ـ ١٨٦٦م): مستشرق وشاعر ألماني كبير. ترجم الكثير من الأدبين العربي والفارسي نظماً. تميّز بثراء الأفكار، وقد جرّب كلّ ألوان النظم الموجودة عند الشعراء الذين عرف شعرهم في الغرب والشرق، وساعده على هذا تملكه ناصية اللغة الألمانية على نحوٍ لم يُعرف لدى شاعرٍ ألماني آخر، وكان الفضل في توجهه للدراسات الشرقية يعود إلى (هارمر بورجشتال). من آثاره: ترجمة (مقامات الحريري) التي نسبت إلى الأدب الألماني إذ صنع منها تحفة باللغة الألمانية الشعرية الرفيعة. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٢٩٥ ـ ٢٩٦.

٢ ـ جوستاف فايل (Gustav Weil: ١٨٠٨ـ١٨٨٩م): مستشرق ألماني يهودي. تعلم العبرية والفرنسية على يد معلم خصوصي في منزله. أقام وهو في الثانية عشرة من عمره عند جدّه الذي كان آنذاك الحاخام الأكبر للمجتمع الإسرائيلي في الإلزاس؛ فأدخله المدرسة التلمودية، ليعود بعدها بخمس سنوات إلى ألمانيا ليتمّ دراساته الربّانية (اليهودية). =

الكريم في مدينة ليبزيج، وقد صدرت الطبعة الأولى سنة ١٨٣٤م، والطبعة الثانية سنة ١٨٤٢م، والطبعة الثالثة سنة ١٨٨٥م. وصارت هي المعتمدة في ترقيم الآيات عند المستشرقين من ذلك الوقت إلى يومنا هذا، وهي التي اعتمدها (ثيودور نولدكه) في كتابه الذي تناولناه هنا بالنقد والتمحيص. كما قام (فلوجل) بوضع أول معجم مفهرس لألفاظ القرآن الكريم مع ذكر رقم السورة والآية التي ترد فيها، وقد سمّاه (نجوم الفرقان في أطراف القرآن)، وذلك في مدينة ليبزيج سنة ١٨٣٠م، فأسدى بذلك خدمة جلية للقرآن وللباحثين عموماً، وقد اعتمده الدكتور (فؤاد عبد الباقي) في كتابه (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن) واستدرك عليه ما فاته.

د ـ وضع (جوستاف فايل) كتابه (مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن) في سنة ١٨٤٤م، وتحدّث فيه عن جمع القرآن، والتسلسل التاريخي لنزول سوره وآياته، وقد قسم فيه السور المكية إلى ثلاث

= لكنه ما لبث أن اتجه إلى الدراسات التاريخية والفيلولوجية عند (شلاوس)، و(كرويتسر)، و(بيبر). ودرس مبادئ العربية على (أومبرايت) أستاذ اللاهوت. سافر إلى البلاد العربية، وأقام في مصر أربع سنوات، وقد كان معلمه في العربية هناك الشيخ محمد عيّاد، والشيخ أحمد التوانسي. من آثاره: (التوراة في القرآن)، و(النبي محمد حياته ومذهبه). أنظر: عبدالرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٣٩٠ ـ ٣٩١. ونجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٠٧ ـ ٧٠٨.

مراحل، بالإضافة إلى المرحلة المدنية. فكان له قصب السبق على (ثيودور نولدكه) في هذا التقسيم بأكثر من عقدٍ من الزمن، بل يبدو جلياً أنّ (نولدكه) قد تأثر بهذا الترتيب، وأنه حذا حذوه فيه، ولم يختلف عنه إلا في القليل من الموارد.

هـ ـ ألّف (ثيودور نولدكه) أطروحته تحت عنوان (أصل القرآن وترتيب سوره) باللغة اللاتينية، وقدمها سنة ١٨٥٨م. ولما أعلنت أكاديمية باريس عن جائزة تمنح لأفضل كتاب في موضوع القرآن، رحل في طلب المزيد من المصادر لرسالته وتوسّع فيها، ثم أرسل مساهمته إلى الأكاديمية المذكورة بعنوان (تاريخ القرآن) ففازت بالاشتراك مع (شبرنجر)، والمستشرق الإيطالي (ميكليه أماري)، عن بحثه (الترتيب الزمني لآيات القرآن). وبعد أن أعاد (نولدكه) النظر في تلك الرسالة، ترجمها إلى الألمانية، ونشرها تحت عنوان (تاريخ النص القرآني) سنة ١٩٦٠م.

وظهرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب في ثلاثة مجلدات في الأعوام ١٩٠٩م، و١٩١٩م، ١٩٣٨م، وقد أسهم في إنجازها كلٌّ من تلميذه (شفاللي)، الذي أصدرها في مجلدين في ليبزيج في عامي ١٩٠٩م، و١٩١٩م. وبعد وفاته قام (برجشتريسر)، و(بريتسل)، بإخراج الجزء الثالث منه بعنوان (تاريخ النصّ القرآني).

ويعتبر هذا الكتاب أخطر ما أنتجه الغرب في تاريخ تعامله مع

النصّ القرآني، ويكفي هذا الكتاب شهرة ومكانة أنه قد أصبح عمدة في فرع التخصص في حقل (القرآن).

وقد اعتبره (أبو عبد الله الزنجاني) في كتابه (تاريخ القرآن) من أهم ما ألفه الإفرنج في تاريخ القرآن، إذ بحث فيه صاحبه بتضلع عميق، وحاول أن يكون موضوعياً بقدر الإمكان. وقد تناول هذا الكتاب حقيقة الوحي والنبوّة وما بينهما من علاقة، وحاول ربط السيرة النبوية بتاريخ السور المكية والمدنية. كما تناول حكمة نزول القرآن، وأسباب نزول الآيات، وغير ذلك من الموضوعات.

ويبدو أن شهرة (نولدكه) كانت بسبب عنايته بالنصّ القرآني، ولا شكّ في أن جهوده في حقل الدراسات القرآنية، ظلت معلماً بارزاً في أعمال المستشرقين على الإطلاق. وإن القارئ لدائرة المعارف الإسلامية تثير انتباهه حقاً مكانة (نولدكه) عند كتاب مواد هذه الدوائر المعرفية الواسعة؛ إذ تراهم يعتبرونه عمدة وحجّة في كلّ ما يتعلق بقضايا النصّ القرآني.

وفي موضوع (القرآن والعربية) قام نولدكه بانتقاد (كارل فولرس)، على ما روّجه في كتابه (لغة الكتابة واللغة الشعبية في بلاد العرب قديماً)؛ إذ قال: إنّ النصّ الأصلي للقرآن كان مؤلفاً بلهجة من اللهجات التي كانت سائدة في الحجاز، وكانت خالية من الإعراب. وقد أذاع (فولرس) أن القرآن كان في بادئ الأمر على لسان عامّة قريش،

وأن القرآن قد عدّل وهذب حسب أصول اللغة العربية الفصحى في عصر ازدهار اللغة العربية. فانبرى إليه (نولدكه) يردّ عليه، موضحاً أنّ كلامه عارٍ من الصحّة والتحقيق العلميين(١).

ومما يلاحظ أن كتّاب دائرة المعارف الإسلامية من المستشرقين قد اعتمدوه. وهناك نقولٌ من كتاب (نولدكه) استفاد منها الباحثون عامّة في مجالات الدرس القرآني. ولا يخفى أن أهم ما بحثه المستشرقون في الدراسات القرآنية هو موضوع (تاريخ القرآن): لغته، ونزوله، وتدوينه، وقراءته. وينبغي التذكير بأن المنهج التاريخي الاستشراقي قد وجد ضالته في القرن التاسع عشر في محاولات إعادة ترتيب السور القرآنية في ضوء الظروف والمناسبات التي مرّت بها الدعوة الإسلاميّة؛ فذهب البعض يرصد أخبار تدوين القرآن، ويتتبّع تحرّكات الوحي، ويفتش في أسباب النزول، ويبحث في الأرض عن ظاهرة يؤكّد بها بشرية القرآن.

وعلى أيّ حال فإن الجهود الاستشراقية تضاءلت أمام بلاغة القرآن، فقد أضاع المستشرقون المفاتيح البيانية للدخول إلى رحاب القرآن يوم قالوا ببشريّته، مما أنساهم قدس الوحي وربانيته؛ فراحوا يبحثون في سيرة الرسول الأكرمﷺ، علّهم يعثرون فيها على مصدر للقرآن!

---

١ ـ المستشرقون والدراسات القرآنية، أنظر: مادّة (تحريف) في دائرة المعارف الإسلامية. أرحيلة.

والمهمّ أن الكتاب الذي بين أيدينا لنولدكه (تاريخ القرآن) قد مهّد الطريق للغرب لمعرفة القرآن، وخلق منه مدرسة تناقلت آراءها أقلامُ المستشرقين والمستعربين على السّواء، ويلاحظ بهذا الشأن أن المستشرق الفرنسي (بلاشير)[١] قد تبنى الكثير من آراء هذه المدرسة وأشاع نتائج بحوثها، ومما يؤثر عنه قوله: (إنه بفضل نولدكه ومدرسته أصبح ممكناً من الآن فصاعداً، أن نوضح للقارئ غير المطلع ما يجب أن يعرفه عن القرآن)[٢].

ج- مدرسة نولدكه وتلاميذه:

إنّ تلاميذ (نولدكه) هم فطاحل المستشرقين الألمان، ونذكر منهم على سبيل المثال:

---

١ ـ ريجي بلاشير (Regis Blacshere: ١٩٠٠ ـ ١٩٧٣م): سافر مع أبويه إلى المغرب سنة ١٩١٥م، وتلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء، وتخرّج بالعربية من كلية الآداب بالجزائر سنة ١٩٢٢م، وعيّن أستاذاً لها في معهد مولاي يوسف بالرباط. نال الدكتوراه سنة ١٩٣٦م، وعيّن أستاذاً محاضراً في السوربون. من آثاره: ترجمة القرآن في ثلاثة أجزاء سنة ١٩٤٧م إلى اللغة الفرنسية. وبمناسبة اشتغاله بترجمة القرآن صنف كتاباً صغيراً بعنوان (معضلة محمد) لخص فيه أبحاث المستشرقين الذين كتبوا في حياة النبي الأكرم(ص). أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١٢٧. ونجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٣١٦ ـ ٣١٨.

٢ ـ القرآن: نزوله، تدوينه وترجمته، بلاشير، ترجمة رضا سعادة، بيروت، دار الكتاب العربي، ص٢١. أرحيلة.

ـ إدوارد زاخاو[1]: وهو مؤسس معهد اللغات الشرقية في برلين سنة (١٨٨٨م)، وإليه يعود الفضل في تعريف الغرب بـ (البيروني)، إذ حقق (الآثار الباقية من القرون الخالية)، مع ترجمة إنجليزية، لندن سنة ١٨٧٩م، وترجمة فرنسية، ليبسيج سنة ١٩٢٣م، وذلك بمساعدة (فستنفيلد). وحقق أيضاً (ما للهند من مقولة) سنة ١٨٨٧م، وترجمه إلى الإنجليزية.

ـ جورج جاكوب[2]: عنى بعلاقة اللغة العربية وحضارتها بلغات أوربا الشمالية والشرقية. وقد كتب أطروحته بعنوان (تجارة العرب الشمالية البلطيقية)، ونال شهادة الأستاذية في (الشعر الجاهلي)، حقق

---

١ ـ إدوارد زاخاو (Sachau, E.: ١٨٤٥ ـ ١٩٣٩): درس على كلٍّ من داليان، وفلايشر، ونولدكه. عمل أستاذاً للغات الشرقية في فيينا، وأستاذ كرسي في برلين. أوفد من قبل الحكومة البروسية إلى سوريا والعراق سنة (١٨٧٩ ـ ١٨٨٠م). أسس معهد اللغات الشرقية في برلين سنة (١٨٨٨م)، وعلم فيه وقتاً طويلاً. اشتهر بسعة الأفق، ودقة العلم والنشاط الجم؛ فعدّ ممثلاً رسمياً للدراسات الشرقية في ألمانيا، وقد صنف كتاب لتكريمه. أنظر نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٣٨ و٧٤٠ ـ ٧٤١.

٢ ـ جورج جاكوب (Jacob, G.: ١٨٦٢ ـ ١٩٣٧م): ولد في كوينسبرج، وفقد أباه صغيراً فكفلته أمّه. تعلم في ليبزيج، وستراسبورج، وبرسلاد، وارلنجين، وبرلين. ثمّ نال الدكتوراه من ليبزيج سنة ١٨٨٧م. عمل مدّة في مكتبة برلين، ونال شهادة الأستاذية من جرايفسفالد. زار الأستانة، وتعلم التركية، وعنى بالسنسكريتية، والصينية، وشكسبير، وعلم النبات والحيوان؛ حتى أصبح مديراً لحديقة الحيوان الشرقية في ألمانيا. وقد صنف كتاب باسمه تكريماً له. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٥٢.

فيها أسماء النباتات المذكورة في الأشعار الجاهلية سنة ١٨٩٢م، وله كتاب (أثر الشرق في الغرب ولا سيّما في العصر الوسيط)، وقد نقله إلى العربية (فؤاد حسنين علي).

ـ **بروكلمان** (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦م): جاء في ترجمته الذاتية عن فترة تلقيه على نولدكه: (وعنده تعلمت الكثير جداً)[١]. تعرّض لتاريخ القرآن، ومسألة الوحي، وذلك في الجزء الأول من كتابه: (تاريخ الأدب العربي)، وهو من أكثر من تناول القرآن صراحة ووضوحاً. وقد اشتهر بوفرة النشاط، وغزارة الانتاج، وعمق الفكرة، وشمول النظرة، الأمر الذي جعله مرجعاً للمصنفين في التاريخ الإسلامي والأدب العربي[٢].

ـ **شيفاللي** (١٨٦٣ ـ ١٩١٩م): تخرّج باللغات الشرقية على يد (نولدكه)، وأعاد طبع كتاب (تاريخ القرآن) لأستاذه نولدكه في مجلدين سنة (١٩٠٩م) و(١٩١٩م). وقدّم دراسته حول القرآن بمناسبة تكريم (إدوارد زاخاو) سنة ١٩١٥م.

ـ **إينو ليتمان** (١٨٧٥ ـ ١٩٥٨م): درس على يد (نولدكه)، وتزوّج من حفيدته، تخصص في الآثار، واهتم باللغات الشرقية ودرّسها مدّة طويلة في توبنجين، والجامعة المصرية عند إنشائها، ثمّ في

---

١ ـ بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص٩٩، دار العلم للملايين، ط٣، بيروت، ١٩٩٣م.

٢ ـ أنظر: العقيقي، نجيب، المستشرقون، ج٢، ص٧٧٧ ـ ٧٧٨.

جامعات ألمانيا والولايات المتحدّة، واشترك في بعثات التنقيب في سوريا، وفلسطين، والحبشة. ورحل إلى بلاد كثيرة، وعيّن في مناصب متعددة. نال شرف عضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة. وهو أوّل من ترأس جمعية المستشرقين الألمان. خلف عدداً من الأعمال، من أهمها: ترجمته المهمّة لكتاب (ألف ليلة وليلة) إلى الألمانية[١]، إضافة إلى آثاره الأخرى التي تربو على ٥٥٠ أثراً بين مصنف ومحقق ومترجم، علاوة على التراجم والفهارس والدراسات التي تناولت علاقة الشرق بالغرب. وقد أُهدي كتاباً لتكريمه بعنوان (الدراسات الشرقية)[٢].

- **جوتهلف برجشتريسر (١٨٨٦ - ١٩٣٣م): متخصّص** في اللغات السامية، والدراسات الإسلامية. عيّن أستاذاً في جامعة (منشن)؛ فوضع مشروعاً لنشر المؤلفات الأساسية في قراءات القرآن، وتولت (أكاديمية بافاريا للعلوم) مهمّة الإنفاق عليه. حصل على الدكتوراه في موضوع (أدوات النفي والاستفهام في القرآن) سنة ١٩١٤م. وقام بعد وفاة (شيفاللي) بإكمال وتعديل كتاب نولدكه (تاريخ النص القرآني) بجزأيه، وأضاف إليهما الجزء الثالث، فأدركه الأجل قبل أن يتمكن من نشره؛ فنشره (أوتو بريتسل).

---

١ - أنظر: ميشال جحا، الدراسات العربية، ص٢٠٧، نقلاً عن الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٧٩، ١٩٩٨م.

٢ - أنظر: العقيقي، نجيب، المستشرقون، ج٢، ص٧٨٤.

وقد وفد (برجشتريسر) على القاهرة زائراً؛ فأقام فيها منذ العام ١٩٣١م، حتى عام ١٩٣٢م؛ واستمع في القاهرة إلى تلاوة القرآن الكريم من قارئ مشهور؛ فدوّن أنغامه بالنوطة. وكتب في موضوع القرآن في (إسلاميكا) سنة ١٩٢٩م، ومن مقالاته (قراءة الحسن البصري) سنة ١٩٣٦م، ونشر (تاريخ القرآن) سنة ١٩٢٩م، وحقق القراءات الشاذة في كتاب (المحتسب) لابن جني، سنة ١٩٣٣م، وعنى بكتاب (غاية النهاية في طبقات القرآن) لابن الجوزي، في مجلدين، سنة ١٩٣٢م. ونُشر بعد وفاته كتاب (مختصر شواذ القراءات) لابن خالويه، سنة ١٩٣٤م، وأعد فهارسه (أوتو بريتسل) الآتي ذكره. وقد أنشأ متحفاً للقرآن في (ميونيخ)؛ جمع فيه آلاف النسخ من القرآن الكريم مطبوعاً، أو مخطوطاً، أو مصوّراً. وقد ضمّ هذا المتحف الصور الشمسية لسائر مخطوطات القرآن في أرجاء العالم. وضمّ أيضاً آلاف المخطوطات اليدوية من جميع العصور، حتى لو كانت ورقة واحدة، منذ القرن الهجري الأول حتى القرن العشرين. وكذلك المطبوعات الخاصة بتفسير القرآن وعلومه، وجعل لكلّ آية منه علبة خاصة يوضع فيها تفسير كلّ مفسر لها من عصر الصحابة إلى اليوم.

وقد بذلت جهود كبيرة، وأنفقت أموالٌ طائلة لإقامة هذا المتحف القرآني. وكان الهدف منه مقارنة نصوص القرآن الكريم في مختلف نسخه المخطوطة من بلدٍ لآخر، ونسخة وأخرى، وقد تمّ لتحقيق هذه الغاية تدوين كلّ آية في لوح خاص مع ما عثر على كلّ

رسم لها في مختلف المصاحف، وبيان قراءتها وتفاسيرها المتعددة.

وبعد وفاة (برجشتريسر) المفاجئة، إثر سقوطه في الجبال أثناء ممارسته لهواية التسلق سنة ١٩٣٣م، انتدب (بريتسل) لاستكمال هذا المشروع[١].

وقد ذكر في بيان الغاية من وراء كلّ هذا الاهتمام بالقرآن: أن بعض كبار القساوسة الألمان عمدوا في القرن التاسع عشر إلى جمع كافة مخطوطات الإنجيل المكتوبة باللغة اليونانية، من جميع أرجاء العالم، ثم قارنوا بينها سطراً سطراً، وحرفاً حرفاً؛ فعثروا على ما يقرب من مئتي ألف اختلاف، فحاولوا إجراء نفس المقارنة فيما يتعلق بالقرآن الكريم، أملاً في الوصول إلى ذات النتيجة[٢]!

ومن الغريب أن يتعرّض هذا المعهد أثناء الحرب العالمية الثانية إلى التدمير، إثر إصابته بقنبلة أمريكية؛ فيصبح هباءً منثوراً.

ـ **أوتو بريتسل** (١٨٩٣ ـ ١٩٤١م): أستاذ اللغات السامية في جامعة ميونخ، ارتبط اسمه بالدراسات الخاصة بقراءات القرآن، فكان إلى جانب (جوتهلف برجشترسر)، و(آرثور جيفري)، من أبرز

١ ـ أنظر: بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص٨٥ ـ ٨٧. وكذلك: العقيقي، نجيب، المستشرقون، ج٢، ص٧٤٧ ـ ٧٤٨.

٢ ـ البنداق، محمد صالح، المستشرقون وترجمة القرآن، ص٢٤، دار الآفاق الجديدة، بيروت. نقلاً عن أرحيلة.

المستشرقين في هذا المجال. كان تخصصه الأوّل في علم العهد القديم من الكتاب المقدّس، ثمّ غدا من المتخصصين في الدراسات الإسلامية، وعضواً في المجمع العلمي البافاري، وعضواً في جمعية المستشرقين الألمان. واشترك مع (برجشترسر) في نشر الجزء الثالث من (تاريخ النصّ القرآني) لثيودور نولدكه. وبعد أن انتدبه المجمع البافاري، بادر إلى إنجاز المكتبة القرآنية، وتتميم مهامّها، فانجلت هذه المهمّة عن نشر طائفةٍ من مصادر القراءة وعلوم القرآن[1].

ثمّ أطلت النازية، ونجحت في استلام الحكم في ألمانيا سنة ١٩٣٣م، أي: بعد ثلاثة أعوام من وفاة (نولدكه)؛ فانتكست الدراسات الاستشراقية في ألمانيا، وتشتت المستشرقون الألمان في أنحاء الأرض، وأما من بقي منهم فقد عاش في جوّ من الإرهاب الفكري، وهلك بعضهم في الحرب التي عانت فيها ألمانيا الكثير من الخراب والدمار.

هذا وبقول مختصر: يعد (ثيودور نولدكه) واحداً من أهم أقطاب الاستشراق الألماني، وشيخ المستشرقين الألمان بلا منازع، فقد انتهت إليه الحقبة الزاهية لهذا الاستشراق، وقد جعل من مدينة (ستراسبورغ) في نهاية حياته قبلة للاستشراق الأوربي.

---

١ ـ أنظر: العقيقي، نجيب، المستشرقون، ج٢،ص٧٥٩ ـ ٧٦٠؛ وكذلك: بدوي، عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين،ص٨٢ ـ ٨٣.

وقد أضحت حصيلة جهوده في مجال دراسة النصّ القرآني عمدة ومنطلقاً للدراسات القرآنية في أوربا، وأصبحت أساساً تقوم عليه أخطر النتائج في مجال الدراسات الإسلامية، إذ كان أكبر متخصص في علوم القرآن في أوربا كلها.

***

الفصل الثاني

ظاهرة الوحي عند (نولدكه)

١- مفهوم الوحي:

سيقف القارئ الكريم في هذا البحث على ظاهرة الوحي، واختلاف أنواعه باختلاف أغراضه، والمعاني المختلفة الكثيرة التي تستعمل فيها هذه المفردة، وتطوّرها عبر المراحل والمنعطفات التاريخية عند الغرب بشكل عام، والأسباب التي دعت الغرب إلى التنكر للوحي، ثمّ العودة إلى الإيمان به، وما هي حقيقة رؤيتهم بالنسبة إلى الوحي الذي تلقاه نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله، ومدى ما لهذه الرؤية من الموضوعية والتجرّد.

أ- الوحي لغة واصطلاحاً:

الوحي في اللغة: الإشارة، والكتابة، والمكتوب، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفيّ، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك، وأوحى إليه: بعثه، وألهمه.. والوحي: السيد الكبير، والنار، والملك، والعجلة، والإسراع.. واستوحاه: حرّكه، ودعاه ليرسله[1].

---

١ ـ الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ج٢، ص١٧٥٨، دار إحياء التراث العربي.

الوحي في المصطلح الديني: ما ينزله الله على أنبيائه ورسله، قال محمد فريد وجدي: (إن الوحي لغة هو الإعلام في خفاء، ثمّ اصطلح على أنه تعليم الله لأنبيائه أمور الدين بواسطة الملائكة يرسلهم إليهم، وهو بهذا المعنى عام في أكثر الأديان السماوية ولا سيّما الأديان الإبراهيميّة الثلاثة الكبرى: اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام)[1].

هذا ولا بدّ لنا من الإشارة إلى أنّ القرآن قد استعمل مفردة الوحي في الكثير من المواطن، وأراد بها الكثير مما تقدّم من معانيها اللغوية المختلفة، وسنتعرض لبيانها في العنوان الآتي:

ب- استعمالات الوحي في القرآن الكريم:

لقد استعمل الوحي في القرآن في معانٍ مختلفة، منها:

الإيماء، كما في قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْـمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً**﴾ [2].

الإلهام الغريزي والفطري، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْـجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** ﴾[3].

---

١ ـ وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، ج١٠، ص٧٠٧، دائرة المعرفة، بيروت.

٢ ـ مريم: ١١.

٣ ـ النحل: ٦٨.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾[1].

الإعلام أو الخطور الباطني، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْـمُرْسَلِينَ ﴾[2].

الوساوس الشيطانيّة، كما في قوله تعالى ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَـمُشْرِكُونَ ﴾[3].

الوحي السماوي، الذي يتلقاه الرسل والأنبياء من مصدر غيبي بجامع الخفاء، وقد استعمل في القرآن بكثرة، وأضحى هو المراد في المصطلح الديني، ومنه على سبيل المثال دون الحصر قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[5].

وعليه يمكن القول باختصار:

إن الوحي الوارد في القرآن مضافاً إلى معانيه اللغوية، قد

---

١ ـ فصّلت: ١٢.

٢ ـ القصص: ٧.

٣ ـ الأنعام: ١٢١.

٤ ـ الشورى: ٧.

٥ ـ يوسف: ٣.

استعمل في معنى الهداية بكلا قسميها: العامة والخاصة.

ومن الهداية العامة جميع القوانين الطبيعية التي تحكم العالم، ويدلنا على ذلك مضافاً إلى ما تقدم في الإلهام الغريزي، قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾[١].

ومن الهداية الخاصة الوحي الذي ينزله الله تبارك وتعالى على بعض الأولياء والصالحين من عباده من الذين يحملون صفاءً خاصّاً وطهراً يؤهلهم لتقبل الوحي، وقد يكون الموحى إليه كبيراً أو صغيراً، رجلاً أو امرأة، وهذا ما تثبته الكثير من النصوص الدينية ومنها القرآن والسنة الشريفة، فالنصوص الدينية لا تأبى نزول الوحي من الله على الصالحين من عباده لمختلف الأغراض والغايات، ومنها تثبيت المؤمنين، والربط على قلوبهم، ونجدتهم في الساعات الحرجة، حتى وإن لم يكن هذا العبد رسولاً أو نبياً شريطة أن يكون ولياً لله طاهر السريرة، ومن ذلك ما حصل لأمّ موسى عليها السلام كما تقدم آنفاً، والسيدة مريم العذراء التي لم يقتصر الوحي بالنسبة لها على السماع، بل تعدّاه إلى أن يتمثل لها حامل الوحي بشخصه، وهو صريح قوله تعالى: ﴿ **فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيّاً** ﴾[٢].

---

١ ـ فصّلت: ١١.

٢ ـ مريم: ١٧.

ج- الفرق بين الوحي النبوي وغيره:

لقد أدت الغفلة عند بعض العلماء عن استعمال القرآن لكلمة الوحي في معنييه؛ اللغوي والاصطلاحي إلى الوقوع في الخلط والاشتباه، إذ ساوى بين الوحي الذي ينزل على الأنبياء، والوحي الذي ينزل على غيرهم من الصالحين والعرفاء، ممن هم دون الانبياء في القداسة. فأدّى هذا الالتباس بهم إلى اعتبار الوحي تجربة دينيّة يخوضها النبي على المستوى الشخصي، كما يحصل لسائر الأولياء والصالحين. في حين أنّ هناك بوناً شاسعاً بين الوحيين، ولبيان الفارق بين الوحي النازل على الأنبياء، والوحي النازل على سواهم، أخذ المتكلمون من المسلمين يطلقون على الوحي الأخير تسميته بالإلهام أو الخطور النفسي، تمييزاً له من الوحي النبوي. وهو وإن كان كذلك في غالبه ولكنه ليس دائميّاً بالضروة، إذ لم يكن الملك الذي تمثل للسيدة مريم العذراء عليها السلام خطوراً نفسيّاً أو إلهاماً؛ وعليه نقول: إن الوحي النازل على النبي يمتاز بأمور منها:

أولاً: إن النبي يعلم مصدر الوحي، وأنه من الله تبارك وتعالى، بخلاف الوحي النازل على غيره بداعي الطمأنينة فقط. فليس من الضروري لمن يستشعره من الأولياء والصالحين أن يعلم مصدره.

ثانياً: لما كان المراد من الوحي النازل على الأنبياء، هداية الناس، وإخراجهم من الضلالة إلى الهدى، وجب أن يكون الموحى

إليه معصوماً من الخطأ على مستوى التلقي والتبليغ، فالنبي في ذلك بمنزلة البوصلة التي تحدد الاتجاه الصحيح، وأي احتمال للخطأ أو اللبس في حقه يعدّ تغريراً ونقضاً للغرض، ومخالفاً للحكمة من بعثته وإرساله.

والعصمة التي يتمتع بها الأنبياء ليست عصمة قسرية، بحيث لايمتلك النبي بإزائها أيّ قوّة على مخالفتها، بل العصمة كما يتضح من تعريفها (ملكة)، والملكة لا تصدق إلا في موضع يصدق فيه الضد، ومن هنا لا يصح وصف الجدار بالعمى، بعد أن لم يكن من شأنه الإبصار. ويحصل الأنبياء على العصمة نتيجة لعلمهم التام، وانكشاف الحقائق أمام أعينهم، فيرون المنكرات وما هي عليه من القبح، والصالحات وما هي عليه من الجمال، فيقبل على الصالحات، ويُعرض عن المنكرات. ويدور نزول الوحي الرسالي على النبي مدار توفره على هذه العصمة وعدم انسلاخه منها، فلو انسلخ منها انسلخت النبوة منه وزالت عنه، وبذلك قال الله تعالى على نحو الشرطية غير المتحققة: **﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾**[1].

وقد أخبرنا القرآن عن شخصية (بلعم بن باعوراء) الذي وصل

---

١ ـ الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧.

بطاعته مقاماً نافس فيه الأنبياء؛ فأضحى مستجاب الدعوة، ولكنه في لحظة ضعف أخلد إلى الأرض، وتنصل عن بلوغ السماء؛ فزال عنه جميع ما ناله بالاستحقاقات السابقة، وعاد خاسراً خاسئاً حسيراً، قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ ﴾ [1].

وعليه يمكن القول:

إن الوحي باعتبار معانيه اللغوية والاصطلاحية مفهوم مشكك، يختلف في مراتبه شدّة وضعفاً بحسب سعة وتقبل الأفراد؛ فيبدأ من درجاته الضعيفة آخذاً منحىً صعودياً، حتى يبلغ الذروة عند الأنبياء والمرسلين، على الشروط المتقدّمة التي تتوفر فيهم دون سواهم.

٢- الحاجة إلى الوحي:

لقد افتتح ثيودور نولدكه كتابه هذا قائلاً: (لا يسعنا الإنكار أنّ كثيراً من الشعوب عرفت ما يشبه النبوة)[2]، ولا تعرف النبوّة إلا من خلال الوحي. وقد علمنا أنّ هناك من الوحي ما ينزل على الأنبياء والرسل، ومنه ما ينزل على الأولياء والصالحين. ولكلّ من الموردين حاجة تدعو إلى نزوله.

---

١ ـ الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.

٢ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٣.

أما بشأن الأولياء والصالحين، فقد تقدّم أن الغاية منه هي الشدّ على أيديهم، والربط على قلوبهم، وتعزيز مواقفهم في ساعات العسرة والشدة، والمواقف الحرجة، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾[1].

إلا أن هذه الغاية تبقى محدودة غير عامة الفائدة، ولا ترقى إلى الغاية والفائدة المترتبة على الوحي الذي ينزل على الأنبياء والمرسلين؛ فإن هذه الفائدة والغاية الأخيرة، غاية تقتضيها الفطرة وتدعو إليها الضرورة.

ولتوضيح ذلك نذكر مثالاً من واقعنا المعاصر، حيث التقدّم العلمي والثورة الصناعيّة والتكنولوجيّة؛ إذ لا نجد شركة أو مصنعاً، ينتج آلة معقدة، أو متوسطة التعقيد، أو ربما بسيطة أحياناً، إلا ويضمّ إليها كتيّباً أو (كاتالوجاً) يشرح مزاياها وتفاصيلها، والطريقة الصحيحة لاستعمالها والاستفادة منها، وكيفيّة التعامل معها. وإلا كانت مجرّد كتلة حديديّة عديمة الجدوى والفائدة. هذا في حين أن هذه الأجهزة مهما كانت دقيقة ومعقدة، فإنها لا ترقى في تعقيدها خلق الله تعالى للإنسان، وإنّ الله لم يخلق الإنسان فحسب، وإنما جعله كذلك في أحسن تقويم، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾[2]، ولم يكتف الله

---

١ ـ غافر: ٥١.

٢ ـ التين: ٤.

تعالى بذلك، بل قام بتكريمه على كل خلقه، إذ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1].

بعد هذا التمثيل المتعارف، نقول: إذا كانت هذه الحال بالنسبة إلى مثل هذه الأمور الهيّنة التي يجترحها الإنسان بعقله المحدود، ولا يخفى عليه ضرورة تزويد المستهلك بما يساعده على فهم طريقة الاستفادة منها واستعمالها، ويرشده إلى طرق صيانتها، فما ظنك بكائن هو معجزة في التعقيد مثل الإنسان، يخلقه الله تبارك وتعالى لحكمته، مريداً له الخير والصلاح، أيتركه وهو الرؤوف الرحيم تتقاذفه الأهواء والفتن، وتتنازعه قوى الشرّ والخير، دون أن يميّز له طريق الخير من الشر؟ أيتركه في ليلٍ بهيم دون ضياءٍ ينير له الصراط المستقيم؟!

وبعبارة أخرى:

إنّ الله خلق الإنسان وأودع فيه قطبين متنافرين: أحدهما يدعوه إلى الخير، والآخر يدعوه إلى الشر، وفي ذلك قال أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: (إنّ الله عز وجلّ ركّبَ في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّبَ في البهائم شهوة بلا عقل، وركّبَ في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خيرٌ من الملائكة، ومن غلبت

---

١ ـ الإسراء: ٧٠.

شهوته عقله، فهو شرٌّ من البهائم)[1]. ولذلك وجب على الله من باب اللطف بالعباد أن يدلهم إلى ما يرفعهم فوق مستوى الملائكة باختيارهم، وأن يرشدهم أيضاً إلى ما يُبعدهم عن الهبوط إلى مستوى البهائم أو دونها.

ولذلك نقول: إن الوحي الذي نزل على الأنبياء والمرسلين، هو (الكاتالوج) الذي يحدد للإنسان الطريق الذي عليه أن يسلكه ليصل إلى ما ينفعه ويجتنب ما يضره، ويبيّن له كيف يستثمر طاقاته ومواهبه التي ذللها الله له، وجعلها في خدمته، ليسمو فوق مستوى الملائكة، وذلك من طريق القانون والشريعة التي تؤسس له ما يضمن سعادته في الدنيا والآخرة. ومن هنا تبدو الحاجة إلى إنزال الوحي من الخالق على أنبيائه لهداية عباده، ولولا نزول الوحي والقوانين السماوية لماجت بحار الإنسانية ببعضها، وانهار الإنسان خلقياً واجتماعيّاً وسياسياً، ولسارت قافلة البشرية كما تسير حافلة يقودها سائق ثملٌ متهتك، يضرب بها كلّ حجر ومدر، ويخبط بها خبط عشواء، حتى تسقط به وبمن معه في الهاوية. وهذا ما أدركه حتى الماديون ودعاة الإلحاد أنفسهم؛ فانزلقت من بين أفواههم مقولة: (إذا لم يكن الله موجوداً، فعلينا أن نختلقه)!

١- الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٠٩- ٢١٠، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ط٣، ١٤١٦.

٣- تطور الوحي في المفهوم الغربي:

كان الغرب حتى ما قبل عصر النهضة يؤمن بالوحي الإلهي، شأنه في ذلك شأن سائر الأمم المتديّنة، ولذا نجد كتبهم في تلك الفترة مشحونة بأخبار الأنبياء، حتى جاء العلم الحديث الذي لم تتعامل معه الكنيسة بإيجابية، ووجدته مخالفاً للتعاليم الدينية؛ فواجهته بقسوة ووحشية قل نظيرها في التاريخ البشري، فاستحدثت محاكم التفتيش، وأُقيمت المحارق لإشعال النار في الكفار والمهرطقين بزعمها! ولم يكن نصيب الكتب العلمية من هذه الهمجيّة والإعصار البربري بأقل من نصيب مؤلفيها، إذ كانت تقام المحارق لالتهامها أيضاً، فأحدث هذا الأمر ردود فعل كبيرة في إنكار الوحي، لا تقل قسوة عن محاكم التفتيش نفسها؛ وفي ذلك يقول (محمد فريد وجدي):

«فلما جاء العلم الجديد بشكوكه ومادياته؛ ذهبت الفلسفة الغربيّة إلى أنّ مسألة الوحي من بقايا الخرافات القديمة، وغالت حتى أنكرت الخالق والروح معاً، وعللت ما ورد من الوحي في الكتب القديمة بأنه: إمّا اختلاقٌ من المتنبئة أنفسهم؛ لجذب الناس إليهم، وتسخيرهم لمشيئتهم. وإمّا إلى هذيانٍ مرضيّ يعتري بعض العصبيّين؛ فيخيّل إليهم أنهم يرون أشباحاً تكلمهم، وهم لا يرون في الواقع شيئاً»[1].

---

١ ـ وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، ج١٠، ص٧١٢ ـ ٧١٣، ط بيروت.

واستمر الوضع على هذه الشاكلة، حتى النصف الأول من القرن الميلادي التاسع عشر، حين ثبت للعلم التجريبي نفسه أن هناك أموراً روحية، لا سبيل إلى إنكارها، كما لا سبيل إلى فهمها. ولكنه رغم ذلك أخضعها لمجهر التحقيق؛ ليخرج بزعمه إلى نتائج يقينية لا تقبل التشكيك، رغم أنها ليست من الأمور التي يمكن إخضاعها لنفس ما تخضع له الأمور المادية، ولكنه مع ذلك وصل في حدود أدواته إلى نتائج لا بأس بها، وإن كانت لا ترقى إلى مستوى الوحي في حقيقته، وفي ذلك جاء في موسوعة (دائرة معارف القرن العشرين) ما يأتي:

«وقد راج هذا التعليل في العالم الغربي حتى صار مذهب العلم الرسمي. فلما ظهرت آية الأرواح في أمريكا سنة ١٨٤٦ للميلاد، وسرت منها إلى أوربا كلها، وأثبت الناس بدليلٍ محسوس وجود عالمٍ روحاني آهل بالعقول الكبيرة، والأفكار الثاقبة، وحييت مسألة الوحي بعد أن كانت في عداد الأضاليل القديمة، وأعاد العلماء البحث فيها على قاعدة العلم التجريبي المقرر، لا على أسلوب التقليد الديني، ولا من طريق الضرب في مهامه الخيالات؛ فتأدّوا إلى نتائج وإن كانت غير ما قرره علماء الدين الإسلامي، إلا أنها خطوة كبيرة في سبيل إثبات أمرٍ عظيمٍ كان قد أُحيلَ إلى عالم الأمور الخرافية. فتألفت في (لندرة) من سنة ١٨٨٢ ميلادية، جمعية دعيت باسم (جمعية المباحث النفسيّة)، تحت رئاسة الأستاذ

(سيد جويك) المدرّس بجامعة (كمبرج) وهو من أكبر العقول في إنجلترا، وعضوية الأستاذ السير (ألِيفر لوج)، والسير (وليم كروكس)، والأستاذين (فريدريك ميرس)، و(هودسون) المدرّسين بجامعة (كمبرج)، والأستاذ (وليم جيمس) المدرس بجامعة (هارفورد) بأمريكا، والأستاذ (هيزلوب) المدرس بجامعة (كولومبيا)، والعلماء الكبار: (غارني)، و(باريت)، و(بودمور)، والعلامة الكبير (شارل ريشيه)، و(كاميل فلامريون)، وعدد كبير غيرهم من كبار علماء الأرض، وكان الغرض من هذه الجمعيّة، البتّ في المسألة الروحية، وتحقيق حوادثها بأسلوب النقد الصارم، والحكم بقبولها نهائياً في العلم إن كانت حقيقية، أو تقرير إبعادها عن العلم والفلسفة إن كانت من الأمور الوهمية؛ فمضى على هذه الجمعيّة اليوم خمسٌ وأربعون سنة، حققت خلالها أُلوفاً من الحوادث الروحيّة، وعملت من التجارب في النفس وقواها ما لا يدرك، لولا أنه مدوّن في محاضر تلك الجمعية في نحو خمسين مجلداً ضخماً. فكان من ثمرات جهودها إثبات شخصيّة ثانية للإنسان، وأننا أحياءٌ مدرِكون في حياتنا الحاضرة لا بكلّ قوى الروح التي فينا بل بجزءٍ من تلك القوى سمحت لنا بها حواسّنا الخمس القاصرة، ولكن لنا فوق ما تعطيه لنا حواسنا هذه، حياة أرقى من هذه الحياة،

لاتظهر بشيءٍ من جلالها إلا إذا تعطلت فينا هذه الشخصيّة العادية بالنوم العادي أو النوم الصناعي المغناطيسي. وقد جرّبوا ذلك على المنوّمين نوماً مغناطيسياً؛ فوجدوا أنّ النائم يظهرُ بمظهرٍ من الحياة الروحيّة والعلم، لا يكونان له وهو يقظان؛ فيعلم الغيب، ويخبر عن البعيدين، ويُبصر ويسمع، ويحسّ بغير حواسّه الجسمية، ويكون وهو في تلك الحالة على جانبٍ كبيرٍ من التعقل والإدراك، قالوا: أو تكون هذه حالة الإنسان في نومه العادي أيضاً، والدليل على ذلك، ما يأتيه المصابون بمرض الانتقال النومي (السومنامبوليسم)[١] من الأفعال المعجزة، والمدارك السامية... وقالوا: إنّ هذه الشخصيّة الباطنة أصبحت مدركة بالحسّ؛ فإن ظهور النائم نوماً مغناطيسياً بهذا المظهر من العقل الراجح، والفكر الثاقب، والنظر السديد، وسريانه في سائر النفوس، واكتشافه لخفايا الأمور، وجولانه في الأقطار البعيدة، بينما يكون هو جاهلاً غبياً في حالته العادية، أدلّ دليلٍ على أن للإنسان شخصيّة تحجبها هذه الحياة الجسدية، ولا تظهر إلا إذا وقع جسمه في نومٍ طبيعيّ أو صناعيّ. ثمّ إنّ الرؤى الصحيحة التي تقع كفلق الصبح،

---

١ ـ وهو المصطلح عليه في اللغة العربية بـ(السرنمة)، بمعنى السير أثناء النوم. الباحث.

ويدرك بها الإنسانُ أُموراً غيبيّة، أو يحلّ فيها مسائل عويصة لم يحلها وهو صاحٍ، أو انتقاله وهو نائم، وإتيانه أعمالاً لا يستطيع عملها وهو يقظ، يدلّ كذلك على أنّ له شخصيّة باطنة أرقى من شخصيّته العادية»[١].

هذا آخر ما استقرّ عليه مفهوم الوحي عند الغربيين ومنهم الأستاذ (ثيودور نولدكه) صاحب الكتاب مورد البحث، فالوحي عندهم، لا يكون بنزول ملك من عند الله على من يجتبيه من رسله مباشرة، أو بتوسيط ملك، بل هو عبارة عن تجليات شخصيّاتهم الباطنية، وقد عبّر (ثيودور نولدكه) عن هذا الاعتقاد قائلاً:

«جوهر النبي يقوم على تشبّع روحه من فكرةٍ دينيّةٍ ما، تسيطر عليه أخيراً؛ فيتراءى له أنه مدفوعٌ بقوّةٍ إلهيةٍ ليبلّغ مَن حوله من الناس تلك الفكرة على أنها حقيقة آتية من الله»[٢].

وبهذه النظرية التي أثبتوها بالتجارب المادية، عمدوا إلى حلّ ما صادفوه في بعض الكتب السماويّة مما يتناقض والعلم الحديث، فإنهم لم يذهبوا إلى وقوع التحريف في تلكم الكتب، وإنما أرجعوا ذلك إلى

---

١ ـ وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، ج١٠، ص٧١٣ ـ ٧١٥، دائرة المعرفة، بيروت.

٢ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٣.

الشخصية الباطنة لكلّ نبي، فإنها تؤتي صاحبها على مقدار ما تتجلى فيه، وعلى مستوى استعداده لتقبل آثارها، ولذلك قد تختلط على النبي المعارفُ الصحيحة بالأوهام الباطلة التي هي نتاج شخصيّته العادية[1].

٤- الوحي الذي تلقاه النبي الأكرم ﷺ:

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[2]. وبذلك فقد حصر الله وحيه إلى البشر بثلاثة أنحاء. إلا أنّ هذا لا يعني عدم تفرّع كل واحدٍ من هذه الأنحاء إلى أقسام أخرى، كأن تكون الرؤيا أو سماع الصوت في اليقظة من دون رؤية المتكلم داخلين في قوله: (من وراء حجاب). أو أن يظهر جبرائيل على حقيقته، أو متخذاً صورة إنسيّة داخلاً تحت قوله: (أو يرسل رسولاً). ويمكن استعراض أنحاء الوحي المتصورة على النحو الآتي:

١ ـ كتابة في لوح.

٢ ـ جبرائيل على صورته الحقيقية.

٣ ـ جبرائيل على هيئة إنسان.

---

١ ـ وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، ج١٠، ص٧٢٠، دائرة المعرفة، بيروت.

٢ ـ الشورى: ٥١.

٤ ـ سماع صوت جبرائيل دون رؤيته.

٥ ـ نفث الملك في الروع، أو إلقاؤه في القلب.

٦ ـ إلقاء الله للوحي على قلب النبي مباشرة.

٧ ـ تكلم الله من وراء حجاب.

٨ ـ الرؤيا الصادقة.

وليست جميع هذه الأنحاء قد نزل بها الوحي القرآني ضرورة، وإنما المتحقق منها هو تنزيل الوحي بواسطة جبرائيل أو تنزيله من قبل الله مباشرة، ولعل أكثر الوحي القرآني كان ينزل على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من قبل الله مباشرة، وكان هذا أشدّ أنواع الوحي عليه، حيث كانت تأخذه فيه شبه الغشية، مع جلال ووقار يسري إلى الصحابة، إذ يشهدونه على تلك الحالة، ويسمعون دوياً صادراً عنه كدويّ النحل على ما رووه عنه بأنفسهم، وكانت تفجأه هذه الظاهرة في مختلف الحالات، فقد يكون فيها راكباً على راحلته، أو وهو على المنبر، أو في بيته، أو بين أصحابه، أو في الليل أو النهار، أو في السفر أو الحضر.

وقد أشار القرآن إلى هذه الصورة من الوحي بقوله: ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً** ﴾[1].

---

١ ـ المزمل: ٥.

وقد عبر عنها الإمام الصادق عليه السلام قائلاً: «كان ذلك إذا جاءه الوحي وليس بينه وبين الله ملك؛ فكانت تصيبه تلك السبتة، ويغشاه ما يغشاه لثقل الوحي عليه»[١].

وروي عن عائشة في وصف هذه الظاهرة: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإنّ جبينه ليتفصد عرقاً)[٢].

وقال ابن شهراشوب: (وروي أنه كان إذا نزل عليه الوحي نكس رأسه، ونكس أصحابه رؤوسهم، ومنه يقال بُرَحاء[٣] الوحي)[٤].

---

١ ـ البرقي، أحمد، المحاسن، ج٢، ص٣٣٨، دار الكتب الإسلامية، ط١، طهران، ١٣٣٠ق.

٢ ـ البخاري، محمد، صحيح البخاري، ج١، ص٢، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١.

٣ ـ البرَحا: الشدّة والمشقة. وخصّ بعضهم به شدّة الحمّى، وبُرَحايا في هذا المعنى. وبُرَحاء الحمّى وغيرها: شدّة الأذى. ويقال للمحموم الشديد الحمّى: أصابته البُرَحاءُ. وقال الأصمعي: إذا تمدّد المحموم للحمّى، فذلك المطوّى. فإذا ثابَ عليها، فهيَ الرُّخصاء. فإذا اشتدّت الحمّى، فهيَ البُرَحاء. وفي الحديث: برَّحتْ بيَ الحمّى، أي: أصابني منها البُرَحاء، وهي شدّتها. وفي حديث الإفك: (فإخذه البُرَحاء)، وهو شدّة الكرب من ثِقَل الوحي. ابن منظور الإفريقي، جمال الدين، لسان العرب، ج٢، ص٤١٠، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٩٩٠.

٤ ـ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٦، ح١٣، دار إحياء التراث العربي، ط٣، بيروت، ١٩٨٣.

ولأجل هذه الحالة التي كانت تعتري النبي عند نزول الوحي المباشر عليه، كان المشركون يتهمونه بالجنون، ويقولون: (إن له تابعاً من الجن)! ولم تقتصر هذه التهمة على المشركين من عرب الجاهلية، فهناك من المستشرقين من تشدّق بهذه التهمة، متهماً الرسول بتعرّضه لنوبات من الصرع، في حين أن الحالة التي كانت تعتريه بحسب الروايات لا تنطبق على التعريف الطبّي لداء الصرع، فإن أعراض الصرع تكون مصحوبة بتشنجات عضلية واهتزازات تطال جميع الجسم، مع تخشب الأطراف مما يستدعي تدخل الحاضرين كي لا يلحق المريض بنفسه الأذى؛ فإذا انتهت الأزمة لا يكون المريض مدركاً لما جرى عليه[1].

لذلك أنكر بعض المستشرقين ومنهم (ثيودور نولدكه) أن يكون النبي الأكرم قد عانى من هذا المرض، فقال:

«حيث أن فقدان الذاكرة هو أحد عوارض داء الصرع الفعلي، فمن الضروري أن نصف ما كان يغشاه بحالة من الاضطراب النفسي الشديد. ويقال إن محمداً كان يعاني منها منذ حداثته»[2].

---

١ ـ أنظر: راميار، محمود، تاريخ القرآن، ص١١٠، انتشارات أمير كبير، ط٤، طهران، ١٣٧٩ش.

٢ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٢٣ ـ ٢٤.

وبذلك يكون نولدكه أخف وطأة من غيره في اتهام النبي الأكرمﷺ، ونحن إذ نشهد له بهذه البادرة نصف الطيّبة، نترك الإجابة عن نصفها السيئ إلى الكاتب الفرنسي المتتبع (درمنغهام)، الذي قال في كتابه (محمّد والتراث الإسلامي):

«كانت حياة محمد إلى ما قبل البعثة طبيعية ومعتدلة للغاية، وقد استمر الوضع على هذه الحالة مع غض النظر عن لحظات الوحي.. فلم تكن مكاشفاته معلولة للمرض، بل الأمر على العكس من ذلك تماماً، حيث كانت تلك الحالة، والأعراض الغريبة تعتريه بسبب مكاشفاته والوحي إليه»[1].

رأي نولدكه في الوحي الذي تلقاه النبي الأكرم ﷺ:

عمد نولدكه إلى بيان الصور المذكورة للوحي في كتاب (الإتقان) و(المواهب اللدنية) فبلغ بها إلى عشر صور، وأضاف في الهامش صورتين أخريين قائلاً: (أيضاً مثل امرأة بصورة عائشة، وحتى بشكل بعير يعض)[2]!

---

١ ـ نقلاً عن: راميار، محمود، تاريخ القرآن، ص١١١، انتشارات أمير كبير، ط٤، طهران، ١٣٧٩ش.

٢ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٢٢.

علماً أنّ هذا البعير الذي يعض! قد جاء ذكره في سيرة ابن هشام كهيئةٍ تمثلت لأبي جهل حين همّ بقتل رسول الله ﷺ، ولم يكن من الوحي في شيء، وإليك تفصيل الرواية التي ذكرها ابن هشام تحت عنوان: (ما حدث لأبي جهل حين همّ بإلقاء الحجر على الرسول)، حيث قال:

«فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف... فقام رسول الله ﷺ يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهلٍ فاعل، فلما سجد رسول الله احتمل أبو جهل الحجر ثمّ أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً ممتقعاً لونهُ مرعوباً قد يَبِست يداه على الحجر، حتى قذف الحجر من يده. وقامت إليه رجالٌ من قريش؛ فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟! قال: قمت إليه لأفعلَ به ما قلتُ لكم البارحة، فلما دنوتُ منه عرض لي دونه فحلٌ من الإبل، لا والله ما رأيتُ مثلَ هامته، ولا مثلَ قصَرته، ولا أنيابه لفحلٍ قطّ، فهمّ بي أن يأكلني»[1].

وواضح أنّ هذا ليس من الوحي الذي ينزل على النبي الأكرم في شيء، وإنما هو مجرد عقوبة وتخويف لأبي جهل، وقد عقب على

١ ـ عبد الملك، ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص٢٣١ ـ ٢٣٢، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٤.

ذلك ابن هشام في سيرته كما هي سيرته بذكر تعليق لابن إسحاق ـ إذ أن سيرة الأول تهذيب لسيرة الثاني ـ قوله: (ذُكر لي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ذلك جبريل) على صيغة المبني للمجهول، دون تصريح بمن ذكر له ذلك. مضافاً إلى أن جبريل لم يكن هو الوحي، وإنما قد يؤمر بحمل الوحي من قبل الله أحياناً.

ورغم ميل (نولدكه) إلى ترجيح نزول الوحي في غالبه إلى الحالة التي تكون مصحوبة ببرحاء الوحي، إلا أنه حاول تفسير الوحي بمجرّد الأحلام، وقد أطنب في تبرير ذلك ـ خلافاً لما هو المعهود من عادته في إلقاء الكلام على إجماله ـ بتقديم تفسيرات ومؤيدات هي بحاجة إلى إثبات في نفسها، ولعل ذلك منه كان لحاجة في نفسه! وإليك نص كلماته:

«هذا الوضع الجسدي والنفسي المضطرب إلى درجة المرض يفسّر الأحلام والرؤى التي رفعته فوق مستوى العلاقات البشرية المعتادة. ولعل أشهر ما يذكر في هذا الصدد الإسراء أو المعراج، الذي كان مجرّد حلم، كما سنبرهن أدناه[1].. ولا يجوز أن نغفل عن أنّ معظم الوحي حدث ليلاً كما يبدو، حين تكون النفس أكثر

---

١ ـ يجدر بنا تنبيه القارئ إلى أن (نولدكه) لم يفِ بوعده؛ فلم يبرهن على كون الإسراء والمعراج مجرد حلم، وما سيذكره في صفحة ١٢٠ ليس سوى تكرار للمدّعى دون البرهنة عليه. الباحث.

قابلية لاستقبال التخيلات والانطباعات النفسية عما هي عليه في وضح النهار. ونحن نعلم بالتأكيد أن محمداً كثيراً ما قضى الليل متهجّداً، وأنه كثيراً ما صام. وتشتدّ بالصيام القدرة على مشاهدة الرؤى كما اكتشفت الفيزيولوجيا الحديثة مؤخراً»[١].

ومع ذلك فإن (نولدكه) لم يقدم لنا شاهداً على نزول سورة عليه في المنام سوى ما ذكره في الهامش رقم ٦٦ على الصفحة الخامسة والعشرين حيث قال: (هذا مؤكد بالنسبة لسورة المزمّل ومحتمل بالنسبة لسورة المدّثر)، ولم يوضح وجه التأكد هناك والاحتمال هنا. ونحن نقول في خصوص هذين الشاهدين: ليس كل من تدثر أو تزمل يعني أنه نام بالضرورة، فقد يتزمل الرجل أو يتدثر لمجرّد برد أصابه؛ فمع ذلك هل يعني نزول الوحي في هذه الحالة أن يكون مجرد حلم؟!

ونحن لا ننكر أن يكون بعض الوحي القرآني قد رآه النبي في الرؤيا، التي تكون دائماً صادقة كفلق الصبح، ولكننا ننكر أن يكون ذلك غالبياً، مع إيماننا بأن جميع رؤى الأنبياء وحي، كما روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: (رؤيا الأنبياء وحي)[٢]. وعن النبي

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٢٥.

٢ ـ الطوسي، محمد بن حسن، الأمالي، ص٣٣٨، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، قم المقدّسة، ١٤١٤ق.

الأكرم صلى الله عليه وآله: (تنام عيني ولا ينام قلبي)[1].

٥- الأسباب الداعية إلى إنكار الوحي الإلهي:

نتقل من الأسباب التي ذكرت لإنكار الوحي إشكالين، أحدهما موجّه لجميع أنواع الوحي الرسالي، والثاني يختص بالقرآن بوصفه وحياً سماوياً نزل على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، مع الإجابة عن كلا الإشكالين، وهما كالآتي:

الأول: الاختلاف الماهوي بين العالم العلوي والعالم السفلي، فالأول: متشعشع روحي لطيف. والثاني: متكدّر ماديّ كثيف، ولا واسطة بين العالمين، وليست هناك من آصرةٍ تربط أحد العالمين بالآخر. وهي شبهة من يرى في عالم الدنيا بما فيه الإنسان عالماً مادياً بحتاً، لا تناسب بينه وبين عالم الملكوت الأعلى.

ولكننا عرفنا فيما تقدّم أن الإنسان ليس وجوداً مادياً محضاً، بل هو برزخ بين المادة والروح، وقد ثبت ذلك حتى في مختبرات العلوم التجريبية الحديثة على ما مرّ بيانه قبل قليل في العنوان السابق، فقد أثبت علماء الغرب في مختلف الإختصاصات أن للإنسان شخصيّة باطنة معقدة وراء شخصيته العادية. وبعد ذلك لا يبقى هناك من مجالٍ

---

١ ـ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٨٤، ص٢٧، دار إحياء التراث العربي، ط٣، بيروت، ١٩٨٣.

لإنكار الوحي السماوي على أساس هذه الشبهة[١].

الثاني: العجز عن تفسير بعض آيات القرآن المتعلقة بالنجوم، والسماوات السبع، ورجوم الشياطين، وأمثال ذلك مما يتصوّر معه عدم مواكبته للعلم الحديث؛ فقدموا العلم الحديث على القرآن؛ لأن العلم عندهم معصوم من الخطأ! في حين أن هذه النظرة القاصرة، شبيهة إلى حدّ بعيد بذلك الأحول الذي يرى ميلاً في جدار قصرٍ منيف؛ فيدعوه توهمه وقصر نظره إلى الحكم بضرورة تقويض القصر من أسسه وأركانه، بحجّة أنه آيل للسقوط.

هذا في حين أننا نجد تقدم القرآن على العلم الحديث في الكثير من مواطنه، ومنها إثبات (حركة الأرض)، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[٢]. والآية لاتتحدث عن أشراط الساعة كما توهم بعضهم؛ لأنها في معرض الحديث عن بديع الصنع والإتقان. هذا ولم تثبت العلومُ الحديثة حركة الأرض إلا بعد مضي ألف سنة على نزول القرآن الكريم[٣]. وكذلك عملية تلقيح النبات بفعل الرياح،

---

١ ـ راجع: معرفت، محمد هادي، تلخيص التمهيد، الجزء الأول، ص١٥، مؤسسة النشر الإسلامي، ط٣، ١٤١٨.

٢ ـ النمل: ٨٨.

٣ ـ راجع: مكارم الشيرازي، ناصر، آيينه انديشه، العدد الثامن، بتاريخ: ١٣٨٧، نقلاً عن موقع: (تابناك)

واثبات قانون الزوجية العام، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2]. وعليه لا يبدو من الإنصاف إنكار الوحي لمجرّد توهّم عدم إمكان تفسير بعض الآيات في ضوء العلم الحديث.

يضاف إلى ذلك أنكم إذا عثرتم على كتاب، وكان مفعماً بالمفاهيم الصحيحة والمعاني الحكمية، وواجهتم فيه بعض العبارات التي عجزتم عن فهم محتواها، لا بد وأن تحتملوا أن يكون لدى المؤلف ما يفسرها ويجعلها منسجمة مع العقل والمنطق، لا أن تسارعوا إلى رميه بالجنون وما إلى ذلك.

كيف آمن (نولدكه) بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله ؟

ذكرنا أنّ الوحي لم يسر على وتيرة واحدة في العالم الغربي، فقد تغيرت النظرة إليه طردياً مع التغيرات التي عصفت بهذا العالم إبتداءً من القرون الوسطى، إلى عصر النهضة، ثم الثورة الصناعية، وصولاً إلى معجزة الروح، والظاهرة الأرواحية التي سادت المجتمعات الغربية في نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر للميلاد، فقد ثبت علمياً أن للإنسان شخصيّة باطنة وراء شخصيّته الظاهرة، وآمنوا بهذه الشخصيّة.

---

١ ـ الحجر: ٢٢.

٢ ـ الذاريات: ٤٩.

إلا أنهم على رغم إيمانهم هذا، أنكروا على هذه الشخصية أن تتصل بما وراء الغيب، دون أن يقدموا دليلاً على توقفهم عند هذا الحد، اللهم إلا أن نعزو ذلك إلى انقطاع عهد النبوات منذ التحق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى، فانقطع الوحي السماوي، واستمرّ على مستوى ما يصطلح عليه بالإلهام، الذي لا يصل بصاحبه إلى مستوى الوحي، والاتصال بالغيب، وفقاً لمعناه المصطلح.

من هنا فقد نسج (نولدكه) بوصفه واحداً من أولئك الغربيين على هذا المنوال؛ فآمن بنبوّة رسول الله صلى الله عليه وآله على هذه الطريقة الخاصة؛ فقال:

«لابدّ لنا من الاعتراف بأن محمداً كان بالحقيقة نبياً، إذا محّصنا شخصيّته بتجرّدٍ وتمعّن، وفهمنا النبوّة فهماً صحيحاً»[1].

من حقنا أن نتساءل: ما هو الفهم الصحيح للنبوة عند (نولدكه)؟ وقد أجاب عن ذلك قائلاً:

«جوهر النبي يقوم على تشبّع روحه من فكرة دينيّة ما، تسيطر عليه أخيراً؛ فيتراءى له أنه مدفوع بقوة إلهية، ليبلغ مَن حوله من الناس تلك الفكرة على أنها حقيقة آتية من الله»[2].

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٤.

٢ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٣.

إذن مجرّد أن يتراءى لشخصٍ ما أنه كذلك، وأن تستحوذ عليه الفكرة ويتحمّس لها، يجعل منه نبياً، وبذلك تكون النبوّة عند (نولدكه) وأضرابه مفهوماً هلاميّاً لا يمكن تحديده ضمن إطار محدد؛ إذ أن المعيار السطحي الذي يضعه (نولدكه) لفهم النبوّة يفتح الباب على مصراعيه أمام كلّ من هبّ ودبّ للتشرف بدخوله دون حسيب أو رقيب، فما أسهله من طريق على عباقرة الاحتيال أن يدّعوا استحواذ فكرةٍ ما عليهم، مع التظاهر بالخير والصلاح، ورشّ بعض توابل الاندفاع والحماس التي قد تصل إلى حدّ قطع النفس، ليصبح المحتال نبياً، وتاريخ الإنسانية مفعم بهؤلاء الأدعياء، وما أكثر المتنبّئين!

والغريب أن هذا ما يلتزم به (نولدكه) على المستوى العملي، فالنبوة عنده ثوبٌ فضفاضٌ يتسع لكلّ من يتقمّصه ويرتديه، حتى لو كان مهرّجاً مثل (مسيلمة الكذاب)[1]، و(طليحة)، والمتنبئة (سجاح) التي انتهت جولتها الدينية مع تجربة (مسيلمة) إلى مشروع خيري وعاطفي، تمّ تتويجه أخيراً بحفلة زفاف!

لسنا ندري وسط هذه الفوضى كيف تسنى لـ (نولدكه) وفقاً

---

١ ـ مسيلمة الكذاب (توفي عام: ٦٣٣م): وفد بعد فتح مكة على النبي الأكرم مع غيره من بني حنيفة. وما أن انقلب بنو حنيفة إلى ديارهم حتى ادعى النبوّة! وراح يُعارض القرآن الكريم بمقطعات سخيفة. قتل في حروب الردّة. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٧، ص٨٤.

للموازين المادية ـ في الأقل ـ التي يؤمن بها، أن يساوي بين نبي حقق كل هذه الإنجازات الجبارة حتى أضحى دينه ثاني أكبر ديانتين في العالم، وبين متطفل ماتت دعوته قبل أن تبصر النور؛ فلم يمض طويل وقتٍ على محاكاته شخصية الأنبياء، حتى غدت أقواله ومواقفه أُضحوكة تملأ الأفواه، ونادرة للتفكه في الأوساط والأندية؟!

هذا وإنّ المعيار الذي رسمه (نولدكه) لتحديد معالم النبوّة لم يؤدّ إلى رفع المغمورين من الأدعياء، بمقدار ما أدّى إلى الهبوط بالأنبياء الحقيقيين، وإنزالهم من علياء مراتبهم التي رتبهم الله عليها، وجعلهم في مستوى المشعوذين والمهرّجين.

الطريقة التي تميّز النبيّ من المتنبّئ:

إنّ مجرّد إدعاء شخصٍ أنه نبيّ مع تحمّسه لهذا الإدعاء لا يجعل منه نبياً بالضرورة، فقد يكون نبياً فيما بينه وبين الله، وقد لا يكون كذلك، فلابد إذن لكل نبيّ صادق في ما يدّعيه من النبوّة، أن يأتي على مدّعاه بعلامةٍ وحجّةٍ وآيةٍ تثبت صدقه، وتلك العلامة هي المعجزة، وذلك بأن يأتي بأمر يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله.

وقد قال السيد الخوئي ﷺ في بيان ذلك:

«إن السفارة الإلهية من المناصب العظيمة التي يكثر لها المدّعون، ويرغب في الحصول عليها الراغبون،

ونتيجة هذا أن يشتبه الصادق بالكاذب، ويختلط المضلّ بالهادي، وإذن فلابدّ لمدّعي السفارة أن يقيم شاهداً واضحاً يدلّ على صدقه في الدعوى، وأمانته في التبليغ، ولا يكون هذا الشاهد من الأفعال العادية التي يمكن لغيره أن يأتي بنظيرها، فينحصر الطريق بما يخرق النواميس الطبيعية. وإنما يكون الإعجاز دليلاً على صدق المدعي؛ لأنّ المعجز فيه خرق للنواميس الطبيعية، فلا يمكن أن يقع [الخارق] من أحدٍ إلا بعناية من الله تعالى وإقدارٍ منه، فلو كان مدّعي النبوة كاذباً في دعواه، كان إقداره على المعجز من قبل الله تعالى إغراءً بالجهل وإشادة بالباطل، وذلك محالٌ على الحكيم تعالى، فإذا ظهرت المعجزة على يده كانت دالة على صدقه»[١].

هكذا يمتاز النبي الصادق من غيره من أمثال (مسيلمة الكذاب) و(طليحة الأسدي)، أما طريقة (نولدكه) فتتسع لأفواج من الأنبياء يدخلون على الإنسانية من أوسع أبوابها دون حسيب أو رقيب، وبهذه الطريقة سوف لا يستقر حجرٌ فوق حجر!

وغالباً ما تكون المعجزة شبيهة بأمر مألوف عند الناس الذين بعث النبيّ إليهم، فمعجزة النبي موسى عليه السلام هي اليد البيضاء، وانقلاب

---

١ ـ الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، ص٣٧ ـ ٣٨، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي، قم المقدسة، ٢٠٠٧.

العصا إلى أفعى، وقد بلغ السحر الغاية في زمانه. وكانت معجزة النبي عيسى عليه السلام هي إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وقد بلغ الطبّ ذروته في عصره. وكانت معجزة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله القرآن الكريم، وقد بعث في أمة تشكل الفصاحة خبز يومها، وكان الشعر ديوانها، فكان أبلغ في التحدّي.

يبقى هناك ما يميّز النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من غيره، ذاك أن جميع معاجز الأنبياء جاءت مستقلة عن الوحي، وإثبات صدق الوحي بشكل منفصل، أما معجزة النبي فكانت هي القرآن نفسه؛ فكان القرآن هو الوحي وهو المعجزة، وبذلك كان النبي صلى الله عليه وآله من الناحية العملية يأتي بوحيه ودليله معه.

مائز ثانٍ يثبت لمعجزة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو أن معاجز الأنبياء تنتهي بانتهاء اجتراحها، وأما معجزة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بوصفه خاتم الأنبياء، وكونه مبعوثاً لكافة الناس، فهي معجزة خالدة وباقية ما بقي الناس، ولذلك ضمن الله حفظها من التحريف، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾[١].

مائز ثالث للقرآن هو أنه الكتاب الوحيد الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله كلاماً، بخلاف سائر الكتب السماوية التي نزلت مكتوبة على ألواح، وهذا لا ينافي أن يكون القرآن مكتوباً في لوح محفوظ أيضاً.

---

١ ـ الحجر: ٩.

مائز آخر للقرآن الكريم، وهو أنه نزل على طريقتين، هما: الإنزال والتنزيل، فقد نزل في الأولى جملة واحدة، على ما سيأتي ذكره في بداية الفصل الثالث من هذه الدراسة، وفي الثانية نزل مرتباً على ما تقتضيه الحاجة، وتدعو إليه المناسبة. وقد ذكر السيوطي هذا المائز في (الإتقان) عن أبي شامة في (المرشد الوجيز)، حيث يقول: (لولا أنّ الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجّماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكنّ الله باين بينه وبينها، فجعل له الأمرين: أنزله جملة، ثمّ أنزله مفرّقاً، تشريفاً للمنزل عليه)[1].

٦- مذهب (نولدكه) في الإعجاز القرآني:

لقد ذهب (ثيودور نولدكه) فيما يتعلق بالإعجاز القرآني مذهباً يفرغ المعجزة من محتواها، بل ويفسّرها بما لا يُمكن أن ينسجم مع المفهوم الذي يُراد من المعجزة، إذ يفسرها بما يستحيل صدوره عقلاً، وذلك حين يقول:

«إذا تفحّصنا تحدّي محمّد عن كتب، اكتشفنا أنه لم يتحدّ خصومه أن يأتوا بما يضاهي القرآن من ناحية شعريّة أو خطابية [بلاغية]، بل بما يُضاهيه من حيث الجوهر [عقائديّة]. وهذا ما لم يكن في وسع أعدائه بطبيعة الحال.

---

١ ـ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص١٣٢، دار ابن كثير، ط٣، بيروت، ١٩٩٦.

فكيف كان لهم أن يدافعوا عن الإيمان القديم بالآلهة، وكانوا على اقتناع شديد به، بالطريقة نفسها التي دافع فيها ذاك عن وحدة الله وما يتعلق بها من عقائد؟»[1].

في حين أنّ المعجزة تعني أن يأتي النبي بخارق يستحيل على الآخرين أن يأتوا بمثله؛ بغية إثبات صدقه، على أن يقترن فعله هذا بالتحدي، ولتوضيح ذلك نقول: إنّ الخارق إما أن يكون محالاً عقلياً، أو محالاً علمياً، أو محالاً عرفياً، والمعجزة تتعلق بالأخيرين دون الأول، بيان ذلك:

إنّ المحال العقلي، من قبيل: اجتماع النقيضين، وثبوت الزوجية للثلاثة، ورسم مربع له ثلاث زوايا، وقلنا إنّ هذا النوع لا تتعلق به المعجزة لاستحالته الذاتية، فهو ممتنع على التصوّر فضلاً عن التحقق. ونحن إذا رجعنا إلى كلام (نولدكه) لوجدنا أنه يرجع إلى هذا النوع من المحال؛ وعليه لا يمكن أن يكون ما قاله صحيحاً، إذ لا يمكن للمشركين أن يأتوا بما هو توحيدي، مع بقائهم على الشرك، للتنافي الذاتي بين الشرك والتوحيد، نظير التنافي بين الزوجية والثلاثة، وهذا يفسر أيضاً إشكالنا على النصارى حين ذهبوا إلى التثليث، مع إدعائهم التوحيد؛ وعليه لا يمكن أن يكون النبي قد تحداهم بهذا النوع من التحدي المحال في ذاته.

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٥٠ ـ ٥١.

والمحال العلمي، من قبيل: تخلف المعلول عن علته الطبيعية، كولادة عيسى عليه السلام من غير أب، وعدم احتراق إبراهيم عليه السلام بالنار، وتحوّل عصا موسى عليه السلام إلى ثعبان.

والمحال العرفي، من قبيل: إبراء الأكمه والأبرص بإمرار اليد على موضع المرض، وشفاء الأعمى بوضع شيءٍ من الريق على عينيه مثلاً.

والمعجزة تتعلق بواحد من هذين المحالين الأخيرين، وهما المحال العلمي والعرفي. ولكي نفهم الأسلوب الإعجازي ونوع التحدي الذي جاء به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لا يسعنا أن نتجاوز ما فهمه المعاصرون للنبي الأكرم من هذا التحدي، فقد كانوا هم المخاطبين بهذا التحدي بشكل مباشر، مع إيماننا بأنّ القرآن بوصفه معجزة خالدة لا يزال متحدياً وسيبقى كذلك إلى آخر يوم في الدنيا، إلا أن فهم الجيل الأوّل يشكل بالنسبة لنا قرينة على حقيقة المراد من هذا التحدّي.

ونحن إذا راجعنا النصوص التاريخيّة المأثورة لنا عن عصر النبوة لوجدنا أن المخاطبين بالرسالة آنذاك قد فهموا أن هذا التحدّي يعني الجانب البلاغي والبياني من القرآن الكريم، لنا أن نتصوّر وقوع اثنين أو ثلاثة أو حتى عشرة في خطأ من هذا القبيل ونعزو ذلك إلى جهلهم دون محذور. أما أن يتفق الجميع على الوقوع في نفس الخطأ، فهذا ما لا يمكن لنا أن نهضمه؛ لأن عدم الفهم سيعود في هذه الحالة إلى قصور في التعبير القرآني وهو محال.

وهب أننا هضمنا عدم فهم الجميع، ولكن في هذه الحالة يتعيّن على النبيﷺ تنبيههم إلى خطئهم، ويبيّن لهم أن مراده من التحدي هذا الجانب دون ذاك، بغية تحقيق غرضه من التحدي. مع أنّ هذا لم يحصل أيضاً، فقد أقرّهم النبي ﷺ على فهمهم، إذن لابدّ أن يكون فهمهم صحيحاً، وأن المراد من التحدي هو الإعجاز البلاغي والبياني، أو أن الإعجاز البلاغي هو أحد وجوه الإعجاز القرآني. وحتى الآن لم تنجح أي محاولة في هذا المجال، وقد مضى على زمن التحدي أكثر من أربعة عشر قرناً.

قد نرى لكلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو أمير البيان ما يشبهه في أساليب عبد الحميد الكاتب، أو فن المقامات كمقامات بديع الزمان الهمداني والحريري رغم الصنعة البادية عليهما، ولكن يمكن تسميتها بالمحاولات الناجحة في هذا المجال، إلا أننا لا نجد فيما يتعلق بكلام الله، إلا محاولات فاشلة أخجلت أصحابها وقرروا إتلافها في مهدها، خشية أن يطلع عليها الآخرون فتكون الفضيحة، أو تمادى في غيّه وغروره فنشرها فكانت الفضيحة! ولا نستبعد أن يكون بعض ما ورد على لسان تيار النفاق في صدر الإسلام من اختلاق بعض الآيات المزعومة من تلك المحاولات البائسة، مثل: (تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهنّ لترتجى)، ونحو ذلك من هذه المحاولات التي سعى منتحلوها إلى إقحامها في القرآن الكريم كيداً وطعناً فيه، ولكن أنى لهم وقد تحدّاهم القرآن، وتعهّده الله بالحفظ والصيانة.

أ ـ شهادة رؤوس المشركين بإعجاز القرآن:

لقد شهد للقرآن بالإعجاز كثير من بلغاء العرب، ومن بينهم مَن هو مِن ألدّ أعداء النبي ورسالته، وذلك في الوقت الذي كانوا يحاربونه بكل ما أوتوا من قوّة، ولم يتركوا وسيلة لطمس معالم الدين وإطفاء نوره، ومع ذلك جاءت شهادتهم لتثبت أن الفضل ما شهدت به الأعداء، وفيما يلي نستعرض بعض هذه الشهادات:

ـ **شهادة الوليد بن المغيرة**: (عن ابن عباس أنّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له؛ فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم! إنّ قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لمَ؟ قال: ليعطوكه. فقال الوليد: لقد علمت قريشُ أني من أكثرها مالاً. قال أبو جهل: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكرٌ له وكاره. فقال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم من رجلٍ أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجنّ! والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إنّ لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليَعلو وما يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لايرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر فنزل قوله تعالى:﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[1].

---

١ ـ الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام، ج ١، ص ١٥٥، دار الكتاب العربي، ط ١، بيروت، ١٩٨٧.

ـ شهادة النضر بن الحارث: قام ذات يوم فقال: (يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمدٌ فيكم غلاماً حَدَثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: (ساحر). لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحَرَة ونفثهم وعقدهم. وقلتم: (كاهن). لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم. وقلتم: (شاعر). لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه. وقلتم: (مجنون). لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه. يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمرٌ عظيم)[1].

ـ ثلاثة من قريش يطربون لسماع القرآن خفية: (كان من خبر أبي سفيان، وأبي جهل، والأخنس بن شريق، أن خرج كلٌّ منهم على انفراد متخفياً، ليستمع من رسول الله وهو يصلي من الليل في بيته؛ فأخذ كلّ واحد منهم مجلساً، وكلٌ لا يعلم بمكان صاحبه، حتى إذا طلع الفجر تلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا لمثلها. حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كلّ رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له،

---

١ ـ ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية، ج١، ص٢٣٢، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٤.

حتى إذا طلع الفجر، قال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرّة، ثمّ انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر، قال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود؛ فتعاهدوا على ذلك، ثمّ تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أتى أبا سفيان؛ فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا الذي حلفت به (كذلك)... ثمّ خرج من عنده، حتى أتى أبا جهل؛ فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمّد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبيّ يأتيه الوحيُ من السماء! فمتى ندرك مثل هذا؟)[1].

قال تعالى: ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْـمُفْسِدِينَ** ﴾[2].

---

١ ـ ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية، ج١، ص٢٤٧ ـ ٢٤٨، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٤.

٢ ـ النمل: ١٤.

ب- محاولات فاشلة في معارضة القرآن:

حاول (ثيودور نولدكه) إثبات بعض المحاولات الناجحة بزعمه في معارضة القرآن والإتيان بمثله، فقال:

«لم يتلاشَ تحدّي محمّد من دون صدى. ففي أثناء حياته وبعد فترة قليلة من وفاته ظهر في أماكن مختلفة من شبه الجزيرة العربية رجالٌ ادعوا أنهم أنبياء قومهم، وأنهم يتلقون الوحي من الله. هؤلاء هم لقيط بن مالك العماني، وذو الخمار عبهلة بن كعب الأسود اليمني، وطليحة الأسدي، ومسيلمة التميمي، وأخيراً النبية سجاح. وقد أطلقوا آيات لم تصلنا منها إلا أقوال مسيلمة، وهي مع أنها لا تتعدّى كونها شذرات فقط، تطلعنا على الأفكار الدينية التي نشرها هذا الرجل. ولكونه ديناً وعى قوته وأراد أن يجذب إليه العالم كله، لأنه الدين الحقّ الأفضل، أعلن الإسلام الفتيّ الذي كان يجاهد من أجل بقائه أنّ كلّ هذه الحركات خداع الشيطان وعمله»[1].

تعقيباً على هذا الكلام نقول: إن هذا العدد الكبير من أدعياء النبوة، من الذين لم يدّعوها إلا بعد أن شاهدوا ما وصل إليه النبي من سطوة، وما حققه من انتصارات على أعدائه حتى أخذ الناس يدخلون

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٥١.

في دين الله أفواجاً؛ فنظروا إلى الأمر من زاويتهم المادية البحتة، ورأوا في انتصار النبي غلبة له على خصومه، ومن هنا أطلق أبو سفيان كلمته المشهورة حين قال للعباس عم النبي يوم فتح مكّة: (لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً)[1]!

فالمسألة عنده وعند أمثاله مجرّد ملك وزعامة دنيوية، ولذلك كثر أدعياء النبوّة عندما فتح الله عليه، وتصوروا أن بإمكانهم بلوغ ما بلغه النبي بمجرّد ادّعاء النبوة والتظاهر بنزول الوحي عليهم، وإلا أين كانوا حينما كان المسلمون مستضعفين، يتخطفهم الناس من كل جانب، وذاقوا ما ذاقوا من العذاب والعنت والحصار والمقاطعات؟!

نعم، إن الأمر كما يقول (نولدكه)، فقد حاول هؤلاء الحمقى، كما حاول غيرهم قديماً وحديثاً الإتيان بكلام يعارض فيه القرآن بزعمه، فأخفق في ذلك من ناحيتين؛

الناحية الأولى: إنه أثبت عدم فهمه لمعنى المعارضة.

والناحية الثانية: إنه جاء بكلمات متهافتة مضحكة هي إلى (الكاريكلماتير) أقرب منها إلى الكلمات، وسنذكر نموذجين على ذلك؛ أحدهما من القديم، والآخر من الحديث، وقس عليهما ما سواهما لأنه مثلهما أو أسوأ:

---

١ ـ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٣٣، ص٢٠٨، مؤسسة الوفاء، ط٢، بيروت، ١٩٨٣.

محاولة (مسيلمة الكذاب):

كان من شأن (مسيلمة الكذاب) على ما روى ابن هشام في سيرته أن ادّعى النبوّة عند عودته مع قومه إلى اليمامة بعد لقاء النبيّ الأكرم ﷺ، فقد قال لقومه: إنّ الله قد أشركه في أمر محمّد. ثمّ جعل يسجع لهم الأساجيع، ويقول فيما يقول مضاهاة للقرآن الكريم: (لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاقٍ وحشى)[1]. ويبدو أن مسيلمة كان بالإضافة إلى ذلك يتقن فنّ التسويق والمساومة، فقد أباح الزنا لمن يؤمن بنبوته! كما سوّغ له شرب الخمر! وأسقط عنه الصلاة! في مناورة منه لكسب الأنصار والأتباع، فكان في ذلك إلى سلوك التجار أقرب منه إلى خلق الأنبياء.

وقال أيضاً: (والمبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعترّ فآووه، والباغي فناوئوه).

وعارض سورة الفيل قائلاً: (الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له مشفرٌ طويل، وذنبٌ أثيل، وما ذلك من خلق ربنا بقليل)[2].

---

١ ـ ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية، ج٤، ص١٨٥، مكتبة الهلال، بيروت.

٢ ـ الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص٥٥، نقلاً عن: أبو الفضل مير محمدي، بحوث في تاريخ القرآن وعلومه، ص٢٠٧.

وهي كما ترى محاولات فاشلة؛ فإنها ليست من المعارضة في شيء، وإنما هي محاكاة وتقليد، وهو مع ذلك تقليد مشوّه، بل هي سرقة لأكثر ألفاظ القرآن مع تبديل بعضها بألفاظ ركيكة. وربما لو سار على سجيته دون محاكاة القرآن لجاء بما هو أفضل من هذا الكلام، ولكن هذا هو شأن الغراب الذي أعجبه مشي القطاة، فحاول تقليدها فلم يفلح، ولما أراد الرجوع إلى مشيته كان قد نسيها.

ومما يروى عنه أيضاً أنه قال: (يا ضفدع ابنة ضفدعين، نِقي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قومٌ يعتدون)[1]، وقد علق (الجاحظ) على هذه الآيات (المسيلمية) قائلاً:

> «ولا أدري ما هيّج مسيلمة على ذكرها [الضفدع]؟ ولمَ ساء رأيه فيها حيث جعل بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه: يا ضفدع كم تنقين! نصفكِ في الماء، ونصفكِ في الطين! لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين»[2].

---

١ ـ راجع: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، حوادث سنة ١١، ص٥٣٧ ـ ٥٤٤، دار صادر، ط١، بيروت.

٢ ـ الجاحظ، عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، ج٢، ص٣١٨، منشورات الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت، ٢٠٠٣.

محاولة علي محمد الشيرازي[1] (مؤسس البابية):

لقد ألف هذا المعتوه كتاباً أسماه البيان وقسمه إلى ألواح، جارى فيه القرآن بزعمه، ثمّ ادعى بأنه أفضل من القرآن، وإليك بعضاً من أرقى ما فيه:

قال في اللوح الأول: (قل: إنا جعلناك عزاناً عزيزاً للعازين. قل: إنا جعلناك حبيباً حباناً للحابين. قل: إنا جعلناك برهاناً بريهاً للبارهين. قل: إنا جعلناك سكاناً سكيناً للساكنين...) وعلى هذه الوتيرة يمضي إلى إثنتي عشرة صفحة!

وفي اللوح الثاني استهلك عشر صفحات مشحونة بكلماتٍ اشتقها من لفظ (القديم) ومواد أخرى من قبيل قوله: (بسم الله الأقدم القدام القادم القدمان المتقدّم القيدوم المقدام ذي القدامين ذي القدامات ذي الأقدام...)!

واللوح الثالث اشتقه من اسم (الجميل) وقال فيه: (بسم الله

---

١ ـ علي محمد الشيرازي (١٢٣٥ـ ١٢٦٦): ولد في شيراز. والده الميرزا رضا البزاز، درس على يد السيد كاظم الرشتي. ابتدع الفكرة البابية، وقال: أنه (الباب) إلى الإمام المهدي المنتظر، والباب يعني الوسيط بين الإمام والرعية. ثمّ ادعى أنّ روح الإمام المهدي قد حلت فيه، فنفي إلى (ماكو) شمال غرب إيران. أفتى العلماء بكفره؛ فأمر الصدر الأعظم (أمير كبير) بإعدامه بعد موافقة الشاه ناصر الدين القاجاري، فأعدم شنقاً في تبريز عن واحدٍ وثلاثين عاماً. أنظر: بيضون، لبيب، الإعجاز العددي في القرآن، ص١٠٧ـ ١٠٨.

الأجمل الجَمِل الجُمّل ذي الجمالين إنه كان جميلاً جملاناً مستجملاً فوق الجماميل...)، وهكذا إلى عدّة صفحات يملأها بكلمات من هذا النمط، وليس أمامنا سوى أن نسجد لهذا الإعجاز! ولكنه والحق يقال قد أعجز أخويه: (البهاء ميرزا حسين علي)[١]، مؤسس البهائية، و(غلام أحمد القادياني)[٢]، مؤسس القاديانية؛ لأن قرآنه أفضل من قرآنيهما بكثير! بل إن الأخير لم يزد على تقديم وتأخير عبارات القرآن مع إضافات بسيطة من عنده.

---

١ ـ الميرزا حسين علي النوري (١٨١٧- ١٨٩٢م): ولد في (نور) من أعمال مازندران. لقّب بـ(البهاء)، ولقّب أخوه يحيى بـ (صبح الأزل). اعتنق مذهب البابية في سنّ الثلاثين، بل أصبح من أهمّ مريدي الباب ولمّا يره! اعترف معظم البابية بخلافته للباب. فرّ إلى السليمانية. نفاه السلطان العثماني إلى (أدرنه) بتركيا عام ١٨٦٤م، فبدأ هناك بالدعوة لنفسه ضدّ أخيه الأكبر (صبح الأزل)؛ فاضطر السلطان العثماني إلى التفريق بينهما، فنفاه إلى (عكا) بفلسطين، ونفى أخاه إلى (قبرص)، فبقي (البهاء) في عكا حتى وافته المنية تاركاً سلطته الروحية إلى ولده الأكبر (عباس أفندي) الذي لقّب بـ (عبد البهاء). أنظر: بيضون، لبيب، الإعجاز العددي في القرآن، ص١١٢- ١١٣.

٢ ـ غلام أحمد القادياني (؟- ١٩٠٨م): متنبئ هندي تعود جذوره إلى (مزار شريف) في بلخ، ارتحل أجداده قبل قرون من مدينة (سبزوار) شمال شرق إيران إلى قرية (قاديان) في إقليم البنجاب الهندية، حيث ولد (غلام أحمد) وتعلم اللغتين العربية والإنجليزية، ودرس العلوم الدينية على يد العلماء هناك، استخدمه الإنجليز على مزارع قريته. وفي سنة ١٨٨٠م أعلن أنه المهدي المنتظر ثمّ ادعى أنه يُوحى إليه. ولقربه من الدوائر الاستعمارية نسخ حكم الجهاد، وأوجب طاعة الإنجليز. وفي سنة ١٨٨٩م ادعى النبوّة، وزعم أنه المسيح الموعود، وأسقط لفظة (غلام) الدالة على العبودية، واقتصر على اسم (أحمد). أفتى أكثر العلماء بكفره. أنظر: بيضون، لبيب، الإعجاز العددي في القرآن، ص١١٠.

واحدٌ وعشرون وجهاً بلاغياً في آية واحدة:

بعد أن ملأنا أذنيك بهذه الخزعبلات، لم نجد من العدل أن نتركك دون تشنيفهما ببعض آيات القرآن الكريم، مع بيان وجوه الإعجاز البلاغي فيها.

قال تعالى: **﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**[1].

يقال: إن قريش حينما سمعت هذه الآية عمدت إلى معلقاتها فأنزلتها من جدران الكعبة، وقد علل أساتذة البديع بلاغتها باشتمالها على صنعة الإبداع، وهو أن يكون البيت من الشعر أو الفصل من النثر مشتملاً على عدة ضروبٍ من البديع.

وقد أفرد ابن أبي الإصبع المصري(٥٨٥ ـ ٦٥٤هـ) لهذه الآية باباً أسماه باب الإبداع، قال فيه:

> «ما رأيت في جميع ما استقريت من الكلام المنثور والشعر الموزون، كآيةٍ كريمةٍ من كتاب الله تعالى، استخرجتُ منها أحداً وعشرين ضرباً من المحاسن، وهي قوله تعالى: **﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ**

---

١ ـ هود: ٤٤.

وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْـجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، وهي: المناسبة التامّة بين أقلعي وابلعي. والمطابقة بذكر الأرض والسماء. والمجاز في قوله (يا سماء)، فإنّ المراد ـ والله أعلم ـ يا مطر السماء. والاستعارة في قوله (أقلعي). والإشارة في قوله تعالى (وغيض الماء)، فإنه عبّر بهاتين اللفظتين عن معانٍ كثيرة. والتمثيل في قوله تعالى (وقضي الأمر)، فإنه عبّر عن هلاك الهالكين، ونجاة الناجين بلفظٍ فيه بُعد عن لفظ المعنى الموضوع له. والإرداف في قوله تعالى (واستوت على الجودي)، فإنه عبّر عن استقرارها بهذا المكان، وجلوسها جلوساً متمكناً لا زيغ فيه ولا ميل، بلفظٍ قريبٍ من لفظ المعنى. والتعليل، لأنّ غيض الماء علة الاستواء. وصحّة التقسيم، إذ استوعب ـ سبحانه ـ أقسام أحوال الماء حالة نقصه؛ إذ ليس إلا احتباس ماء السماء، واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغيض الماء الحاصل على ظهرها. والاحتراس في قوله تعالى (وقيلَ بعداً للقوم الظالمين)، إذ الدعاء يشعر بأنهم مستحقو الهلاك احتراساً من ضعيفٍ يتوهم أنّ الهلاك لعمومه ربما شمل من يستحقّ ومن لا يستحقّ، فتأكد بالدعاء على الهالكين؛ لكونهم مستحقين ذلك. والإيضاح في قوله تعالى (للقوم) ليتبيّن لهم أنّ القوم هم الذين سبق

ذكرهم في الآية المتقدّمة عليها، حيث قال تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [1]، وفي قوله قبل ذلك: ﴿ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ [2]؛ فأتى سبحانه في آخر هذه الآية بلفظة (القوم) التي الألف واللام فيها للعهد [الذكري]؛ ليبيّن أنهم القوم الذين سبق ذكرهم... فعلم أنّ لفظة (القوم) هاهنا ليست فضلة في الكلام، وأنها يحصل لسقوطها لبسٌ في المعنى. والمساواة؛ لأنّ لفظ الآية لا يزيد على معناها. وحسن النسق؛ لأنه سبحانه عطف القضايا بعضها على بعض بحسن ترتيب حسبما وقعت. وائتلاف اللفظ في المعنى؛ لأنّ كلّ لفظة لا يصلح موضعها لغيرها. والإيجاز؛ لأنه سبحانه اقتصّ القصّة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخل منها بشيءٍ في أخصر عبارة. والتسهيم؛ لأنّ أوّل الآية إلى قوله تعالى (أقلعي) يقتضي آخرها. والتهذيب؛ لأنّ مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن، كلّ لفظة سمحة سهلة، مخارج الحروف عليها رونق الفصاحة مع الخلو عن البشاعة والتركيب، سليمة من التعقيد وأسبابه. وحسن البيان، من جهة أنّ السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، ولا

---

١ ـ هود: ٣٨.

٢ ـ هود: ٣٧.

يشكل عليه شيءٌ من هذا النظام. والتمكين؛ لأنّ الفاصلة مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها، غير قلقة ولا مستدعاة. والانسجام، وهو تحدّر الكلام بسهولة كما ينسجم الماء وينساب انسياب العليل من الهواء. وما في مجموع الآية من الإبداع، وهو الذي سمّي به هذا الباب، من أنّ كلّ لفظة لا تخلو عن أن يستخرج منها ضربٌ أو ضربان من البديع، فهذه آية عدد ألفاظها سبع عشرة لفظة تتضمن أحداً وعشرين ضرباً من البديع غير ما يتعدّد من ضروبها، فإنّ الاستعارة وقعت منها في موضعين، وهما: استعارة الابتلاع للأرض والإقلاع للسماء. والمجاز في مكانين، في قوله سبحانه (وياسماء). وفي الإشارة والتمثيل والإرداف؛ لأنّ المجاز مجازان: مجاز بالحذف، ومجاز بالتغيير، وقد وقعا معاً. فانظر ـ رحمك الله ـ إلى عظمة هذا الكلام؛ لتعلم ما انطوى عليه نظمه، وما تضمنه لفظه»[1].

قال (لبيب بيضون) في هذه الآية:

«أُفردت هذه الآية الشريفة بتآليف عديدة لما اشتملت عليه من البلاغة والفصاحة، حتى عدّ بعضهم فيها مئة

---

١ ـ المصري، ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، صص٦١١ ـ ٦١٣، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٣هـ

وخمسين نوعاً من البديع، وهذا ما جعل المعاندين يُجمعون على أنّ طوق البشر عاجز عن الإتيان بمثلها»[1].

وقال (بولاتير) في الإعجاز البلاغي:

«من الصعب أن يظنّ الإنسان في أمره أنّ قوّة الفصاحة الإنسانية تؤثر ذلك التأثير القرآني، خصوصاً وأنها تصدر عالية بغير ضعفٍ أبداً، وتتجدد رفيعة، إنها لمعجزة؛ إذ تقصر دون تقليدها رجال الأرض وملائكة السماء»[2].

دور الفواصل والأوزان الشعرية في القرآن عند نولدكه:

يرى (نولدكه) أن للفواصل التي تظهر في خواتم الآيات من بعض السور تأثيراً في تقييد حريّة النبي في التعبير، فلربما ألجأته القافية إلى ألفاظ وكلمات غير مرادة له على حقيقتها، ولولا القافية ما كانت هناك ضرورة إلى استعمالها، قال (نولدكه):

«تأثير الفاصلة على خطاب القرآن ليس بلا أهمية. من

---

١ ـ بيضون، لبيب، الإعجاز العددي في القرآن، ص٩٩ ـ ١٠٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ٢٠٠٥، بيروت.

٢ ـ المصدر المتقدم، ص٨٩.

أجل الفاصلة يتبدّل أحياناً شكل الكلمات المعتادة وحتى معناها، فحين تتكلم سورة الرحمن عن جنتين سماويتين مع عينين وزوجين من الفاكهة وجنتين مماثلتين نرى بوضوح أن استعمال المثنى هنا إنما هو من أجل الفاصلة فقط. ولم يتمّ في سورة الحاقة اختيار العدد المستغرب "ثمانية" للملائكة الذين يحملون عرش الله، لو لم تكن "ثمانية" تلائم الفاصلة. أخيراً، يُضاف إلى ما سبق: التأثير الخاص الذي يُمارسه كل شكل شعري (البحر والقافية الخ) على ترتيب البنية وسياق الأفكار. ولا يقلّ عن ذلك أهمية، الأثر الذي مارسته الفاصلة على تأليف القرآن»[١].

نقول: لا شكّ أننا حينما نتلو القرآن نجده مفعماً بالمؤثرات البلاغية، كما عليه الأدب العربي بجميع مدارسه عموماً، وقد جاء القرآن متحدّياً إياهم بما عرفوه من الأساليب البلاغية؛ ليتفوّق عليهم ويتحداهم بما ألفوه.

ولكن هذا لا يعني أنّ هناك التزاماً بهذه الأوزان، وإنما تقع مصادفة وعلى نحو عفوي، فليس القرآن كتاباً شعرياً، وهكذا يقال بالنسبة للفاصلة أو القافية. ومع عدم وجود الإلزام والالتزام، لا يمكننا أن نتصورَ ضرورة ملزمة للقرآن كتلك التي افترضها (نولدكه).

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٣٧ ـ ٣٨.

قال تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾[1] وكان بإمكانه أن يقول: (أحد عشر إلى ثمانية عشر) دون إضرار بالقافية، ولكنه لم يلجأ إلى أيٍّ من هذه الأعداد، لا لأنه مهتم بالقافية، أو يحاول التهرب منها، بل إما لأن عددهم محدد بتسعة عشر، أو أنّه مجرّد إشارة لبيان الكثرة. كذلك نقول بالنسبة إلى قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾[2]. حيث يمكن للباري تعالى لو كان عدد حملة العرش أقل أو أكثر أن يقول: (ويحمل عرش ربك فوقهم سبعة أو تسعة) ولتذهب الفاصلة إلى الجحيم، ولكن ما العمل إذا كان عددهم ثمانية؟

بل إننا حين نتلو القرآن، نجد كأن هناك شبه التزام بعدم الالتزام بالفاصلة، وهذا ما نجده حتى في محاولات (مسيلمة الكذاب) البائسة، حيث يقلد الأسلوب القرآني حتى في عدم الالتزام بالفاصلة، ومثال ذلك قوله: (والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، لقد فضلتم على أهل الوبَر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعترّ فآووه، والباغي فناوئوه).

وعليه فإن الأسلوب القرآني متحررٌ منذ البداية من قيود الفاصلة، غير خاضعٍ لإرادتها؛ فلا يكون ما قاله (نولدكه) وارداً بحال من الأحوال.

---

١ ـ المدثر: ٣٠.

٢ ـ الحاقة: ١٧.

٧ ـ وجوه أخرى من الإعجاز القرآني:

لا يقتصر إعجاز القرآن على الجانب الأدبي والبلاغي منه، بل هناك جوانب أخرى عديدة، سنقتصر فيما يأتي على ذكر أهمها:

- **الإعجاز العلمي:**

لا نقصد بالعلم هنا جانبه النظري، وما كان من العلوم ما يقف على مستوى النظرية، التي يتم تأكيد ثبوتها اليوم، ليتمّ نقضها في الغد المقبل. فكثيراً ما يتم تبني نظرية من النظريات العلمية، وتؤسس عليها القواعد، وربما تبقى هي السائدة لمئات السنين، لتأتي بعد ذلك نظرية أخرى تنسفها من قواعدها، وهكذا دواليك. إنما الذي نريده بالعلوم تلك التي تحولت إلى بديهيات، من قبيل: كروية الأرض، وحركتها، وقانون الجاذبية فيها، وانعدام الأوكسجين في جوّ السماء، وما إلى ذلك، دون النظرية النسبية وما إليها.

وهناك تصويرات كثيرة أبداها العلماء لهذا النوع من الإعجاز في القرآن الكريم، منها ما أفاده السيد الخوئي ﷺ حيث قال:

«أخبر القرآن الكريم في غير واحد من آياته عما يتعلق بسنن الكون ونواميس الطبيعة وغيرها مما لا سبيل إلى العلم به في بدء الإسلام، إلا من ناحية الوحي الإلهي، وبعض هذه القوانين وإن علم بها اليونانيون في تلك العصور، أو غيرهم ممن لهم سابق معرفة بالعلوم، إلا أنّ

الجزيرة العربية كانت بعيدة عن العلم بذلك، وإن فريقاً مما أخبر به القرآن لم يتضح إلا بعد توفر العلوم وكثرة الاكتشافات، وهذه الأنباء في القرآن كثيرة»[١].

وسنذكر فيما يأتي بعض هذه الآيات في الإعجاز العلمي:

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ الْـمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [٢]. قال سيد قطب[٣] بشأن هذه الآية:

«إنها تقرر حقيقة خطيرة، يعدّ العلماء كشفها وتقريرها أمراً عظيماً، ويمجدون (دارون) لاهتدائه إليها، وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول، وهي حقيقة تثير الانتباه حقاً. وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا، ولا يزيدنا يقيناً بصدق القرآن، فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كلّ ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله»[٤].

---

١ ـ الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، ص٧١، ط٣، قم المقدسة، ٢٠٠٧.

٢ ـ الأنبياء: ٣٠

٣ ـ سيد قطب (١٩٠٦ ـ ١٩٦٧م): كاتب عربي مصري. عرف بدراساته الإسلامية. انخرط في صفوف (الإخوان المسلمين)؛ فسجن وأعدم شنقاً. أشهر آثاره تفسير القرآن الكريم في أربعة أجزاء تحت عنوان (في ظلال القرآن)، وله أيضاً: (التصوير الفني في القرآن)، و(العدالة الاجتماعية في الإسلام)، و(مشاهد القيامة في القرآن). أنظر: البعلبكي، منير، موسوعة المورد، ج٨، ص٢١٩، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، ١٩٩٢.

٤ ـ قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٣٧٦، دار الشروق، ط٢٤، بيروت، ١٩٩٥.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[١]. ولم يهتد العلم إلى هذه الحقيقة إلا في عام ١٨٦٢م حين حاول إنجليزيان الصعود بمنطادهما إلى أقصى ارتفاع ممكن، فبلغا إلى حدّ سبعة أميال، ولكنهما عانيا مصاعب جمة؛ فتعذر تنفسهما وأخذا ينزفان دماً من آذانهما وعيونهما وأنفيهما وحنجرتيهما. ولم يستطع العلماء في بادئ الأمر تشخيص السبب، حتى عرفوا فيما بعد أن الهواء يقلّ ضغطه كلما ارتفع، فهو في الطبقات العليا أقلّ ضغطاً منه في الطبقات السفلى)[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[٣]. حيث يحيط بالأرض غلافٌ هوائي سميك قد يبلغ ارتفاعه أكثر من (٣٥٠) كيلو متراً مكون من (غاز النتروجين)، و(الأوكسجين)، و(ثاني اوكسيد الكاربون)، و(بخار الماء)، وغازات أخرى، وبذلك يكون ترساً واقياً للأرض من قذائف السماء المنفصلة عن الكواكب الأخرى، وقد يبلغ وزن إحدى هذه القذائف بضعة أطنان؛ فلا يمكن لغاز الأوزوت وغيره تفتيتها وحرقها، فتصل إلى الأرض مدمّرة مخرّبة، وقد عثروا على بعضها في أنحاء الأرض،

---

١ ـ الأنعام: ١٢٥.

٢ ـ مبادئ العلوم العامة ص٥٧، نقلاً عن تلخيص التمهيد ج٢، ص٤٩٤، فراجع.

٣ ـ الأنبياء: ٣٢.

وخاصّة في المناطق غير المأهولة منها[١].

وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[٢]. وهي من الآيات الدالة على حركة الأرض، وفي ضمنها الجبال. فهي غير ناظرة إلى حوادث أشراط الساعة، وأهوال القيامة، إذ لا تهويل في رؤية الجبال ساكنة وجامدة.

وكذلك المرور مرّ السحاب، ولا هول في مشاهدة مسيرة السحاب. هذا في حين أنكر (بطليموس) حركة الأرض، وبقيت نظريته هي السائدة حتى القرن السادس عشر للميلاد، حين أثبت (كوبرنيق) حركة الأرض.

وقوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَه ﴾[٣]. إذ تبين هذه الآية سرّاً لم يكشف إلا في القرن التاسع عشر، فقد عُرف حينها أنّ لكلّ إنسان بصمة خاصة رسمت على بنانه لا يشاركه فيها أحد.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي

---

١ ـ بصائر جغرافية نقلاً عن التمهيد، ج٢، ص٤٩٧.

٢ ـ النمل: ٨٨.

٣ ـ القيامة: ٣ ـ ٤.

﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[1]. قال مالك بن نبي:

«وربما تبدو هذه الآية ذات سذاجة حلوة، ومع ذلك فلو أننا نظرنا إلى خط الطول الذي تقع عليه مكة؛ فإنّ مغرب الشمس سيكون على مدى تسعين درجة طولية إلى الغرب، وهذا الطول يمتدّ إلى نواحي خليج المكسيك، حيث يتفرّع مجرى بحري. هذا التيار البحري الدافئ هو الذي يحمل إلى شواطئ أُوربا الشمالية ما يناسبها من الدفء المستمد من (عينه الحمئة)، ومن هذه الأنحاء نفسها حاول المهندس الفرنسي (جورج كلود) استخدام الطاقة الحرارية في البحار، ونجح في ذلك نظرياً»[2].

وقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[4]. فإن تكوير الليل والنهار، يقتضي تكوير ما تحتهما، ولوضوح هذه الآية في كروية الأرض، فقد ذهب إلى هذا المعنى حتى المتقدّمين من المفسرين قبل أن

---

١ ـ الكهف: ٨٦.

٢ ـ ابن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، ص٢٩٠، دار الفكر، ط٤، دمشق، ١٩٨٧. لكن لم يذكر أنّ ذا القرنين قد رصد مغيب الشمس من زاوية مدينة مكة، ولذلك لا يمكن الالتزام بما قاله مالك بن نبي.

٣ ـ الزمر: ٥.

٤ ـ النازعات: ٣٠.

يثبتها العلم الحديث، كابن حزم الأندلسي[١] في كتابه (الفِصَل في الملل) حيث قال قي بحث كروية الأرض:

«بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها، قال الله تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾، وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض، وهذا نصٌّ على تكوير الأرض».

أما الآية الثانية فهي تبين شكل الأرض البيضوي بشكل أدقّ، وتقدّم صورة مطابقة لأحدث الحقائق العلمية حول شكل الأرض. توضح المعاجم اللغوية أن كلمة (دحاها) تعني جعلها كالدحية، أي (البيضة)؛ حيث تعني الأدحوّة: (بيضة النعام)، ولازال هناك من العرب من يسمّي البيضة دحية، كما هو الحال بالنسبة إلى أهل مصر، وفلسطين[٢]، وسكان منطقة خوزستان من العرب في إيران، وبعض سكان البصرة في العراق، يدعون البيضة (دحروية)، ويجمعونها على (دحاري).

---

١ ـ ابن حزم، علي بن محمد (٩٩٤ ـ ١٠٦٤م): فقيه مسلم أندلسي. كان صاحب مذهب انتشر في الأندلس انتشاراً واسعاً، وقد أخذ فيه بظاهر النصّ فعرف بالمذهب الظاهري. من أشهر آثاره: (الفِصَل في الملل والأهواء والنحل)، و(الإحكام لأصول الأحكام)، و(المفاضلة بين الصحابة)، و(طوق الحمامة في الألفة والألاف). البعلبكي، منير، موسوعة المورد، ج٥، ص١٥٦.

٢ ـ المدرّس، علاءالدين، الظاهرة القرآنية والعقل،ص٢١٦، مطبعة العاني، ط ١، بغداد١٩٨٦.

إلى غير ذلك من الآيات التي أعرضنا عنها خشية الإطالة.

ولكن لا يفوتنا التنويه في هذا المجال بقوله تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [1].

قال (رينوت) في الإعجاز العلمي:

«يجب أن نعترف بأن العلوم الطبيعية والفلك والرياضيات التي أنعشت أوربا في القرن العاشر مقتبسة من القرآن»[2].

وقال المستشرق الفرنسي (موريس بوكاي):

«إذا أخذنا مستوى ما بلغته العلوم في عصر محمّد بنظر الاعتبار، لم يعد بإمكاننا أن نصدّق بأنّ القرآنَ نتاجُ بشري؛ وذلك لما يحتويه هذا الكتاب من الحقائق العلمية في الكثير من مضامينه... وعليه من المعقول جدّاً عدم الاكتفاء باعتبار القرآن وحياً فحسب، بل ويجب علينا أن نضع (الوحي القرآني) في مرتبة ممتازة جداً؛ لما يتمتع به من أصالة مضمونة في إثبات حقائق علمية لم يؤمن بها العلم الحديث، إلا من خلال البحث والتحقيق، بعد أن كان يعدّها تحدّياً للفرضيات البشرية»[3].

---

١ ـ فاطر: ٢٨.

٢ ـ بيضون، لبيب، الإعجاز العددي في القرآن، ص٨٩، مؤسسة الأعلمي، ٢٠٠٥، بيروت.

٣ ـ بوكاي، موريس، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص٣٠٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦. بتصرّف.

● **الإعجاز الغيبي:**

والإعجاز الغيبي في القرآن يشتمل على ثلاثة أزمنة، فمنها ما يتعلق بالماضي، ومنها ما يتعلق بالحاضر، ومنها ما يتعلق بالمستقبل. وفيما يأتي نذكر مثالاً لكل واحدٍ من هذه الأزمنة:

فمغيبات الماضي من قبيل: قصص الأنبياء السابقين وأممهم، والتي أشار لها تعالى بقوله: ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا** ﴾[1].

ومن مغيبات الحاضر، قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾[2]. فقد أخبر القرآن بهذا الحدث في ليلة وقوعه، إذ تشاورت قريش في دار الندوة على أن يحبسوا رسول الله ﷺ أو يقتلوه أو يبعدوه عن مكة، ثمّ قر قرارهم على قتله. وكانت نتيجة هذا الإخبار الغيبي إحباط مؤامرة المشركين، ووصول النبي الأكرم ﷺ إلى المدينة المنوّرة سالماً.

ومن مغيبات المستقبل، قوله تعالى: ﴿ **وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ** ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ**

---

١ ـ هود: ٤٩.

٢ ـ الأنفال: ٣٠.

٣ ـ الروم: ٣ ـ ٤.

﴿الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[1].

كما يمكننا أن نعد من الإعجاز الغيبي التنبّؤ ببقاء القرآن سليماً من التحريف، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لحافِظُونَ﴾[2]. ولا يزال هذا الوعد قائماً إلى يوم الناس هذا.

قال الأستاذ رشيد رضا في هذا النوع من الإعجاز:

«فهذه الأخبار الكثيرة بالغيب، دليل واضح على نبوّة نبينا، وكون القرآن من عند الله تعالى؛ إذ لا يعلم الغيب غيره سبحانه، ولا يمكن معارضتها بما يصحّ بالمصادفة أو القرائن أحياناً من أقوال الكهّان والعرّافين والمنجمين؛ فإن كذب هؤلاء أكثر من صدقهم، إن صحّ تسمية ما يتفق لهم صدقاً منهم، ولكن الناس لا يحصون عليهم أقوالهم، ولا يبحثون عن حيلهم وتلبيساتهم فيها، يذكرون بعض ذلك إذا اقتضته الحال، كتشنيع أبي تمام[3]

---

١ ـ القصص: ٨٥.

٢ ـ الحجر: ٩.

٣ ـ أبو تمام (ت: ٨٤٥م): شاعر عربي عباسي، يعتبر أحد أعظم الشعراء في الأدب العربي كله، تميّز شعره بالأناقة المتكلفة وبالغوص في المعاني وكثرة الغريب. طوّف في بلدان كثيرة، واتصل بالمعتصم العباسي؛ فمدحه بقصائد عصماء أشهرها قصيدته في فتح عمورية التي يقول في مطلعها: (السيف أصدق إنباءً من الكتب.. في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعبِ)، وفيها يقولُ معرّضاً بأقوال المنجّمين: (سبعون ألفاً كآساد الثرى نضجت. . =

على المنجمين في زعمهم أنّ عمورية لا تفتح إلا عند نضج التين والعنب»[1].

● الإعجاز العددي:

يجب قبل الخوض في هذا النوع من الإعجاز القرآني، التنويه إلى ضرورة التعاطي معه بحذرٍ شديد، وذلك لأنه قد يكون في بعض أمثلته وليد الاتفاق كما سنبين. ولكنه في بعض وجوهه يبعد أن يكون كذلك. وإذا آمنا بأنه من الإعجاز، سنكون قد حققنا الغاية في إثبات الإعجاز القرآني، وسنكون معه في غنىً عن إثبات إعجاز القرآن بأدلة ولغة لا تقنع غيرنا؛ لأن لغة الأعداد لغة حيادية، لا تعرف عدواً من صديق، ولا تنحاز إلى العواطف الدينية، أو العرقية أو القبلية. مضافاً إلى كونها لغة مفهومة للجميع.

ومن الصحابة والتابعين الذين تناولوا موضوع الإحصاء والعدديات في القرآن الكريم: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وعبدالله بن مسعود، ومجاهد، وعطاء، وراشد وآخرون. وفيما يلي نستعرض

= جلودهم مثل نضج التين والعنبِ). ومن آثاره: (كتاب الحماسة)، و(أشعار المحدثين)، و(أشعار الفحول). أنظر: البعلبكي، منير، موسوعة المورد، ج١، ص٣١، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٨٠.

١ ـ رشيد رضا، محمد، المنار، ج١، ص١٨٢، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت،٢٠٠٢.

بعضاً من جوانب هذا النوع من الإعجاز في القرآن الكريم على النحو الآتي:

روى (وكيع)، عن (الأعمش)، عن (أبي وائل)، عن (ابن مسعود)، أنه قال:

«من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر؛ فليقرأ "بسم الله الرحمن الرحيم" ليجعل الله له بكل حرف منها جُنّة من كل واحد، فالبسملة تسعة عشر حرفاً على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم "عليها تسعة عشر" وهم يقولون في كل أفعالهم: "بسم الله الرحمن الرحيم" فمن هنالك هي قوّتهم وببسم الله استضلعوا»[1].

أقول: من السهل علينا أن نعد حروف عبارة ما، فنجدها موافقة لمقدس من المقدسات؛ فنجعل العدد ناظراً إلى ذلك المعدود، ونحدث علاقة وثيقة بينهما، في حين قد لا يتعدى الأمر أن يكون وليد الصدفة كما أسلفنا، ويمكن أن يكون الكلام المروي عن ابن مسعود من هذا القبيل.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى ما عثر عليه الأستاذ (عبد الرزاق نوفل) من التماثل العددي، والتكرار الرقمي، والتناسب بين المفاهيم

---

١ ـ ابن عطية الأندلسي، عبد الحق، تفسير المحرر الوجيز، ج١، ص٨٢، دار الفكر العربي، ط٢، القاهرة.

القرآنية المتماثلة أو المتناقضة أو المترابطة، وقال عنها في مقدمة كتابه (الإعجاز العددي للقرآن الكريم):

«إنها لصورة من صور الإعجاز التي لا يمكن لأيّ باحث أو دارس أو قارئ أن يستعرضها إلا ويؤمن الإيمان الكامل المطلق أنّ هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا وحي الله سبحانه وتعالى لآخر أنبيائه وخاتم رسله؛ لأنه شيءٌ فوق القدرة، وأعلى من الاستطاعة، وأبعد من حدود العقل البشري»[1].

وإليك بياناً ببعض ما توصل إليه الأستاذ نوفل وضمنه في كتابه آنف الذكر:

لفظ (قل) ورد في القرآن الكريم ٣٣٢ مرة، وبنفس العدد ٣٣٢ ورد لفظ (قالوا).

ومن الطريف أن نذكر هنا ما حكيَ عن الزعيم الليبي (معمر القذافي)[2]، إذ اقترح حذف جميع ألفاظ (قل) من القرآن الكريم

---

١ ـ نوفل، عبد الرزاق، الإعجاز العددي للقرآن، المقدمة، دار الكتاب الإسلامي، ١٩٨٧، بيروت.

٢ ـ هو العقيد معمّر القذافي: (١٩٤٣ ـ ؟)، زعيم عسكري وسياسي ليبي، قاد حركة الضباط الوحدويين الأحرار مفجّراً ثورة الفاتح من سبتمبر (عام: ١٩٦٩) التي أطاحت بالملك (إدريس السنوسي). أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج١، ص٧٥.

والاستغناء عنها، بحجّة أنها أوامر قد صدرت عن الله لنبيّه، وقد أدّى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هذه الأوامر؛ وعليه لم تعد هناك من حاجة إلى بقائها في القرآن الكريم[1]! وأنا شخصياً لا أستبعد صدور مثل هذا الرأي الغريب عنه، بعد أن تبنى نظرية (إسراطين) في محاولة منه لحلّ النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، وحلّ الاشتباك القائم بينهما منذ ستين سنة! ولو أننا سمحنا لهذا الزعيم بحذف ما يشاء من كتاب الله العزيز، لم يبقَ للمسلمين من قرآنهم سوى (كتابٍ أخضر)!

ورعاية للاختصار سنكتفي بهذه الأمثلة، ونذكر جدولاً ببعض المفردات الأخرى استكمالاً للفائدة ونحيل القارئ إذا أراد التوسّع إلى كتاب (الإعجاز العددي للقرآن الكريم) لمؤلفه عبد الرزاق نوفل:

---

١ ـ بازركان، عبد العلي، مجلة (آيينه انديشه)، العدد: ٨، مقال: (الهوى أو الهدى)، ص١٢٧.

المفردة	عددها	المفردة	عددها
الدنيا	١١٥	الآخرة	١١٥
الملائكة	٦٨	الشيطان	٦٨
الصيف	١	الشتاء	١
الحر	٤	البرد	٤
العقل	٤٩	النور	٤٩
اللسان	٢٥	الموعظة	٢٥
الرغبة	٨	الرهبة	٨
الذهب	٨	الترف	٨
رجل	٢٤	امرأة	٢٤
الجهر	١٦	العلانية	١٦
العدل	٢٧	القسط	٢٧

نقول: إن القرآن الكريم يحتوي العشرات من الكلمات المترادفة والمتضادّة. وقد يتفق حدوث التساوي في بضعة كلمات مترادفة، أو متضادة، أو متقاربة من باب الصدفة والاتفاق، كما هو حاصل بالنسبة إلى بعض ما ذكره السيد (عبد الرزاق نوفل)، رغم إيماننا بإخلاصه في محاولته.

لكننا إذا توغلنا في هذا المجال، فإننا سوف نواجه أموراً مذهلة لا يمكن أن تكون وليدة الصدفة، لسبب بسيط، وهو إن الصدفة لاتتكرر. خصوصاً إذا تفرعت عليها وترتبت أمور بعضها يتوقف على بعض، للوصول إلى نتائج منطقية، ومن ذلك ما قيل في الحروف المقطعة أو فواتح السور، وإليك بيانها:

هناك من السور القرآنية ما تميّز من سائر السور الأخرى بافتتاحها بعد البسملة، بحروف تعددت الآراء حولها، وتضاربت الأقوال بشأنها. وقد اشتهرت بأسماء، من قبيل: (الحروف المقطعة)، أو (فواتح السور)، أو (الحروف النورانية).

وقد بلغ عدد السور المفتتحة بهذه الحروف تسعاً وعشرين سورة، وإذا أسقطنا المتكرر من هذه الفواتح، فسوف يبقى الخالص منها عندنا ١٤ فاتحة. فإذا عمدنا إلى المتكرر من الحروف في هذه الفواتح الأربع عشرة، خلصَ عندنا منها ١٤ حرفاً وهي: (ص. ر. ا. ط. ع. ل. ي. ح. ق. ن. م. س. ك. هـ). وهذا العدد يشكل في واقعه نصف حروف الهجاء تماماً. كما أنها تحوي من كلّ جنسٍ من الحروف نصفه أيضاً. وقد استدل لذلك العلامة الزمخشري في (الكشاف) قائلاً:

«واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء، وجدتها نصف أسامي المعجم، أربعة عشر سواء، وهي: (الألف، واللام، والميم، والصاد،

والرّاء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون) في تسع وعشرين سورة، على عدد حروف المعجم[1]. ثمّ إذا نظرت في هذه الأربعة عشر [حرفاً] وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك أنّ فيها من المهموسة نصفها: (الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء). ومن المجهورة نصفها: (الألف، واللام، والميم، والرّاء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون). ومن الشديدة نصفها: (الألف، والكاف، والطاء، والقاف). ومن الرخوة نصفها: (اللام، والميم، والرّاء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون). ومن المطبقة نصفها: (الصاد، والطاء). ومن المنفتحة نصفها: (الألف، واللام، والميم، والرّاء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والقاف، والياء، والنون). ومن المستعلية نصفها: (القاف، والصاد، والطاء). ومن

---

١ ـ توجد هنا تعليقة ذكرها الإمام أحمد بن المنير الإسكندري في تهميشه على الكشاف الموسوم بـ(الانتصاف) قال فيها: (عندما عدّ الحروف أربعة عشر حرفاً في الفواتح، قال: إنها نصف حروف العربية، فهذا يدلّ على أنّ جملتها ثمانية وعشرين حرفاً، فلابدّ من سقوط أحد الحرفين من هذا العدد، أما (الألف) الليّنة أو (الهمزة)، وإلا كانت تسعة وعشرين حرفاً. والظاهر أنّ الساقط الهمزة. وعندما قال: في تسعة وعشرين على عدد الحروف، اقتضى هذا دخول الألفين في العدد. والظاهر من كلامه أنّ الألف عنده هي الليّنة، فلذلك علل تسميتها بالألف، بأنّ النطق لما تعذر بها أولاً استقرّت الهمزة مكانها، وفاءً بمراعاة تلك اللطيفة التي قدّمها من جعل مسمى الحرف أوّل اسمه).

المنخفضة نصفها: (الألف، واللام، والميم، والرّاء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والسين، والحاء، والنون). ومن حروف القلقلة نصفها: (القاف، والطاء). ثمّ إذا استقريت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كلّ شيءٍ حكمته»[١].

ولم يبقَ من أنواع الحروف سوى الحروف الشفوية، وهي حرفان لا غير، وهما: (الميم والباء) وقد أغفل الزمخشري ذكرها، ومع ذلك فإنّ الله تعالى لم يذكر منهما سوى (الميم) فقط، وبذلك يكون قد ذكر (النصف) منها! فسبحان الذي أتقن كل شيء.

قال الباقلاني (ت: ٤٠٣) معلقاً على ذلك:

«إذا كان القوم الذين قسموا في الحروف هذه الأقسام، لأغراض لهم في ترتيب العربية وتنزيلها بعد الزمن الطويل من عهد النبي ﷺ رأوا مباني اللسان على هذه الجهة، وقد نبّه بما ذكر في السور على ما لم يذكر على حدّ التنصيف الذي وصفنا، دلّ على أنّ وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه ـ بعد العهد الطويل ـ لا يجوز أن

١ ـ الزمخشري، جار الله، الكشاف، ج١، ص٣٩ ـ ٤٠، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٥.

يقع إلا من الله عز وجلّ؛ لأنّ ذلك يجري مجرى علم الغيوب»[1].

ويمكن عدّ قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[2]، من الإعجاز العددي والحسابي في القرآن الكريم، وذلك باعتبار أن زيادة التسعة هنا لبيان الفرق بين حساب السنة على التقويم الشمسي والتقويم القمري، إذ تتراوح أيام السنة القمرية بين (٣٥٣) و(٣٥٥)، بينما أيام السنة الشمسية هي: (٣٦٥) يوما و(٦) ساعات و(٩) دقائق، وتسع ثوان؛ فتزيد السنة الشمسية على السنة القمرية بمقدار (١١) يوماً، وهي مضروبة في (٣٠٠) تساوي (٣٣٠٠) وهو ما مجموعه (تسع سنوات وثلاثة أشهر ونصفاً) بالتقسيم على عدد أيام السنة القمرية حساباً بالتقريب، حيث عدم انضباط السنة القمرية تماماً؛ فصحّ تعبير القرآن بزيادة تسعة أعوام بالدقة[3].

ووردت كلمة (البر) اثنتي عشرة مرّة، وكلمة (البحر) ومشتقاتها إحدى وأربعين مرّة، وهو موافق لنسبة الماء إلى اليابسة على الكرة الأرضية، إذ تبلغ مساحة اليابسة (٢٢/٥)، بينما تبلغ مساحة المياه

---

١ ـ الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، ص٨١، دار إحياء العلوم، ط١، بيروت، ١٩٨٨.

٢ ـ الكهف: ٢٥.

٣ ـ راجع التفهيم لأبي ريحان البيروني، ص٢٣٥، نقلاً عن التمهيد ص٥٥٢، فراجع.

(٧٧/٥). وورد لفظة (العزم) خمس مرّات، بعدد الأنبياء من أولي العزم، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمّد عليهم السلام. ووردت كلمة (شهر) بصيغة المفرد في القرآن اثنتي عشرة مرّة، وهو عدد أشهر السنة كاملة، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ﴾(١). ولعل المراد من (الكتاب) في هذه الآية هو القرآن الكريم، وأنّ الله تعالى أراد بذلك الإشارة إلى عدد ورود كلمة (شهر) فيه، والله أعلم.

فلا يبعد أن تدلّ هذه الأرقام العجيبة وهذه التوافقات الغريبة على هذا النوع من الإعجاز القرآني، ولسنا نشكّ في أنّ القرآن إنما يحكمه العدل والميزان؟ قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾(٢).

الأمر الذي يجعلنا نؤمن إجمالاً بهذا الإعجاز، وستكون لنا عودة إلى هذا النوع من الإعجاز القرآني في الفصل القادم من هذا البحث ـ إن شاء الله ـ في معرض الحديث عن محاولة المهندس (مهدي بازركان)، في بيان ترتيب نزول سور القرآن، التي ذكرها في كتابه الذي يربو على الأربعمئة صفحة، وهو بعنوان (سير تحول قرآن)، فقد اعتمد فيه طريقة عددية حسابية في هذا المجال أيضاً، الأمر الذي يرفع من رصيد الإعجاز العددي والحسابي في القرآن الكريم.

---

١ ـ التوبة: ٣٦.

٢ ـ الرحمن: ٧.

قال الإمام علي عليه السلام في وصف القرآن: (وإنّ هذا القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به)[1].

٨- مصادر تعليم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

يقوم اعتقاد المسلمين على أن مصدر الوحي الذي نزل على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله هو الله تعالى، كما نزل على من سبقه من الأنبياء، وليس النبيّ محمّد بدعاً من الرسل، قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾[2].

غير أن (نولدكه) بعد إنكاره أن يكون مصدر وحي النبي غيبياً، لم يبق أمامه من سبيل سوى البحث عن مصادر لهذا الوحي في دروبٍ أُخرى؛ فوصل به البحث إلى أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، قد حصل على مصادر وحيه من قنوات ثلاث، وهي: (اليهودية، والمسيحية، والوثنية).

اتهام نولدكه للنبي بالتأثر باليهودية والمسيحية:

قال (نولدكه) بشأن تأثر الإسلام باليهودية: (إنّ أكثرَ قصص

---

١ ـ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٥٣، ص٧٨ ـ ٧٩.

٢ ـ يونس: ٢.

الأنبياء في القرآن، لا بل الكثير من التعاليم والفروض، هي ذاتُ أصل يهودي)[1]. واستدلّ قائلاً: (نسوق مثالاً على ذلك، الشهادة المعروفة في الإسلام "لا إله إلا الله" وهي مستقاة من عبارة يهودية)[2].

وبشأن التأثير المسيحي على الإسلام، قال: (أما البعض الآخر منها [المواد] فلا شكّ في أنّ مصدره مسيحيّ، أعني بذلك التهجّد، وبعض أشكال الصلاة، ووصف الوحي بالفرقان، ما يمكن اشتقاقه من اللغة الآراميّة المسيحيّة)[3].

من الطبيعي أن يذهب (نولدكه) إلى هذا المذهب، وأن يتهم الإسلام بالتبعية والتأثر بالأديان السابقة، بعد إلغائه فكرة أن يكون مصدر الوحي في جميع الأديان سماوياً.

أما تبريرنا لهذا التشابه الموجود بين الأديان السماوية، فهو سهلٌ للغاية، ويتلخص في اعتقادنا بأنّ مصدر جميع الأديان واحد، فجميع الأنبياء عيالٌ وضيوفٌ على مائدة إلهيّةٍ واحدة؛ فلا غرابة بعد ذلك إذا وجدنا في الإسلام ما هو موجودٌ في المسيحيّة واليهودية، أو أن نجد في المسيحية ما هو موجود في اليهودية؛ فالأديان لا تسير على إيقاعٍ منفردٍ بعيداً عن بعضها، وهذا ما عبّر عنه (نولدكه) نفسه قائلاً:

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٧.

٢ ـ م.ن، ج١، ص٧.

٣ ـ م.ن، ج١، ص٨.

(سيفضي بنا البحثُ المتمعّن عمّا هو يهودي ومسيحي في القرآن إلى الاقتناع بأنّ التعاليم الأساسية التي يشترك فيها الإسلام والمسيحية هي ذات صبغةٍ يهودية)[1].

ونذكر هنا عبارة ساقها (نولدكه) في توجيه وتعزيز تعاليم مسيلمة الكذاب، إذ قال:

«تعاليم مسيلمة وتعاليم محمد متشابهة إلى حدّ كبير. وثمّة أمور هامّة مشتركة بين التعليمين، مثل الحياة الأبدية، واسم الرحمن لله، وأحكام الصيام، وتحريم الخمر، والصلاة اليومية الثلاث الثابتة، هذه القربى لا تقوم غالباً على كون مسيلمة أخذ تعليمه من الإسلام، بل بالأحرى على اعتماد كلا التعليمين في مواضع مختلفة على المسيحية»[2]!

أقول: يمكننا أن نستعير هذا الكلام من (نولدكه) في دفاعه عن استقلال (مسيلمة)، عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فنعكسه لإثبات استقلال النبي الأكرم، فنقول: (إنّ تعاليم محمد وتعاليم موسى وعيسى متشابهة إلى حدّ كبير، وإن هذه القربى لا تقوم غالباً على كون محمد أخذ تعليمه من اليهودية أو النصرانية، بل بالأحرى على اعتماد جميع هذه

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٧.

٢ ـ م.ن، ج١، ص٥١ ـ ٥٢.

الديانات في مواضع مختلفة على مصدر واحد هو وحي السماء).

لم يأت الإسلام ليعلنها حرباً شعواء لا هوادة فيها على كل ما هو مسيحيّ أو يهودي، بل دعا النبي الأكرم ﷺ إلى نفس ما دعا إليه أخواه موسى وعيسى عليهما السلام من الدعوة إلى التوحيد، وإخلاص العبادة لله، ونبذ مظاهر الشرك وعبادة الأوثان. ولم ينزل القرآن ليكون شغله الشاغل معاكسة الكتب السماوية، أو مخالفتها رغبة في الخلاف والخصومة، بل الأمر بعكس ذلك تماماً، فقد جاء للتصديق بها، مع إصلاح ما أصابها من تحريف المحرفين، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ (1)، وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾(2). كما نزل الإنجيل من قبلُ لتصديق التوراة قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾(3). فالمسألة ليست مسألة خلاف بمقدار ما هي مسألة وفاق ووئام، وإصلاح لمسيرة التوحيد، وتتميم لها في صعيدها التكاملي، وهداية الذين اختلفوا في الكتاب إلى الطريق القويم والصراط المستقيم،

---

١ ـ آل عمران: ٢ ـ ٣.

٢ ـ المائدة: ٤٨.

٣ ـ آل عمران: ٥٠.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ [1]. هذا وقد صرّح القرآن نفسه بأن ما جاء في القرآن، قد سبق أن جاء في الكتب المقدّسة السابقة أيضاً، إذ قال تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى** ﴾ [2].

ومع ذلك تبقى هناك ميزة للقرآن تميّزه من الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد، وقد أشار لها (مالك بن نبي) قائلاً:

> «لقد امتاز القرآن الكريم بميزة فريدة هي أنه تنقل منذ أربعة عشر قرناً دون أن يتعرّض لأدنى تحريفٍ أو ريبٍ. وليس هذه حال العهد القديم (التوراة) الذي لم تعترف له بالصحة، الدراسة النقدية للشرّاح المحدَثين، فيما عدا واحد من كتبه هو كتاب (أرمياء).. وليس العهد الجديد (الإنجيل) بأسعدَ حالاً منه، فقد ألغى مجمع أساقفة (نيقية) كثيراً من أخباره؛ مما زرع الشك حول ما تبقى منه.. وهو لا يعدّ الآن من الصحاح؛ لأنّ النقد أثبت أنه قد (وضع) بعد المسيح بأكثر من قرن، أي بعد عصر الحواريين الذين تنسب إليهم التعاليم المسيحية.. وعلى هذا يكون القرآن هو الكتاب الديني

---

١ ـ النمل: ٧٦.

٢ ـ الشورى: ١٣.

الوحيد الذي يتمتع بامتياز الصحة التي لا جدال فيها»[١].

وأما بشأن الكلمات العربية المستعملة في القرآن والتي لها ما يشابهها في الكتب اليهودية المكتوبة بالعبريّة، فهو أمر طبيعي جداً بعد أن كانت العربية والعبرية متفرعتين عن أصل واحد، فكلتاهما متفرعة من اللغة السامية، والعرب والعبريون ولدا عم، لا يختلفان كثيراً إلا في مستوى التسلح! وعليه لا يمكن غمز الإسلام من هذه القناة. إن التشابه بين العربية والعبرية بادٍ حتى على تسمية هاتين اللغتين، فهناك الكثير من المفردات المشتركة بين اللغتين، بل هناك تشابه حتى في الجمل والتراكيب والعبارات الطويلة، حتى لتكاد العبرية تكون لهجة من اللهجات العربية أو بالعكس، وهاك مثالاً من التوراة: (نابي أُقيم لاهيم مقارب آخيم كاموخاء الاواة يشماعون)[٢]، وتعني بالعربية: (نبياً أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك له يسمعون)[٣]. وعليه فالاختلاف بين العربية والعبرية كالاختلاف بين العبرية والعربية.

وعلى رغم ما تعرضت له الكتب السابقة من تحريفٍ ودسٍ وتزوير، فقد خرج من بين ركام هذه السدود والموانع التي ازدحمت

---

١ ـ ابن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، ص١٠٣ ـ ١٠٦، ط٤، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧.

٢ ـ التوراة، سفر التثنية، الإصحاح: ١٨.

٣ ـ المدرس، علاء الدين، الظاهرة القرآنية والعقل، ص١٥٩، مطبعة العاني، ط١، بغداد، ١٩٨٦.

عبر القرون في طريق التعاليم السماوية السابقة، شذرات وبشارات بنبي الإسلام.

بشارة الكتب المقدسة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله:

قال نولدكه: (أما سورة الصف التي يعِدُ فيها عيسى بأن الله سيرسل من بعده رسولاً اسمه أحمد، فلا أثر لها في العهد الجديد)[1].

نقول: هناك أمور وردت في القرآن، وكانت موجودة في الكتب السماوية السابقة أيضاً، ثمّ اختفت بعد تعرّض تلك الكتب للتحريف، من ذلك الآية الشريفة التي أشار لها الأستاذ (نولدكه)، وهي قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُم مُصَدِّقًا لِـمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾[2]. يضاف إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ**﴾[3]. ولكن كيف يكتب لها البقاء بعد تلاعب المتلاعبين. ومع ذلك بقيت هناك إشارات في تلك الكتب إلى صفة النبي لم تطلها يد التحريف، ومن ذلك الموارد الآتية:

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٩.

٢ ـ الصف: ٦.

٣ ـ الأعراف: ١٥٧.

بشارة التوراة بالنبي الأكرم ﷺ:

جاء في سفر التثنية: (أُقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أُوصيه به)[1].

ففي هذا الإصحاح، إشارة واضحة للنبي محمد ﷺ، وذلك للأمور الآتية:

١ ـ جملة: (أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم): تعني أنه ليس من بني إسرائيل؛ إذ لو كان من بني إسرائيل، لقال: (منهم) لا (من إخوتهم)، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْـمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾[2]. وإخوة بني إسرائيل هم العرب؛ لأن بني إسرائيل هم أولاد إسحاق بن إبراهيم، والعرب أولاد أخيه إسماعيل بن إبراهيم، وعليه فجملة (من وسط إخوتهم) تعني: (من أبناء إسماعيل).

٢ ـ كلمة (مثلك) أي صاحب شريعة مثل موسى، ولم يقم في بني إسرائيل نبيّ مثل موسى باعتراف التوراة نفسها، إذ جاء فيها: (ولم يقم بعد ذلك في بني إسرائيل مثل موسى)[3].

---

١ ـ التوراة، سفر التثنية، الإصحاح: ١٨.

٢ ـ آل عمران: ١٦٤.

٣ ـ التوراة، سفر التثنية، الإصحاح: ٣٤.

٣ ـ جملة: (أجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أُوصيه به).

أي أنه يقرأ كلام الله، ويخاطب به قومه مشافهة، لا من الصحف. فلا تنزل عليه ألواح، كما أنزلت التوراة على موسى عليه السلام [١].

وفي موضع آخر من التوراة، ورد قوله: (جاء الرّب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبل فاران)[٢].

وهذا النصّ ينطبق على النبي محمد صلى الله عليه وآله أيضاً، فقد ذكرت هذه البشارة مواطن الرسالات الثلاث، وهي (سيناء): الجبل الذي كلم الله فيه موسى تكليما. و(ساعير): أرض الخليل، وهي موطن عيسى. و(فاران): وهي مكة كما هو معلوم من كتب اللغة، وكتب أهل الكتاب.

ويشبه هذا النص قوله تعالى: ﴿ **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ** ﴾[٣]. فقد ذكر تعالى (التين والزيتون) وهما موطن عيسى، وكثيراً ما يرد اسم (جبل الزيتون) في الإنجيل، وذكر (طور سينين)، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى، وذكر مكة المكرمة بقوله: وهذا (البلد الأمين)؛ فجمع مواطن الرسالات الثلاث، كما في

---

١ ـ المدرّس، علاء الدين، الظاهرة القرآنية والعقل، ص١٦٠، مطبعة العاني، ط١، بغداد، ١٩٨٦.

٢ ـ التوراة، سفر التثنية، الإصحاح: ٣٣.

٣ ـ التين: ١ ـ ٣.

نصّ التوراة[١].

وجاء في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر التكوين: (نادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: ما لك يا هاجر؟ لا تخافي. إن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احملي الغلام وشدي يدك به؛ لأني سأجعله أُمّة عظيمة.. وكان الله مع الغلام، فكبر وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية (فاران)، وأخذت له أمه زوجة من مصر). والغلام المذكور هو (إسماعيل)، فقد جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين: (فولدت هاجر لإبرام إبناً، ودعا إبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر، إسماعيل). وإبرام هو إبراهيم، إذ جاء في الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين: (فلا يدعى اسمك بعد (إبرام) بل يكون (إبراهيم). وإسماعيل هو أبو العرب، ومحمد منهم. فسمى أمّة محمد عظيمة؛ فقد جاء في الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين: (وأما إسماعيل فقد سمعت لك منه، ها أنا أُباركه وأكثره كثيراً جداًّ)، والنص بالعبرية: (هني بيرفيتي اوتو وهربيتي اوتو بماد ماد)[٢].

قال ابن القيم في كتابه (هداية الحيارى من اليهود والنصارى):

---

١ ـ المدرس، علاء الدين، الظاهرة القرآنية والعقل، ص١٦٣ ـ ١٦٤، مطبعة العاني، ط١، بغداد، ١٩٨٦.

٢ ـ المدرس، علاء الدين، الظاهرة القرآنية والعقل، ص١٥٨، مطبعة العاني، ط١، بغداد، ١٩٨٦.

(وفي بعض نسخ التوراة القديمة ما ترجمته بالعربية: (وأما إسماعيل فقد قبلت دعاك، قد باركت فيه وأُثمره وأُكثره بماد ماد)، وقد اختلف فيه علماء أهل الكتاب، فطائفة يقولون: معناه (جداً جداً). وقالت طائفة أخرى: بل هي صريح اسم (محمد)، قالوا: ويدلّ عليه أن ألفاظ العبرانية قريبة من العربية، فهي أقرب اللغات إلى العربية، فإنهم يقولون لإسماعيل (شماعيل)، ولموسى (موشي)، وقدسك (قدش)، ونظائر ذلك أكثر من أن تذكر، فإذا أخذت لفظ (ماد ماد) وجدته أقرب شيءٍ إلى (محمد)، ويدل عليه أنه لا يقال: (أعظمه بجداً جداً)، بخلاف (أعظمه بمحمد)[1].

بشارة الإنجيل بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

١ ـ جاء في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا: (إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزياً آخر؛ ليمكث معكم إلى الأبد).

٢ ـ جاء في الإصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنا: (ومتى جاء المعزي الذي سأُرسله أنا إليكم من الأب روح الحقّ الذي من عند الأب ينبثق، فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً؛ لأنكم معي من الابتداء).

١ ـ المدرس، علاء الدين، الظاهرة القرآنية والعقل، ص١٥٩، مطبعة العاني، ط١، بغداد، ١٩٨٦.

٣ ـ وجاء في الإصحاح السادس عشر منه أيضاً: (ولكني أقول لكم الحقّ أنه خيرٌ لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي. ولكن إن أذهب أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطيّةٍ وعلى برٍّ وعلى دينونة... وأما متى جاء ذاك روح الحقّ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كلّ ما يسمع يتكلم به).

يستفاد من هذه الفقرات المذكورة في ثلاثة إصحاحات متتالية من إنجيل يوحنا، أن عيسى عليه السلام أراد من الله أن يبعث رسولاً يبقى معهم إلى الأبد، أي أن يكون دينه شاملاً أبدياً، وأن يكون هو خاتم الأنبياء، وأن تكون شهادته أفضل من شهادة الحواريين على عيسى عليه السلام، وأن يكون عالمياً، وأن يخبر عن الغيب، وهذه بأجمعها تنطبق على النبي محمد صلى الله عليه وآله (١).

ولابد من الالتفات إلى أن كلمة (المعزي) الواردة في الأناجيل المترجمة إلى العربية، وردت في أصلها اليوناني والتراجم العربية القديمة للإنجيل بـ (فارقليطا). ويبدو أنها مأخوذة من كلمة (بريكليتوس) اللاتينيّة بمعنى (أحمد). ولا يبعد أن النبي عيسى عليه السلام قد بشر بلفظ (أحمد)، وعندما ترجم الإنجيل من العبرية إلى اللاتينية، ترجمت كلمة (أحمد) إلى (بريكليتوس) وترجمت هذه الكلمة إلى العربية بـ(فارقليطا).

---

١ ـ المنتظري، حسين علي، من المبدأ إلى المعاد، ص١١٢ ـ ١١٣، تعريب: حسن علي حسن، ط١، المطبعة: قدس، ١٤٢٥هـ

هذا في حين أن القاعدة تقتضي عدم ترجمة الأسماء، وإبقائها على صورتها[1].

قال الأستاذ (عبدالوهاب النجار): سألت العلامة الكبير الدكتور (كارلو نللينو)[2] المستشرق الايطالي، الحاصل عل شهادة الدكتوراه في آداب اليهود اليونانية القديمة، وكان حينها متواجداً في مصر، عن معنى كلمة (بيريكلتوس)؟ فقال: إنّ القسس يقولون إن معناها: (المعزي).. فقلت: إني أسأل الدكتور (كارلو نللينو)، ولست أسأل قسيساً! فقال: معناها: (الذي له حمدٌ كثير). فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من (محمّد)؟ فقال: نعم. ثمّ أضاف قائلاً: يا أخي أنت تحفظ كثيراً[3]!

ثمّ إن ورود لفظ (فارقليط) في مختلف ترجمات الإنجيل الأخرى، يوضح المقصود. فهو في الإنجيل الحبشي (يمنقطيس)، وبالسريانية (المحمنا)، وباليونانية (بريكلتوس)، وكلها بمعنى (محمّد)[4]!

ومن هنا قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْـحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾[5].

---

١ ـ المنتظري، حسين علي، من المبدأ إلى المعاد، ص١١٣ ـ ١١٤، تعريب: حسن علي حسن، ط١، المطبعة: قدس، ١٤٢٥هـ

٢ ـ تقدّمت ترجمته في الفصل الأول من هذا البحث، فراجع.

٣ ـ المدرّس، علاءالدين، الظاهرة القرآنية والعقل، ص١٧٥ـ١٧٦، مطبعة العاني، ط١، بغداد.

٤ ـ المدرّس، علاء الدين، الظاهرة القرآنية، ص١٧٦، مطبعة العاني، ط١، بغداد، ١٩٨٦.

٥ ـ البقرة: ١٤٦.

(الفرقان) كلمة عربيّة أم آرامية؟

قال (نولدكه) في بيان تأثير المسيحية في الإسلام: (وصف الوحي بالفرقان، ما يمكن اشتقاقه من اللغة الآرامية المسيحية "فرقان" بمعنى: خلاص)[١].

وقال في هامش مذكور في الصفحة (٣٤):

«تأتي الكلمة [فرقان] كما الكلمة الأثيوبية (فِرقان) من الكلمة الآرامية. أما الكلمة [الفرقان] بمعنى وحي، فلا نعثر عليها في اللغة الآرامية، ما يجعلنا نفترض تطوّر هذا المعنى في إطار اللغة العربية. وإذا استبعدنا أن يكون محمّد قد أساء الفهم فقط، وجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار احتمال كون هذا التحوّل في المعنى قد حصل في إطار جماعة ساد فيها الرّجاء بالتحرر والخلاص، أي بالدرجة الأولى بين المسيحيين، وبالدرجة الثانية في دوائر يهودية ذات اتجاه مسياني. ويرتكب الكتاب المسلمون كثيراً من الأخطاء فيما يتعلق باشتقاق هذه الكلمة»[٢]!

وبناءً على هذه الفقرة الأخيرة، لم يبق للمسلمين إلا أن يتعلموا اشتقاقات لغتهم من المستشرقين أيضاً!.. ولا يقف (نولدكه) عند هذا

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٨.

٢ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٣٢، الهامش رقم: ٩٦.

الحد، بل يذهب إلى احتمال أن تكون كلمة (أسلم) مأخوذة من الآرامية، وذلك تقليداً لتربه (اجناس جولدسيهر) في دائرة المعارف اليهودية[1].

نقول: إن وصف الوحي بالفرقان المستعملة في اللغة الآرامية، لا يصلح دليلاً على تأثر الإسلام بالمسيحية، بعد أن كانت كلمة (الفرقان) عربيّة أصيلة، قال ابن منظور الإفريقي: (الفرقان: كلّ ما فرقَ به بين الحقّ والباطل.. والفُرْقُ أيضاً: الفرقان، ونظيره: (الخسْرُ والخسران). والفرقان من أسماء القرآن، أي أنه فارقٌ بين الحقّ والباطل، والحلال والحرام. وفي الحديث: (محمّدٌ ﷺ فرْقٌ بين الناس) أي يفرق بين المؤمنين والكافرين بتصديقه وتكذيبه. وفي التنزيل: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْـجَمْعَانِ﴾ [2] وهو يوم بدر؛ لأنّ الله أظهر من نصره ما كان بين الحقّ والباطل. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[4]. فسمّى جلّ ثناؤه الكتاب المنزل على محمد ﷺ فرقاناً، وسمّى الكتاب المنزل على موسى عليه السلام فرقاناً، والمعنى أنه تعالى

١ ـ أنظر: نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص١٩، الهامش رقم: ٣٩.

٢ ـ الأنفال: ٤١.

٣ ـ الأنبياء: ٤٨.

٤ ـ القرة: ٥٣.

فرق بكلّ واحدٍ منهما بين الحقّ والباطل[١].

وجاء في كتاب (تاريخ القرآن) للدكتور (محمود راميار): إن استعمال كلمة (الفرقان) في معنى (النجاة) على لغة هذيل، أدّى ببعض إلى اعتقاد اشتقاقها من اللغة الآراميّة إذ يلفظونها (purqan)، إلا أنّ هذا لا يصلح دليلاً على أنّها مأخوذة من اللغة الآرامية، بعد أن كانت اشتقاقاتها ومعانيها في العربية كثيرة. فقد استعملت في الفرق، والنصر، والحجّة، ولم تستعمل بمعنى (النجاة)، أو (الإنقاذ)، إلا عند هذيل. ومهما كان، فقد ذهب أساطين اللغة العربية كـ (ابن السبكي)، و(ابن دريد)، و(ابن حجر)، و(السيوطي) إلى أصالة هذه الكلمة في اللغة العربية، ومنعوا أن تكون من المعرّبات[٢].

جدير ذكره أن (بلاشير) اعتماداً منه على التفسير المتقدّم، عمد إلى ترجمة كلمة فرقان إلى (Salvation) في الترجمة التي وضعها للقرآن بالفرنسية. وتعني التخليص من الخطيئة، كما عمد (رودي باريت) إلى ترجمتها في اللغة الألمانية إلى (Rettung)، بنفس المعنى السابق، وهو ما نرفضه بشدة[٣]. وذلك بسبب من الاختلاف الماهوي بين المسيحية

١ ـ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ج١٠، ص٣٠٢ ـ ٣٠٣، دار الفكر، ط١، ١٤١٠هـ بيروت.

٢ ـ أنظر: راميار: محمود، تاريخ القرآن، ص٢٣ ـ ٢٤، انتشارات أمير كبير، طهران، ١٣٧٩ش.

٣ ـ أنظر: بدوي، عبدالرحمن، الدفاع عن القرآن ضدّ منتقديه، ص٦٢، مكتبة مدبولي الصغير.

والإسلام في هذه الناحية تحديداً، فإنّ الفكرة المسيحية القائلة بأنّ جميع أفراد البشرية قد ورثوا مسؤولية الخطيئة التي ارتكبها آدم في الجنة، وأنّ المسيح قد خلص الإنسانية من خلال تضحيته بنفسه، تقابلها الفكرة الإسلامية القائلة بأنّ كلّ إنسان لا يتحمل إلا عاقبة عمله، وهذا ما صرّح به القرآن الكريم مراراً إذ يقول: ﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [1]، و﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [2]، و﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [3]، و﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [4]، و﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [5].

وبذلك فإنّ الإسلام يقف على طرف النقيض من المسيحية، فضلاً عن أن يكون متأثراً بها.

١- الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧، النجم: ٣٨.

٢- الإسراء: ١٥.

٣- فاطر: ١٨.

٤-الزمر: ٧.

٥- النجم: ٣٦- ٣٨.

(لا إله إلا الله) كلمة الإسلام:

مثل (نولدكه) في معرض إثبات دعواه القائلة بتأثر القرآن بالتراث اليهودي بشهادة (لا إله إلا الله) المعروفة في الإسلام، وقد أشار إلى موضعهما من التوراة في الفقرة ٣٢ من كتاب صموئيل الثاني، والمزمورين ١٨ و٣٢ من مزامير داود[1].

وعليه لابد من استعراض هذين النصين، للوقوف على مدى ما يتمتع به الأستاذ (نولدكه) من المصداقية.

تقول الفقرة الواردة في كتاب صموئيل الثاني: (لأنه من هوَ إلهٌ غير الربّ ومن هو صخرة غيرُ إلهنا).

وتقول فقرة المزامير: (أحبّك يا ربُّ يا قوّتي، الربّ صخرتي وحصني ومنقذي، إلهي صخرتي به أحتمي...)!

وكما ترى فإنّه ليس هناك أدنى شبه بين كلمة التوحيد الإسلامية، وشيءٍ مما جاء في مزامير داود، أما فقرة صموئيل الثاني، فيمكننا الوقوف قليلاً عند كلمة (إلهنا)، التي يفهم منها نوع من الاختصاص، وهو منسجمٌ مع الفكر اليهودي القائل بأنهم شعب الله المختار، فإن جشعهم يقتضي منهم احتكار حتى (الله) لأنفسهم، وأين ذلك من كلمة الإسلام (لا إله إلا الله) التي تثبت التوحيد لله تعالى على

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٧ ـ ٨.

الإطلاق، فهو إلهنا وإله غيرنا، إله الأنام والأنعام، وإله النبات والجماد، ولا معبود سواه.

وبعد ذلك هل يمكن لشخص غير (نولدكه) وأضرابه، أن يشك في عدم تأثر القرآن بالمصادر اليهودية المزعومة؟!

هل للبسملة أصلٌ إنجيلي؟!

يقول نولدكه: (أما صيغة الافتتاحة "بسم الله" التي يختصرها العرب بـ (التسمية) أو (البسملة)، فتعود إلى لغة الكتاب المقدّس)[1]. ويقول: إن الأصل العبري للعبارة هو: "باسم يهوا" (yahwa bishm) .

يقول عبدالرحمن بدوي: بحثت دون جدوى في العهد القديم عن عبارة:

(yahwa bishm) كعبارة صلاة وابتهال لله، مثلما هو الحال بالنسبة للبسملة في القرآن. والموضع الوحيد الذي استعملت فيه هذه العبارة في العهد القديم، حيث يقول: (ثمّ تدعون باسم آلهتكم، وأنا أدعو باسم الربّ يهوا)[2].

يظهر جلياً أن ليس هناك أيّ تشابه في هذه الفقرة التوراتية مع

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص١٠٤.

٢ ـ العهد القديم، سفر الملوك الأول، الإصحاح الثامن عشر، الفقرة: ٢٤.

البسملة. وقد استعملت عبارة (yahwa bishm) في موضع آخر من التوراة لا بمعنى الابتهال، حيث قال: (فقال داود للفلسطيني أنت تأتي إليّ بسيفٍ وبرمح وبترس. وأنا آتي إليك باسم ربّ الجنود)[١]. وهذا هو معنى عبارة (yahwa bishm) في عدة مواضع من العهد القديم (مثلاً: أيوب ١ ـ٢١، المزامير). وبما أن هذه المواضع لم تستعمل فيها العبارة بمعنى الابتهال، فإنها خارج نطاقنا.

أما فيما يتعلق بالعهد الجديد، فإن (نولدكه) يعيد إلى رسالة (بولس الرسول) إلى أهل كولوسي: (وكل ما عملتم بقول، أو فعل، فاعملوا الكلّ باسم الربّ يسوع شاكرين الله والأب به)[٢].

فلنتساءل الآن: ما علاقة هذه الآية بالبسملة؟ لا علاقة! ولكن تعنت (نولدكه) لا حدود له، وها هو يواصل قوله: (هذا ما يجعلنا نفترض أن الموضعين الوحيدين اللذين توجد فيهما البسملة[٣]، بصرف النظر عن عناوين السور، يرجعان بلا لبس إلى مصادر يهودية)[٤].

١ ـ العهد القديم، سفر صموئيل الأول، الإصحاح السابع عشر، الفقرة: ٤٥.

٢ ـ العهد الجديد، رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي، الإصحاح الثالث، الفقرة: ١٧.

٣ ـ يعني بذلك الآية الحادية وأربعين من سورة نوح، والآية الثلاثين من سورة النمل، ويبدو جلياً أن نولدكه لا يعتبر البسملات الواردة في بداية السور، وحتى الفاتحة منها، من أجزاء القرآن.

٤ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص١٠٤.

ولكنه لا يذكر أيّ مصدر يهودي، مما يدلّ على أن ادعاءه لا أساس له من الصحّة، ولهذا لم يورد كارا دي فو(Carra De Vaua) في فصل البسملة، ووالس (A. T. Welech) في فصل القرآن هذا الزعم من قبل (نولدكه)، ضمن مقالات: (Encyclopedia de I`Islam)[١].

موازنة بين القرآن والأناجيل:

نرى قبل إغلاق ملف هذا الموضوع أن نجري مقارنة بين كتب العهدين والقرآن في ضوء معطيات العلم الحديث، مكتفين في ذلك بنقل كلام المستشرق الفرنسي موريس بوكاي صاحب كتاب (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم) الذي هو دراسة مقارنة في الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة، وسننقل كلامه في العنوانين التاليين مكتفين في الأول منه بقصة العذراء مريم، وفي الثاني بقصة طوفان نوح على النحو الآتي، يقول:

(إن سورة آل عمران، وسورة مريم تخصّصان فقرات طويلة لأسرة المسيح، وترويان مولد أُمّه (مريم) وصباها، وإعلانهما بأمومتها الخارقة. والمسيح يُسمّى دائماً في القرآن (ابن مريم) حيث يعطيه النسب من جهة أُمّه أساساً، وذلك أمرٌ منطقيّ تماماً؛ إذ ليس للمسيح أبٌ بيولوجي، وهنا ينفصل القرآن عن إنجيلي (متى) و(لوقا) اللذين

---

١ ـ بدوي، عبدالرحمن، الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، ص١٠٥ ـ ١٠٦، مدبولي الصغير.

يعطيان للمسيح نسبين من جهة الذكور، وهي بالإضافة إلى ذلك مختلفة!

ورد في القرآن: ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [1]. المسيح إذن سليل نوح وإبراهيم من أُمه مريم، وأبي هذه أي عمران. ولا يجد قارئ القرآن أخطاء في الأسماء، كتلك التي يجدها في الأناجيل، ونعني الأخطاء الخاصة بأسلاف المسيح... ومرّة أخرى تفرض الموضوعية أن نشير إلى ادّعاء هؤلاء الذين يقولون بلا أساس: (إنّ محمداً مؤلف القرآن، قد نقل كثيراً من التوراة)! ولو كان ذلك حقاً لتساءلنا: من الذي دفعه، أو ما الحجّة التي أقنعته بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح؟ وبإدخال تصحيح في القرآن يضع نصّه بعيداً عن أي مرمىً نقدي تثيره المعارف الحديثة، على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرّة من وجهة النظر هذه؟!)[2].

موازنة بين القرآن والتوراة:

قال (موريس بوكاي): (هناك روايتان في التوراة عن الطوفان،

---

١ ـ آل عمران: ٣٣.

٢ ـ بوكاي، موريس، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص٢٥٥ ـ ٢٥٦، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦.

وليست رواية واحدة فقط:

ـ الرواية اليهووية: (Yahvist version) ، التي ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

ـ الرواية الكهنوتية: (Sacerdotal version)، التي ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، والتي أخذت هذا الاسم لكونها مؤلّف لكهنة ذلك العصر.

وبين النصين تناقضات صارخة... إن رواية الطوفان في العهد القديم غير مقبولة في إطارها العام وذلك لسببين، يتضحان في ضوء المعارف الحديثة:

أ ـ يعطي العهد القديم للطوفان طابعاً عالمياً.

ب ـ تحدد الرواية الكهنوتية زمن الطوفان في عصر لم يكن من الممكن أن تقع به كارثة من هذا النوع.

وذلك لأن الرواية الكهنوتية تقول: إن الطوفان قد حدث عندما كان عمر نوح ٦٠٠ عام. غير أنه من المعروف بحسب الأنساب المذكورة في الإصحاح الخامس من سفر التكوين أن نوحاً قد ولد بعد آدم بـ ١٠٥٦ عاماً (وهذه الأنساب كهنوتية المصدر أيضاً). وينتج عن ذلك أن الطوفان قد وقع بعد ١٦٥٦ عاماً من خلق آدم. ومن ناحية أخرى نجد أن جدول نسب إبراهيم الذي يعطيه سفر التكوين[١]

١ ـ الإصحاح: (١١: ١٠ ـ ٣٢).

يسمح بتقدير أن إبراهيم قد ولد بعد الطوفان بـ٢٩٢ عاماً.

ولما كنا نعرف بحسب المصدر نفسه أن إبراهيم كان يعيش في حوالي ١٨٥٠ ق.م. وبذلك نحصل على زمن آخر للطوفان بحسب التوراة هو (٢١٠٠ ـ ٢٢٠٠ سنة) قبل المسيح. وهذا الحساب يتفق بمنتهى الدقة مع إشارات كتب التوراة القديمة التي تحتل فيها هذه التحديدات التاريخية المتسلسلة مكاناً طيباً قبل نص التوراة، وذلك في عصرٍ كان الافتقاد إلى المعلومات الإنسانية في هذا الموضوع يجعل معطيات هذا التسلسل التاريخي للأحداث مقبولة بلا جدال لدى قرائها، إذ أنه لم يكن هناك أيضاً حجج مضادّة(١).

كيف يمكن اليوم تصوّر أن كارثة عالمية قد دمّرت الحياة على سطح الأرض (باستثناء ركاب السفينة) في القرن ٢١ أو ٢٢ ق.م؟ ففي ذلك العصر كانت هناك على نقاط عدة من الأرض حضارات قد ازدهرت وانتقلت أطلالها إلى الأجيال التالية. وبالنسبة إلى مصر على سبيل المثال، كان ذلك في الفترة الوسطى التي تلت نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى. وبالنظر إلى ما نعرفه عن تاريخ هذا العصر، فإنه يكون من المضحك القول بأن الطوفان قد دمر كل الحضارات.

---

١ ـ منذ أن حصل المتخصصون على بعض المعلومات عن تسلسل الأحداث في العصور القديمة، ومنذ كفت هذه الحوليات الوهمية لكتاب العهد القديم من الكهنوتيين عن أن تكون موضع تصديق، سارع المسؤولون إلى حذفها من كتب التوراة.

وعليه فإن رواية الطوفان على نحو ما تقدمه التوراة تتناقض مع المعارف الحديثة بشكل واضح، كما أن وجود روايتين دليل حاسم على تعديل البشر للكتاب المقدس.

وأما القرآن فإنه يقدم رواية شاملة ومختلفة، لا تثير أي نقدٍ من وجهة النظر التاريخية. فهناك سور عديدة تتحدّث عن العقاب الذي وقع على شعب نوح، ففي الوقت الذي تتحدّث فيه التوراة عن طوفان عالمي لعقاب كل البشرية الكافرة، يشير القرآن إلى عقوبات عديدة نزلت على جماعات محددة، كما في النص الآتي:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَـمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ (١).

وعلى ذلك فالقرآن يقدم كارثة الطوفان باعتبارها عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح، وهذا يشكل الفرق الأساسي الأوّل بين الروايتين.

أما الفرق الجوهري الثاني فهو أن القرآن بعكس التوراة لايعطي أي إشارة عن مدّة الكارثة نفسها.

---

١ ـ الفرقان: ٣٥ ـ ٣٩.

وعليه يصبح واضحاً تمام الوضوح عدم إمكان اتفاق رواية التوراة في تقديمها للطوفان بزمنه ومدّته، مع مكتسبات المعرفة الحديثة. وعلى العكس من ذلك فإنّ رواية القرآن تتضح خالية من أي عنصر مثير للنقد الموضوعي. فمن عصر رواة التوراة إلى عصر تنزيل القرآن، هل حصل الناس على معلومات من شأنها أن تلقي نوراً على حدث مثل هذا؟ بالتأكيد لا، فمن العهد القديم إلى القرآن كانت الوثيقة الوحيدة التي في حوزة الناس عن هذه الحكاية القديمة هي التوراة بالتحديد. وإذا لم تكن العوامل الإنسانية تستطيع أن تشرح التغيّرات التي طرأت على الروايات لتتجه بها إلى التوافق مع المعارف الحديثة؛ فيجب أن نقبل شرحاً آخر، وهو "أنّ هناك تنزيلاً من الله قد جاء بعد التنزيل الذي تحتوي التوراة عليه")[1].

ثمّ أضاف موريس بوكاي قائلاً: (ومرّة أخرى تقتضينا الموضوعية أن نشير إلى افتراء وادّعاء أولئك الذين يقولون كذباً ودون أيّ أساس أو مستند صحيح أن محمداً ﷺ هو مؤلف القرآن، وقد نقل كثيراً من نصوص التوراة، ونقل من الأناجيل. ولو كان ذلك صحيحاً، فلماذا لم ينقل محمد ﷺ سلسلة نسب المسيح كما وردت في الأناجيل؟ وما الذي جعل محمداً لا يدخل في نصوص القرآن الأخطاء

---

١ ـ بوكاي، موريس، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، صص٢٦٠ ـ ٢٦٣، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦.

التي نلاحظها في الكتاب المقدس؟ على حين أن نصوص التوراة ونصوص الأناجيل تغصّ بالأخطاء غير المقبولة منطقياً وعلمياً، ولا يمكن الدفاع عنها بأيّ حال. بينما القرآن يخلو تماماً من هذه الأخطاء!

قال المستشرق (لودفيكو ماراشي)، وهو من أشهر من بادر إلى ترجمة القرآن في ديباجة كتابه: (Prodomus):

«إنّ [الديانة] الإسلامية قد حافظت على كلّ ما هو معقول ومقنع مما جاء في الديانة المسيحية، إضافة إلى كلّ ما يبدو لنا متناسقاً مع قانون الطبيعة. ونبذت من حقائقها كلّ ألغاز الإنجيل التي تبدو لنا صعبة التصديق والمنال. كما تخلصت من كلّ القواعد الأخلاقية العسيرة على الإنسانية التي نجدها في المسيحية... وبالتالي فإننا نجد أن الكفار اليوم لا يجدون صعوبة في التخلي عن معتقداتهم الوثنية لاعتناق الإسلام على عكس ما هو عليه الحال لو طُلبَ منهم اعتناق المسيحيّة»[1].

نسبة الأخطاء التأريخية للقرآن الكريم:

على الرغم مما تقدم من براءة القرآن من الأخطاء التاريخية التي وقع فيها العهد القديم، نجد المستشرقين يصرون على وجود أخطاء تأريخية في القرآن الكريم، على غرار المثل القائل: (رمتني بدائها

١ ـ بدوي، عبد الرحمن، الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، ص١٥٣، مكتبة مدبولي الصغير.

وانسلت). من ذلك أنهم يتهمون القرآن بالخطأ في تحديد المرحلة الزمنية التي كان يعيش فيها (هامان)، فبينما ينسبه القرآن الكريم إلى البلاط المصري الفرعوني تذهب الرواية التوراتية إلى نسبته إلى البلاط الفارسي الهخامنشي، والقول بأنّ هامان هو وزير (أخشويروش)، على ما هو موجود في سفر أستير، وبذلك تقدر الفاصلة الزمنية بين (هامان) فرعون، و(هامان) أخشويروش بحدود أحد عشر قرناً.

وقد أشار إلى هذا الموضوع الأسقف لودفيكو ماراتشي. فقال: (لقد خلط محمد بين قصص الكتاب المقدّس. من ذلك أنه اعتبر هامان وزيراً لفرعون، في حين أنه لم يكن في الواقع سوى وزيراً لأخشويروش).

وفي ذلك قال (ثيودور نولدكه) في مقالة له ـ نشرت عام ١٨٩١م في دائرة المعارف البريطانية ـ بأسلوب فج: (حتى أغبى الأغبياء من اليهود لا يخلط بين هامان [وزير أخشويروش] وبين وزير فرعون)[1].

ولما كانت التوراة أقدم عهداً من القرآن الكريم، فقد ذهب المستشرقون ـ كما تقدم ـ إلى القول بتأثر النبي في تأليف القرآن بالتوراة! وكان من بين ما تأثر به هو شخصية هامان، ولكنه أخطأ في تحديد الظرف الزماني والمكاني الذي كان يعيش فيه هذا الرجل.

---

1 - Noldeke, Theodor, "The Koran", Encyclopedia Britannica, V. 16, p. 600.

ولنسلم هنا جدلاً باستحالة أن يكون هناك شخصان يحملان اسم هامان يعيشان في فترتين زمنيتين مختلفتين وينتميان لحضارتين مختلفتين، وإنما هناك شخص واحد فقط إسمه هامان حملته أمه وعقمت النساء بعده عن أن يلدن مثله، كما هو مفروض دعوى اتهام القرآن من قبل البعض والتي يأخذونها أخذ المسلمات.

وعليه نقول: إذن نحن هنا أمام شخصية واحدة، تختلف الرواية التوراتية والقرآنية في تبنيها، وعليه لا بد من الرجوع إلى المصادر التأريخية المستقلة لحسم هذا النزاع. ولكن قبل الدخول في بيان الحلول التفصيلية نجد من الضروري التنويه بأنّ إسم هامان قد ذكر في القرآن الكريم مقروناً إلى فرعون ست مرات، ثلاثة منها قي سورة القصص، ومرتان في سورة غافر، ومرة واحدة في سورة العنكبوت، وذلك على النحو الآتي:

١ ـ ﴿ وَنُمَكِّنَ لَـهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (١).

٢ ـ ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَـهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (٢).

---

١ – القصص: ٦.

٢ – القصص: ٨.

٣ ـ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١).

٤ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (٢).

٥ ـ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ (٣).

٦ ـ ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ (٤).

بينما لم يرد ذكر هامان إلا في سفر أستير من الكتاب المقدّس. وذلك ابتداءً من الإصحاح الثالث، إذ جاء فيه: (بَعْدَ هذه الأُمُورِ عَظَّمَ الْمَلِكُ أَحَشْوِيرُوشُ هَامَانَ بْنَ هَمَدَاثَا الأَجَاجِيَّ وَرَقَّاهُ، وَجَعَلَ كُرْسِيَّهُ فَوْقَ جَمِيعِ الرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ مَعَهُ)(٥).

---

١ - القصص: ٣٨.

٢ - غافر: ٢٣- ٢٤.

٣ - غافر: ٣٦- ٣٧.

٤ - العنكبوت: ٣٩.

٥- العهد القديم، سفر أستير، الإصحاح الثالث، الفقرة: ١.

ولكي نصل إلى نتيجة حاسمة بشأن هامان في نسخته التوراتية ليس أمامنا من جهد سوى تمحيص حقيقة سفر أستير، فإذا سقط هذا السفر عن الاعتبار تسقط معه شخصية هامان الواردة فيه تلقائياً، فنبقى حينها نحن والرواية القرآنية فقط، لنستوضح جلية الأمر فيها لاحقاً.

يبدأ سفر أستير من العهد القديم بمشهد يظهر فيه الملك الفارسي (أخشويروش) محتفلاً بالذكرى السنوية الثالثة لجلوسه على العرش. ومن ثمّ طلب إلى زوجته الملكة (وشتي) المشاركة في الأفراح والظهور على الملأ، ليرى الشعب والوزراء جمالها، ولكنها تمنعت ولم تمتثل لأمر، فثارت ثائرة الملك، وانتهى الأمر بطلاقها، ثم أخذ يبحث عن زوجة أخرى لتحل محل (وشتي) فوقع اختياره على فتاة جميلة يهودية من سبي بابل اسمها (أستير)، وكان لها ابن عم يتولى رعايتها يدعى (مردخاي)، وقد طلب منها أن تكتم أمرها على الملك، فلا تكشف له عن هويتها اليهودية .. وفي الإصحاح الثالث من هذا السفر تبرز شخصية هامان على ما مرّ في الفقرة المتقدمة، وهو شخص مغرور ومتكبر يسجد له أفراد الشعب كافة، إلا أنّ مردخاي لم يسجد له، الأمر الذي أثار حفيظته فقرر الوقيعة بين الملك وبين اليهود وأخذ منه أمراً بإبادة جميع اليهود، ولكي يحدد اليوم الذي يباشر فيها عملية الإبادة أمر هامان أعوانه بإلقاء فوراً أي قرعة فوقعت على اليوم الثالث عشر من الشهر الثاني عشر وهو شهر أذار، ولكن كيده ارتدّ

عليه بعد أن جازفت أستير بأمر من ابن عمها مردخاي وكشفت للملك عن هويتها وأنه إذا كان ولا بدّ من تنفيذ أمر الإبادة فإنها ستقتل أسوة ببقية أبناء شعبها من اليهود، ولما كانت أثيرة عند الملك فقد تحوّل غضبه على هامان، فصلبه على ذات الخشبة التي كان قد أعدها لصلب مردخاي في الثالث عشر من شهر أذار، ومن هنا كانت أعياد الفوريم عند اليهود في اليومين التاليين لهذا اليوم، وهما الرابع عشر والخامس عشر من شهر أذار، وفي ذلك تقول التوراة: (وَلأَنَّ هَامَانَ بْنَ هَمَدَاثَا الأَجَاجِيَّ عَدُوَّ الْيَهُودِ جَمِيعًا تَفَكَّرَ عَلَى الْيَهُودِ لِيُبِيدَهُمْ وَأَلْقَى فُوراً، أَيْ قُرْعَةً، لإِفْنَائِهِمْ وَإِبَادَتِهِمْ. وَعِنْدَ دُخُولِهَا إِلَى أَمَامِ الْمَلِكِ أَمَرَ بِكِتَابَةٍ أَنْ يُرَدَّ تَدْبِيرُهُ الرَّدِيءُ الَّذِي دَبَّرَهُ ضِدَّ الْيَهُودِ عَلَى رَأْسِهِ، وَأَنْ يَصْلِبُوهُ هُوَ وَبَنِيهِ عَلَى الْخَشَبَةِ. لِذلِكَ دَعَوْا تِلْكَ الأَيَّامَ «فُورِيمَ» عَلَى اسْمِ الْفُورِ. لِذلِكَ مِنْ أَجْلِ جَمِيعِ كَلِمَاتِ هذِهِ الرِّسَالَةِ وَمَا رَأَوْهُ مِنْ ذلِكَ وَمَا أَصَابَهُمْ، أَوْجَبَ الْيَهُودُ وَقَبِلُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى نَسْلِهِمْ وَعَلَى جَمِيعِ الَّذِينَ يَلْتَصِقُونَ بِهِمْ حَتَّى لاَ يَزُولَ، أَنْ يُعَيِّدُوا هذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ حَسَبَ كِتَابَتِهِمَا وَحَسَبَ أَوْقَاتِهِمَا كُلَّ سَنَةٍ)[1].

ولبيان حقيقة الأمر فيما يتعلق بشخصية هارون في الرواية التوراتية والقرآنية نقول: إننا هنا لا نستطيع الإعتماد على فرضيات المستشرقين، وكذلك لا نروم الإجابة عن هذه الشبهة انطلاقاً من

---

١ - العهد القديم، سفر أستير، الإصحاح التاسع، الفقرة: ٢٤- ٢٧.

الاعتقاد الصرف للمسلمين القائم على أحقية القرآن الكريم، بل نسعى إلى ردّ هذه الدعوى، وإثبات الرؤية القرآنية بالاستناد إلى الأسلوب التحليلي التأريخي؛ ليكون ذلك حجّة على المسلمين وغير المسلمين على السواء.

هامان وسفر أستير في مواجهة التحدّيات التاريخية:

قبل بيان التشكيك في تاريخية سفر أستير، يجدر بنا التنويه مرة أخرى إلى أنّ هذا السفر هو وحده الذي ينفرد في ذكر هامان بوصفه وزيراً لأخشويروش، فلم يرد ذكر له في أي موضع آخر من الكتاب المقدّس، كما لم يرد في أي مصدر مستقل آخر. ولم يرد في أيّ مصدر من المصادر التأريخية الإيرانية اسم لهامان بوصفه وزيراً لأخشويروش، وإعدامه على يده وبأمر منه على النحو المذكور في سفر أستير[١]. وهكذا فقد توصلت دائرة المعارف البريطانية إلى هذه النتيجة: إنّ قصّة أستير وأبطالها لم ترد في المصادر التأريخية، وبذلك أقفلت قضية هذا السفر وشخصية هامان الواردة فيه، وحكم عليها بوصفها أسطورة من صنع خيال مؤلفها[٢].

١ - أنظر: محمد خزاعلي، أعلام القرآن، ص٦٦٠؛ ومحمد هادي معرفت، التمهيد في علوم القرآن، ج٧، ص٣٧٧.

٢ - See "Haman" in Encyclopedia Iranica, p. 629.

من هنا لا بدّ من الإجابة عن هذا السؤال: ما هي الدعامة التأريخية التي يستند إليها هذا النصّ اليتيم الذي يسمّي هامان بوصفه وزيراً لخشايار شاه؟ يجب القول بإنّ هناك شكوك كثيرة تحوم حول تأريخية سفر أستير! فقد اعترف الكثير من المحققين الغربيين بأنّ سفر أستير لا يتمتع بوجود تأريخي وخارجي، وهو أقرب إلى الرواية الخيالية.

كما أقرّت دائرة المعارف اليهودي بالقول: هناك نزر يسير من المحققين المعاصرين الذين يرون لسفر أستير حاضنة تأريخية. وهناك بالمقارنة إلى هؤلاء جمع غفير من مفسري وشرّاح العهد القديم توصّلوا إلى نتيجة مفادها أنّ سفر أستير لا يعدو أن يكون أسطورة وقصة خيالية، رغم محاولة بعض المؤلفين إلى نقد هذه الرؤية من خلال القول باعتبار هذا السفر رواية تأريخية(١).

وقد ذكرت دائرة المعارف اليهودية العالمية جانباً من الأمثلة التي لفتت إنتباه المحققين بشأن المحتوى التأريخي لسفر أستير، على النحو الآتي:

يذهب أكثر المحققين إلى القول بأن سفر أستير أسطورة ورواية تعكس آداباً وسنناً معاصرة ألبست ثوباً تأريخياً وطابعاً تراثياً لتنجو من النقد والهجوم عليها. وذكروا أنّ هناك مفارقة واضحة وعجيبة إذ

1 - The Jewish Encyclopedia, "Esther", Volume V. 5, pp. 235- 236.

هناك فرق كبير بين أن يحكم خشايار شاه على مئة وسبعٍ وعشرين كورة كما يذكر سفر أستير، وبين ما يثبته التأريخ الإيراني نفسه لخشايار شاه وأنه حكم على عشرين كورة فقط. كما أنه من المحيّر والمدهش أن تتمكن أستير من التكنم على هويتها ويهوديتها، مع معرفة الجميع بيهودية مردخاي وكونه ابن عمها والقيّم عليها في الوقت نفسه. يضاف إلى ذلك أنه من غير الممكن لغير الفارسي أن يصبح وزيراً في البلاط الإيراني، ولا لغير الفارسية أن تغدو ملكة على الإيرانيين. هذا ولو كانت أحداث هذه الرواية قد وقعت بالفعل، فمن المستحيل أن تغيب عن أعين المؤرخين الذين رصدوا تلك المرحلة بحذافيرها، ودققوا في كلّ واردة وشاردة منه.

وبالتالي فإنّ أسلوب هذا السفر وبناءه الأدبي أقرب إلى الصياغة الأدبية والقصة العاطفية والرومانسية منه إلى الوقائع والحقائق التأريخية. بل هناك من المحققين من ذهب إلى القول بأنّ جذور هذا النصّ الأدبي تعود إلى مصادر أجنبية وبعيدة كلّ البعد عن اليهودية(١).

قال صموئيل كندي إدي معلقاً على سفر أستير:

(يمكن لسفر أستير أن يكون أيّ شيء باستثناء أن يكون حقيقة تأريخية، فهو قصّة أسطورية كان الهدف الظاهري منها تبرير الاحتفال

1 - See "Esther" in The Universal Jewish Encyclopedia, V. 4, p. 170.

في أيام الفوريم[1]، وإحداث حقيقة تأريخية لهذه الأعياد .. كما يزوّدنا سفر أستير بمعلومات جغرافية خاطئة عن بلاد فارس، فقد جاء في هذا السفر: (هُوَ أَحَشْوِيرُوشُ الَّذِي مَلَكَ مِنَ الْهِنْدِ إِلَى كُوشٍ عَلَى مِئَةٍ وَسَبْعٍ وَعِشْرِينَ كُورَةً)[2]! في حين أنه لم يملك ـ بحسب المصادر التأريخية الفارسية المستقلة ـ إلا على سبع وعشرين كورة فقط)[3].

كما يذهب (صموئيل كندي) إلى القول بأنّ سفر أستير مفعم بالأفكار والصور المقتبسة من الأساطير والأدبيات البابلية؛ ذلك أنّ فكرة غلبة الأنثى على ملك أجنبي أقرب إلى المزاج البابلي في القرن

---

١ - الفوريم كلمة عبرية تعني القرعة، ويطلق الفوريم على يومين من أيام السنة، وهما: اليوم الرابع عشر من شهر أذار واليوم الخامس عشر منه في كلّ سنة، وقد اتخذ اليهود هذين اليومين عيداً لهم لمناسبة رفع خطر الإبادة عنهم بموجب مؤامرة حاكها لهم هامان بن همداثا الأجاجي. والوجه في تسمية هذا العيد بـ (فوريم) أنّ هامان قد ضرب القرعة لتحديد اليوم الذي يباشر فيه الملك إبادة الشعب اليهودي، فوقعت القرعة على اليوم الثالث عشر من الشهر الثاني عشر أي شهر أذار. إلا أنّ ذلك بحسب رواية سفر أستير ارتد إلى نحره، إذ أرسل مردخاي ـ بعد أن قربه الملك منه وأحله محل هامان ـ رسائل إلى جميع اليهود في مملكة خشايار شاه ليوجب عليهم أن يعيدوا في اليومين التاليين لليوم الثالث عشر من شهر أذار، وهما اليومان اللذان استراح فيهما اليهود من أعدائهم، والشهر الذي تحوّل عندهم من حزن إلى فرح، ليجعلوهما يومي عيد وابتهاج.

٢ - العهد القديم، سفر أستير، الإصحاح الأول، الفقرة: ١.

٣ - صموئيل كندي، آئين شهر ياري در شرق (أسلوب إدارة المدن في الشرق)، ص١٧٧ـ ١٨٠.

الخامس بعد الميلاد منها إلى النزعة الفكرية عند اليهود[١]. يضاف إلى ذلك أننا لا نجد أيّ شخص من أبطال سفر أستير يحمل إسماً يهودياً حقيقياً خالصاً. فإننا إذا استثنينا الملك الفارسي إخشويروش سنجد جميع الأسماء الأخرى مقتبسة من أسماء آلهات بابلية وعيلامية. فأستير هي (عشتار). بل حتى التسمية الأخرى لأستير وهو (هَدَسّة)[٢] الذي يرد في الفقرة السابعة من الإصحاح الثاني من سفر أستير، هي من الألقاب الخاصة بربّ الأنواع البابلية. ومردخاي هو (مردوخ)[٣] الإله البابلي. من هنا فإنّ أستير ومردخاي ليسا سوى إلهين بابليين ألبسا ثوباً يهودياً. وأما عدوهما اللدود (هامان) فيمكن ربطه لغوياً بـ(هومان) أحد آلهة العيلاميين[٤] أعداء البابليين التقليديين. وأما (وشتي) الملكة الفارسية التي أخذت أستير مكانها ومنزلتها، فيمكن بنفس الطريقة أن نربطها بـ(مشتي) ربّة الأنواع العيلامية[٥].

من هنا يذهب (صموئيل كندي إدي) إلى الاعتقاد جازماً بأنّ

---

١ - المصدر المتقدم، ص١٨٠.

2 - Hadassah.

٣ - فيما يتعلق بمردوخ (Mardukh) الإله البابلي راجع: جان بي. ناس، تاريخ جامع اديان از آغاز تا امروز (التاريخ الجامع للأديان منذ النشوء وحتى اليوم)، ص٤٦ - ٤٧.

٤ - للاطلاع على آلهة العيلاميين أنظر: والتر هينتس، دنياي كمشده عيلام (عالم العيلاميين المفقود)، ص٥١.

٥ - المصدر المتقدم، ١٧٨.

سفر أستير الوارد في العهد القديم ليس سوى أسطورة بابلية تعود إلى القرن الخامس من الميلاد، وهي تصور الجدل المحتدم بين كل من مردوخ (مردخاي) وعشتار (أستير) وخشايار شاه (أخشويروش).

إنّ هذا التطابق من الكثرة والقوّة بحيث لا يمكن حمله على مجرّد الصدفة. وحيث أنّ الغلبة في هذا الصراع تكون في نهاية المطاف لمردخاي (مردوخ) وأستير (عشتار) البابليين، على هامان (هومن)، ووشتي (مشتي) العيلاميين، يذهب الترجيح إلى صياغة هذه الأسطورة في بابل[1].

ويعترف قاموس الكتاب المقدّس بأنّ الأسماء الواردة في سفر أستير، أسماء بابلية وعيلامية، فمردخاي هو مردوخ ربّ الأرباب عند البابليين، وهِمان أو هُمّان هو أحد الأرباب الرئيسين عند العيلاميين[2].

إنّ العلاقات بين الحضارة العيلامية والحضارات العريقة كانت قائمة في مراحل متقدّمة جداً، وإنّ الآثار التي تمّ العثور عليها في مصر قبل مرحلة الأُسر والسلالات الفرعونية تثبت هذا الارتباط بينها وبين شوش ـ عاصمة السلالة الهخامنشية في عهد خشايار شاه ـ بشكل

---

١ - أنظر: المصدر المتقدم، ص١٩٧ - ١٨٣.

٢ - بطرس عبد الملك، قاموس الكتاب المقدّس، ص٦٤.

واضح. وهذا ما أكّد عليه علماء التأريخ والمحققون في تأريخ الفنّ مراراً وتكراراً[١].

وبملاحظة التحقيقات والتنقيبات التي أنجزت من قبل علماء الآثار في القرنين الأخيرين ـ وهو ما سنشير إلى نموذج عنه في الصفحات الآتية ـ يقوى احتمال تسرّب شخصية هامان إلى الحضارة العيلامية من الحضارة المصرية. وعليه يجب القول ـ بالالتفات إلى الأدلة والشواهد التي تثبت عدم تأريخية شخصية هامان في الكتاب المقدّس، والالتفات من جهة أخرى إلى تأثر الحضارة العيلامية بالحضارة المصرية ـ بأنّ الثابت علمياً هو أنّ الواقع في الخطأ التأريخي هو الكتاب المقدّس، وليس القرآن الكريم.

هناك من المفكرين من يذهب إلى الاعتقاد بأنه حيث لا يوجد في اللغة الفارسية لفظ يقرب من هامان، ولم يُعهد وجود شخص في بلاط خشايار شاه بهذا الإسم، يمكن القول بأنّ اليهود قد أطلقوا تسمية هامان على أحد وزراء خشايار شاه لوجود شبه بينه وبين هامان وزير فرعون؛ لأنه كان يظلمهم كما كان هذا الأخير يظلمهم في أعمال السُخرة وما إلى ذلك[٢].

---

١ - موسى سيادت، تاريخ خوزستان از دوره افشاريه تا دوره معاصر (تاريخ خوزستان منذ السلسلة الأفشارية وحتى المرحلة المعاصرة)، ج١، ص٨؛ وكذلك يمكن الرجوع في هذا الشأن إلى: بيير آميه، التأريخ، ص٢٩ و٥٢.

٢ - محمد خزاعلي، المصدر المتقدم، ص٦٦٠.

كما توجد شواهد أخرى تثبت عدم تأريخية سفر أستير وبعض الأبطال الآخرين في روايتها، الأمر الذي يخرج هذا السفر من دائرة النصوص التأريخية لدى اليهود. فمنذ عام ١٩٤٧ وحتى عام ١٩٥٦ للميلاد حيث عثر على حدود مئة قطعة من رقائق البحر الميت في مدينة قمران، أجريت عملية مقارنة بين هذه الرقائق والأسفار الموجود في العهد القديم، فظهر أنّ جميع الأسفار التوراتية موجودة في تلك الرقائق ما عدا سفر أستير[١]. جدير ذكره أنّ رقائق البحر الميت تعود إلى الفرقة الأسينية[٢] من الفرق اليهودية، وقد تمت ترجمة هذه الرقائق والمخطوطات وهي الآن متوفّرة وفي متناول الجميع[٣].

الأمر الآخر أننا لا نجد أي إشارة في العهد الجديد، أو أيّ إحالةٍ من الإنجيل إلى سفر أستير. يقول حبيب سعيد: ليس هناك من دليل يثبت نسبة سفر أستير إلى مؤلفٍ أو كاتب بعينه، أو متى تمّ تأليفه. ولكن حيث يجد بعض المحققين أنّ آراء المكابيين قد انعكست فيه، فإنه يرجع تأريخ كتابته إلى حدود مئة وثلاثين سنة قبل

---

١ - صموئيل كندي إدي، المصدر المتقدم، ص١٧٩.

٢ - الطائفة الأسينية: فرقة يهودية تكوّنت قبل حوالي قرنين من الميلاد، كانت ترجو شفاء نفسها من الأدران والذنوب، ويقال: إن النبي يحيى بن زكريا (المعمدان) كان واحداً من أعضائها، أنظر: حسين توفيقي، آشنائي با أديان بزرك (معرفة الأديان الكبرى)، ص٩٧ - ٩٨.

٣ - أنظر: التوراة كتابات ما بين النهرين: مخطوطات قمران ـ البحر الميت، ج١، ص٥ - ٦.

الميلاد[١].

ومن جهة أخرى يذهب بعض مفسري الكتاب المقدّس إلى القول بعدم تأريخية هذه القصة، وعدم وقوعها أو تحققها على المستوى الخارجي والواقعي، مستنداً في ذلك إلى عدم ورود أيّ ذكر للملكة وشتي، أو أستير، أو مردخاي، أو هامان في مصادر التأريخ الإيراني والفارسي. ويضيفون أيضاً: إنّ سفر أستير هو السفر الوحيد من بين سائر الأسفار الأخرى الذي لا يوجد فيه أيّ ذكر لله سبحانه، من هنا ذهب بعض المتقدّمين إلى التشكيك في اعتبار هذا السفر، ولذلك فإنه لم يدرجه ضمن الأسفار الشرعية[٢].

تأريخية وجود هامان في قصّة موسى وفرعون في القرآن الكريم:

إنّ الذين يذهبون إلى دعوى وجود الخطأ التأريخي في القرآن، يقولون: إننا إذا استندنا إلى النصوص الدينية اليهودية لا نجد إلا هامان واحداً، وهو ذلك الذي يحتل منصب الوزارة في بلاط خشايار

١ - يقول مؤلف كتاب (أسلوب إدارد المدن في الشرق): طبقاً لرأي بعض المحققين ـ وهو رأي يحضى بقبول الغالبية ـ يعود تأريخ كتابة سفر أستير إلى حوالي العام ١٢٥ق.م، صموئيل كندي إدي، ص١٧٧.

٢ - أنظر: حبيب سعيد، المدخل إلى الكتاب المقدّس، ص١٥٩- ١٦٠:
B. W. Anderson, Interpreter's Bible. V. iii. Pp. 827-8.

شاه، من هنا يجب أن يكون هامان المذكور في القرآن بوصفه شخصية بارزة في عصر موسى وفرعون ناتجاً عن خطأ تأريخي سببه سوء فهم النبي محمد عند اقتباسه هذه الشخصية من المصادر الدينية اليهودية. ومن المناسب لدراسة هذه الدعوى أن نعيد قراءة الآيات القرآنية التي تتحدّث عن هامان، وهي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْـمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّـهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [1]. وقوله تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَـهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾[3].

وهنا نواجه ثلاثة أمور أساسية في هذه الآيات بشأن فرعون وهامان، وهي كالآتي:

١ ـ إدّعاء فرعون للألوهية والربوبية (وهو ما نشاهده في سورة القصص: ٣٨).

٢ ـ أمر فرعون لهامان ببناء الصرح (وهو ما نشاهده في سورة القصص: ٣٨).

---

١ - القصص: ٣٨.

٢ - القصص: ٦.

٣ - القصص: ٨.

٣ـ وجود شخص بارز في بلاط فرعون المعاصر للنبي موسى عليه السلام اسمه هامان (كما هو ملاحظ م سورة القصص: ٦ و٨).

طبقاً لدائرة المعارف البريطانية، فإنّ الجذور اللغوية لكلمة فرعون تعود إلى الكلمة المصرية فيرا (per 'aa) بمعنى البيت الكبير أو مقرّ الملك في مصر القديمة. ثمّ أطلقت هذه الكلمة فيما بعد كعنوان على سلسلة الملوك المتعاقبين على حكم مصر، وقد استمرّ حكم هذه السلالات من عام ١٥٣٩ إلى عام ١٢٩٢ قبل ميلاد المسيح. وكان المصريون يعتقدون بربوبية الفراعنة، فالفرعون يبقى إلهاً حتى بعد موته، بل إنه يرتقي حينها إلى مرتبة الأب لآلهة السماء والشمس، ويمنح سلطته المقدّسة للفرعون الجديد المتمثل بوريثه الذي هو ابنه[١].

كما يتحدث المعجم المصور للكتاب المقدّس عن فرعون ويقول: (كان المصريون يعتقدون بأنّ فرعون هو الله. فإنّ الفرعون طوال حكمه هو ابن رَع (Ra) إله الشمس، وممثلاً لـ(هوروس)[٢]. فالفرعون مبعوث من قبل الآلهة لينوبها في حكم الأرض، فكانت كلمته قانوناً، وكان مالكاً فعلياً لكلّ شيء)[٣].

وفيما يتعلق بأمر فرعون القاضي ببناء صرح عملاق من

---

1 - "Pharaoh' in Encyclopedia Britanica, 2010/04. 03at: http: //www. Britannica. Com /Ebchecked/topic/455117/pharaoh.

٢ - هوروس (Horus): أحد أقدم وأهم الآلهات في مصر القديمة.

3 - "Pharaoh" in Nelson's Illustrated Bible Dictionary, p. 828.

الطوب والآجر، توضح التنقيبات الأثرية على ضفاف النيل وشواطئه وجود جبانات وأبنية مصنوعة من الطوب[١]. وجاء في الشروح الروائية أنّ البناء بالآجر حدث للمرّة الأولى في عصر الفرعون[٢]. إلا أنّ هذا الكلام لا يبدو صحيحاً، بل يجب القول: إنّ البناء بالطوب والآجر كان شائعاً في عصر فرعون، وذلك لأنّ معرفة المصريين بتقنية البناء بالآجر تعود إلى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد[٣].

وقد أدلى المحقق الفرنسي (موريس بوكاي: ١٩٢٠- ١٩٩٨م)[٤] بدلوه في هذا البحث أيضاً. فقد ذهب إلى القول: لما كان هامان يعيش في عصر موسى عليه السلام وفرعون، فإنّ أفضل الطرق لتتبع آثاره والعثور على إسمه يتمّ عبر الرجوع إلى المتخصصين بالخطوط الهيروغليفية (والخطوط المصرية القديمة)، من هنا فقد بدأ تحقيقه مع أحد أبرز المختصّين بالشؤون المصرية والذي كان إلى جانب ذلك ملمّاً باللغة العربية القديمة أيضاً، فقال:

(لقد بدأت العمل باستنساخ كلمة (هامان) كما هي موجودة في

---

١ - محمد هادي معرفت، المصدر المتقدم، ج٧، ص٣٧٩- ٣٨٠.

٢ - أنظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١٨، ص٢٥٥ (تفسير الآية: ٣٨ من سورة القصص)؛ والدرّ المنثور، ج٦، ص٤١٦ (تفسير الآية: ٣٨ من سورة القصص)؛ وج٧، ص٢٨٨ (تفسير الآية: ٣٦ من سورة غافر).

٣ - فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ج٩، ص١٨.

4 - Maurice Bucaille.

نسخة من القرآن يعود تاريخها إلى القرن الهجري الأول، وأريتها لذلك المختص، وقلت له: إنّ هذه الكلمة وردت في نصّ عربي يعود إلى القرن السابع للميلاد، وهي ترتبط بشخص ينتمي إلى تاريخ مصر. فقال لي: في مثل هذه الحالة يجب أن تكون منقولة بعينها ولفظها عن الهيروغليفية، ولكن في الوقت نفسه قال: إنه على يقين من أنه لا يمكن لنصّ يعود إلى القرن الميلادي السابع أن يكون مشتملاً على إسم باللغة الهيروغليفية، إذ أنّ هذه اللغة كانت قد اندثرت في تلك الفترة، ولم يبق منها شيء. ولكي يثبت صحّة استنتاجه نصحني بالرجوع إلى معجم أعلام الشخصيات التي كانت تعيش في أيام الفراعنة، لمؤلفه هيرمن رانك (Herman Rank) حيث يحتمل العثور على هذا الإسم مكتوباً بالخط الهيروغليفي. فعثرت هناك على كلّ ما احتمله ذلك المتخصص، ورأيت كلمة هامان منقولة في ذلك المعجم بالخط الهيروغليفي مع ترجمته إلى اللغة الألمانية، كما أدهشني أن أرى إلى جانبه شرحاً بالوظيفة والصفة التي كان يشغلها في البلاط الفرعوني، حيث كان يشغل منصب : (مدير العمال في المعادن الحجرية) ، وقد ترجمها (والتر رسينسكي) إلى الألمانية على النحو الآتي: (Vorsteherder Steinbruch arbeiter)[1]، وهو ما يبدو بوضوح من خلال الأمر الذي يصدره له الفرعون ببناء الصروح على ما هو مبيّن

---

1 - M. S. M. Saifullah & Others, p. 130.

في القرآن الكريم. وعندما رجعت إلى المتخصص الفرنسي وأريته صورة الصفحة المتعلقة بمعجم الأعلام المصرية المرتبطة بهامان وقارنها بالصفحة القرآنية التي تحمل إسم هامان، لم يكن عنده ما يقوله، فبقي واجماً، واستولى عليه الذهول)[1].

بقي الخط الهيروغليفي ـ شأنه شأن الخط المسماري ـ مدّة طويلة من الزمن مهجوراً حتى طواه النسيان، وظل الناس قروناً لايعرفون من الخطوط الهيروغليفية المحفورة على مختلف الصخور في المعابد والقصور والقبور الفرعونية، وكان الناس يتصوّرونها طلاسم وأسحار يراد منها صيانة الأماكن المقدّسة.

ومن هنا فقد ظل اكتناه أسرار مصر القديمة لغزاً محيراً لسنوات طويلة، حتى تمّ العثور صدفة على مفتاح الباب الذي يفضي إلى معرفة حقائق مصر القديمة. ففي عام ١٧٩٨م زحف نابليون بونابرت بجيوشه على مصر. وبعد عامٍ من ذلك كان بعض الجنود الفرنسيين مشغولين بحفر موضع في مواجهة القوات الإنجليزية في قرية زُرتا (الرشيد) فعثروا على حجر أسود كبير، أطلقوا عليه اسم (حجارة زُرِتا)[2] أو الحجر الرشيد. وكان هذا الحجر يحمل نصّاً واحداً مكتوباً بثلاث لغات مختلفة، وهي: (الهيروغليفية، والديموتيكية، واليونانية)، وحيث كانت

---

1 - M. Bucaille, Moses and Pharaoh: The Hebrews In Egypt, p. 192.
2 - Rosetta Stone.

اللغة اليونانية معروفة، فقد اكتشفوا من خلالها أنّ هذا الحجر يعود إلى ٢٢٠٠ سنة خلت، وأنها تعود إلى فترة بطليموس الخامس. وقد أشاد النص المكتوب بالأعمال التي أنجزها الملك الشاب والخدمات التي قدّمها للمعابد والشعب المصري بثلاث لغات مختلفة(١).

ومن خلال هذا الحجر تمكن المختص بالتراث المصري العالم الفرنسي الشهير (جان فرانسوا شامبوليون: ١٧٩٠- ١٨٣٢م)(٢) من فكّ رموز الخط الهيروغليفي، وأضحى بعدها من السهل ترجمة النصوص الهيروغليفية الأخرى أيضاً(٣).

من هنا يمكن القول بأنّ (حجر الرشيد) كان المفتاح إلى فك شيفرة الخط الهيروغليفي.

إنّ النص الذي يذكر اسم هامان موجود في المعجم الذي صنفه (هيرمن رانك) مع صورة كتابته بالخط الهيروغليفي. وقد أخذه المؤلف

---

١ - أنظر: ثقافة وحضارة مصر القديمة، ص٢٩.

٢ - (جان فرانسوا شامبوليون: ١٧٩٠- ١٨٣٢م): عالم ولغوي ومستشرق فرنسي، أولع في حل الرموز الهيروغليفية، فعمد لذلك إلى تعلم اللغات الشرقية، فتعلم اليونانية والرومية والعبرية والقبطية والعربية والسريانية. وفي شهر سبتمبر من عام ١٨٢٢م تمكن من حل شفرة الخطوط الهيروغليفية وكان له من العمر٣٢ سنة. ومن حينها أطلق على شامبوليون لقب مؤسس إبتدائية التراث المصري. أنظر:
Hutchinson Encyclopedia. p207.

3 - Harun Yahya, The Prophet Musa, p. 60.

من كتاب (والتر رسينسكي)[1]. وهذا الأخير محقق في لغات مصر القديمة، وقد ألف كتابه عام ١٩٠٦ عن كتابات مصر القديمة في متحف (هاف)[2] في فيينا[3].

تأثر النبي بالوثنية بوصفها مصدراً ثالثاً للقرآن على زعم نولدكه:

أما المصدر الثالث والأخير للوحي عند نولدكه، فقد أشار إليه بقوله: (أحد أهمّ مصادر تعاليم محمّد كانت الاعتقادات الدينية التي اعتنقها قومه. وما من مصلح يمكنه أن يتنصّلَ تماماً من المعتقدات التي تربّى عليها. هكذا بقي لدى مؤسّس الإسلام بعضٌ من الأساطير القديمة ـ مثلاً حول الجن ـ وبعض الآراء الدينية التي كانت سائدة في زمن الجاهلية)[4].

نقول في ذلك: إن وجود بعض التقاليد الموروثة في القرآن، لايعني بالضرورة تأثر الإسلام بها، فقد يكون شيوعها في الأوساط الجاهلية نتيجة التأثر بالأديان الأخرى، وقد كانت أسرة النبي على الحنيفية والشريعة الإبراهيمية، هذا وقد يوجد حتى في الموروث

1 - Walter Rasinski.
2 - HAF museum.
3 - M. Bucaille, p. 192- 193.

٤ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص١٨.

الجاهلي البحت بعض مكارم الأخلاق، فيدعو لها القرآن بما هي فضيلة أخلاقية بمعزل عن الموروث الجاهلي. فالإسلام جاء لإقرار كلّ ما هو حسنٌ وصالح، وإلغاء كلّ ما هو قبيحٌ وباطل، فألغى وأد البنات، وعمل على إلغاء الرقّ، وشجّعه بكافة الوسائل والسبل، وأقرّ إكرام الضيف، وحفظ الجوار، وإغاثة الملهوف، وفي ذلك قال النبي الأكرم ﷺ عن حلف الفضول: (حضرت في دار عبد الله بن جُدْعان حلفاً ما يسرّني به حُمْرُ النعَم، ولو دعيت إليه اليومَ لأجبت)[1].

بحث في معنى الجن:

وأما بشأن ما ورد من القرآن في الجن، فنقول: إن الله تعالى قد أخبرنا في محكم كتابه العزيز بوجود الملائكة والجنة والنار، فآمنا بها إيمان تسليمٍ وإذعان دون رؤيتنا لهذه الحقائق، وذلك تبعاً لقوّة إيماننا بمن أخبرنا بهذه المغيبات، قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾[2]. ونحن نستند في إيماننا بهذه الأمور إلى إدراكنا لضعفنا وعدم قدرتنا على الإحاطة بكل ما في الكون من وجودات وكائنات، وإننا لنؤمن بوجود عدد لا يحصى من الكائنات المجهرية في الغرفة التي نشغلها، مع عدم قدرتنا على رؤيتها، فلتكن

---

١ ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٣٣٨، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٣هـ بيروت.

٢ ـ البقرة: ٢ ـ ٣.

حقيقة الجان واحدة منها، فنؤمن إيماناً قاطعاً وجازما لا يعتريه شك ولا تطاله شبهة بأنها كائنات موجودة عاقلة خلقها الله كما خلقنا، ولكن مادة خلقها تختلف عن مادة خلقنا، فمادتنا ترابية، ومادتها نارية، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ** ﴾[1]. ويبدو من صريح هذه الآية أن خلق الجنّ قد سبق خلق الإنسان، أما عدم إثبات وجود الجنّ بأدوات العلم الحديث فهو أمرٌ طبيعي، بعد أن كان الجنّ من الأمور الغيبية كحقيقة الملائكة والجنة والنار مما لا يخضع لأدوات الفحص المجهري. هذا مع أن العلم الحديث إنما هو مخوّل بالإثبات دون النفي، بمعنى أن للعلم بواسطة أدواته أن يثبت وجود شيءٍ أو تأثيره في ظاهرةٍ ما، أما أن ينفي وجود شيءٍ أو تأثيره على ظاهرةٍ من الظواهر، فهذا ما لا يدخل في شؤونه واختصاصاته.

ولكننا مع إيماننا بحقيقة الجن، ننكر في الوقت نفسه المفهوم السائد بين العامة من أنه يخالط الناس ويعاشرهم، ويكون له التأثير في نشر المحبة والكراهة بين الأزواج، وإن بإمكان الإنسان تسخيرهم لمآربه، وأن بإمكان الجني أن يتزوج من إنسية، أو يتزوج الإنسي من جنية، على ما يروّجه المتاجرون بعقول البسطاء، بعد أن كان الجنّ من عالم غير عالمنا.

---

١ ـ الحجر: ٢٦ ـ٢٧.

وقد ذهب العدلية إلى انه لا يجوز في حكمته تعالى أن يتسلط كائنٌ غيبي على كائنٍ عيني؛ فيتلاعب به وبمقدّراته، وهو لا يستطيع دفعه عن نفسه حيث لا يراه، وهذا الأمر يصدق حتى على إبليس، وقد نقل الله سبحانه وتعالى حكاية مؤيدة عنه حيث قال: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [١].

وقال الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية:

«إنّ ظاهر هذه الآية يدلّ على أنّ الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان، وعلى تعويج أعضائه وجوارحه، وعلى إزالة العقل عنه كما يقول العوام والحشوية»[٢].

ثمّ إنّ لفظ الجن يطلق على معان عديدة، فقد جاء في لسان العرب:

جنّ الشيء يجنه جناً: ستره، وكلّ شيءٍ سُترَ عنك، فقد جُنّ عنك. وجنه الليل وأجنه: ستره. وبه سُمّي الجنّ؛ لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار، ومنه سُمّيَ الجنين؛ لاستتاره في بطن أُمّه. وقيل: كلّ مستور جنين. وجنّ الناس: معظمهم؛ لأنّ الداخل فيهم يستتر بهم[٣]. وقد يكون من ذلك الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي ذر

---

١ ـ إبراهيم: ٢٢

٢ ـ الرازي، الفخر، التفسير الكبير، ج٧، ص٨٥، دار إحياء التراث العربي، ط٢، بيروت.

٣ ـ ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، ج١٣، ص٩٢، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٩٩٠.

الغفاري أنّ رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل يقول: (.. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا على صعيدٍ واحد، فسألوني فأعطيت كل (إنسان) مسألته مانقص ذلك في ملكي شيئاً)[١]. ترى أنه قد عطف جملة إنسكم وجنكم على جملة أولكم وآخركم، وقد يكون هذا العطف من اللف والنشر المرتب، فإنسكم في قبال أولكم، وجنكم في قبال آخركم، لكون المتأخر يستتر بالمتقدم، وهذا هو الذي يفسّر مجيء كلمة (إنسان) في آخر هذا الحديث مفردة غير مقرونة بـ(جني)، فلو كان المراد من (جنيكم) هو الخلق الآخر؛ لوجب أن يقول: (فأعطيت كلّ إنسان وجنيّ) كما قال: (إنسكم وجنكم).

وفي لسان العرب أيضاً: (الناس: قد يكون من الإنس ومن الجن)[٢]. وجاء في موسوعة (لين) الشهيرة للغة العربية: (الجن: الغريب)[٣]. وبذلك نجد أن للفظ الجن كثيراً من المعاني، يمكن إرجاعها إلى معنى واحد هو المستور الذي لا تراه العين، وإن الجن ذلك المخلوق الناري واحد من مصاديق هذه اللفظة، وقد جاء استعمال هذا اللفظ في الأحاديث وفي القرآن بما هو عربي مبين وفقاً للاستعمالات العربية، فقد

---

١ ـ النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ج ٨، ص١٧، دار الفكر، بيروت.

٢ ـ ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، ج٦، ص٢٤٥، دار الفكر، ط ١، بيروت، ١٩٩٠.

٣ ـ نقلاً عن: إدلبي، محمد منير، أبناء آدم من الجنّ والشياطين، ص٩٨، الأوائل للنشر والتوزيع، ط ٢، دمشق، ٢٠٠٧م.

يطلق الجن أحياناً ويراد منه الإنسان إذا كان مستتراً أو متخفياً أو كامناً.

هذا وهناك دراسة مستفيضة ومتقنة حول الجن، قام بها الدكتور محمد منير إدلبي في كتابه الرائع (أبناء آدم من الجن والشياطين)، فيمكن لمن أراد المزيد أن يرجع إليه.

٩- ملاحظات بشأن متفرقات تفوّه بها نولدكه :

نتعرض في ختام هذا الفصل لبعض العبارات التي ذكرها نولدكه استطراداً، ولما لم يكن بإمكان العناوين المتقدمة أن تستوعبها، لم نجد مندوحة إلا الردّ عليها في باب منفصل، لما تحمله تلك الاستطرادات من التجني على الحقيقة، وهي من الكثرة بحيث أننا لو أردنا استيعابها بأجمعها، لخرجنا بهذه الدراسة عن غايتها، ولذلك سنكتفي بذكر اتهامين ألقاهما (نولدكه) جزافاً، ومنها: اتهامه النبي بانتهاج المذهب القائل بأنّ الغاية تبرر الوسيلة في سياسته. ومنها: نسبة النبي إلى ضعف الشخصية، وعدم الحزم في إدارة الأمور! وإليك بيان ذلك على النحو الآتي:

أ- اتهام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالميكافيلية:

يقول نولدكه في وصف النبي الأكرم: (وإذ لم يكن [محمد] مرهف الحسّ ثابته تجاه الخير والشر؛ فإنه لم يتوانَ عن استخدام وسائل

مرذولة، أجل حتى ما يُسمّى الخداع باسم الدين)[1].

لم يذكر نولدكه مصاديق هذه الوسائل، ولكننا نقول بشكل عام: إذا كان النبيّ يمارس الرذيلة من أجل الوصول إلى غاياته على الطريقة الميكافيلية؛ فكيف يدعو إلى الفضيلة، وكيف ينهى عن الرذيلة؟! وفي ذلك يقول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتيَ مثله   عارٌ عليكَ إذا فعلت عظيـم

وهب أنه نهى عنها، فما الذي يلزم الآخرين بالتقيّد بنهيه، مادام هو لم يلتزم بما نهى عنه؟!

ونحن إذا تصفحنا الصحيح من سيرة النبي الأكرم ﷺ، لوجدناه مثال الفضيلة والخلق الرفيع، وقد سعى طوال حياته الرسالية إلى إقامة صرح الدين على أساسٍ من ذلك؛ فقال: (إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق)[2]. وما فتئ يربّي أهله وأصحابه على هذا النهج القويم ليله ونهاره، حتى تشرّب جلّ أصحابه بمعين سجاياه، وقال تعالى في بيان ذلك: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللهِّ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [3].

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٦.

٢ ـ الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، ص٨، منشورات الشريف الرضي، ط٦، ١٩٧٢.

٣ ـ آل عمران: ١٥٩.

وكانت هذه الأخلاق تفرض عليه أن يتحمل منهم صنوف الأذى، حتى قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾[1]. وقد جسّد الإمام علي عليه السلام وهو في أوج القدرة والسلطان لما استعصى عليه أمر معاوية؛ فاقترح عليه بعضٌ إتباع المكيدة؛ فقال مقالته الشهيرة: (تريدون مني أن أنتصر بالجور) وما هذه الكلمة في واقعها إلا صدىً لأخلاق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله التي تشربّت بها روح علي بن أبي طالب عليه السلام وتشبّعت بها عروقه.

إن الذي يحول دون ممارسة النبي للوسائل المرذولة بعد عصمته وترفعه عن مثل هذه الأمور، قياس منطقي يقوم على نهي النبي عن ممارستها، فإذا كان ينهى عنها فلماذا يقترفها، وإذا اقترفها فلماذا ينهى عنها؟ وعليه فما دام قد ثبت نهيه عنها؛ فمن المستحيل أن يكون قد مارسها.

ثمة أمرٌ آخر نعرفه يعزز استحالة أن يتبع النبي الأكرم الوسائل الرذيلة، وذلك أن هدفه صلى الله عليه وآله كان في تنزيه الوسيلة حتى في التعامل مع الخائنين، ففي الحديث عنه صلى الله عليه وآله رواه المجلسي عن نوادر الراوندي، أنه قال: «لا تخنْ من خانك فتكون مثله»[2].

١ ـ التوبة: ٦١.

٢ ـ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج١٠٣، ص١٧٥، مؤسسة الوفاء، ط٢، بيروت.

نعم كان النبي في الحروب التي خاضها في سبيل الله يستخدم خططاً تمويهية تقتضيها طبيعة الاستراتيجية الحربية، والتمتع بعنصر المفاجأة لضمان النصر فيها، وقال النبي الأكرم في ذلك: (إنما الحرب خدعة)، ولكنه مع ذلك رسم للحرب قواعد أخلاقية هي غاية في النبل والإنسانية، منها عدم الإجهاز على جريح، وعدم تعقب هارب، وعدم التعرض للنساء والأطفال والشيوخ، بل وعدم قطع الأشجار وهدم البيوت إذا لم تكن هناك ضرورة عسكرية في الأخيرين.

ويواصل (نولدكه) كلامه ويجد للنبيّ مبرراً بزعمه لممارسة الوسائل المرذولة، وذلك من خلال تعميم الأمر على جميع الأنبياء قائلاً: (فلعلها معجزة أن يكون نبيٌّ متحرّراً من الخطأ والخطيئة، خاصّة إذا كان هذا النبي إلى جانب نبوّته قائداً عسكرياً ورجلاً سياسياً، مثل محمد. ولو تسنى لنا أن نتعرّف حياةَ أنبياء آخرين، بالقدر نفسه الذي تعرّفنا فيه حياةَ محمد، لفقد كثيرٌ منهم المرتبة الجليلة التي يتمتع بها الآن)[1].

وبذلك يخفف (نولدكه) من حدّة الوطأة في هجومه على النبي الأكرمﷺ، من خلال توسيع دائرة هذا الهجوم ليشمل جميع الأنبياء والمرسلين، ولسان حاله يقول: (إذا عمّت المصيبة هانت). ولسان حالنا يقول: (رجونا شفاءه من العمى، فعاد يشكو من الصمم)!

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٧.

ب- اتهام النبي الأكرم ﷺ بضعف العزيمة:

يقول (نولدكه): ([ثمّة] أمرٌ يودّ المسلمون بالطبع أن يخفوه، ألا وهو أن محمّداً كان ضعيف العزم. أجلْ، لقد كان يخاف إلى درجة أنه لم يتجرّأ في البدء على المجاهرة برسالته)[١].

نقول: إنّ الله تبارك وتعالى قد أرسل الكثير من سفرائه إلى البشرية بهدف هدايتها وتنظيم حياتها، ابتداءً من آدم أبي الأنبياء إلى خاتمهم. وقد بلغ عددهم أكثر من مئة وثلاثة وعشرين ألف نبيٍّ، ولم يكن من بين هذا الكمّ الكبير من الأنبياء من استحق أن يكون من ذوي العزم غير خمسة، أي أنهم لم يتجاوزوا عدد أصابع اليد الواحدة، وهم: (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد)، فكان النبي الأكرم ﷺ واحداً منهم وأفضلهم، وكان كتابه مهيمناً على كتبهم بوصفه خاتم الأنبياء. قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ ﴾ [٢]. وأشار إلى من لم يكن له عزمٌ منهم قائلاً: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [٣].

إنّ ادّعاء ضعف عزم النبي تكذبه سيرة النبي بكلّ تفاصيلها، فقد قاوم جميع الضغوط وألوان العذاب والأذى، حتى قال بأبي هو

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٥.

٢ ـ الأحقاف: ٣٥.

٣ ـ طه: ١١٥.

وأمي: (ما أوذي نبيٌّ مثل ما أوذيت). وصمد طوداً شامخاً أمام جميع المغريات التي يسيل لها لعاب المؤتمنين من الرجال، فقد عرضوا عليه أن يسوّدوه عليهم ويعطوه من الأموال ما يجعله أغنى رجل في قريش، على أن يترك الرسالة التي لم تجلب عليه حتى ذلك الحين غير العنت والأذى، وحملوا هذه الرسالة لعمّه كي ينقلها إليه؛ فقال ﷺ لعمّه: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلِكَ دونه».

وأما خوف النبي الأكرم ﷺ من الجهر بالدعوة في بداية الأمر، فلم يكن سببه ضعف شخصيّته وقلة عزمه، وإنما كانت لها أسبابٌ أخرى، بعضها طبيعية والأخرى موضوعية.

أما الأسباب الطبيعية فتتلخص في أن كلّ دعوة إصلاحية لابد لضمان نجاحها وبلوغ أهدافها من التدرّج وإعداد العدّة تمهيداً للوصول إلى شكلها الكامل وصيغتها النهائية، فحتى الشجرة لا تعطي ثمارها إلا بعد اجتيازها سلسلة من المراحل، من بذرة تستتر في رحم الثرى، إلى برعم يطلع رأسه من التربة على استحياء، إلى جذعٍ شديد يقاوم الرياح العاتية، ثمّ أغصان تتفرّع ملتفة بالورق، ومحملة بالثمار التي من أجلها قطعت مسيرتها الطويلة العسيرة. هكذا كانت مسيرة شجرة الإسلام، من دعوة سرية، مكوّنة من النبي الأكرم، وعلي بن أبي طالب، وخديجة الكبرى، ومؤمن قريش، وزيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وبعدها دخل الإسلام مرحلته الثانية بقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ

عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [1]. وصولاً إلى المرحلة الثالثة والأخيرة، حيث قوله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [2].

وأما الأسباب الموضوعية، فتكمن في أن النبي الأكرم بعث في بيئة تحكمها أعراف معقدة تقوم الرئاسة فيها على القهر والغلبة، يضاف إلى ذلك أن الشخصيّة البدوية بطبعها عصيّة على الانصياع والمطاوعة، فكان هاجس النبي يكمن في عدم تصديق الناس له، معتبرين إياه طالب زعامة ومحبّ رئاسة، هذا ما كان يقلق الرسول في بدء الدعوة.

وقد عاد هذا القلق يساوره في نهاية الدعوة، حين وجب عليه أن يصدع بإمامة علي بن أبي طالب، وذلك بأمرٍ من الله؛ فيقول الناس عنه صلى الله عليه وآله : ما كفاه أن تكون النبوة والرئاسة له علينا في حياته، حتى عقدها لابن عمه بعد وفاته؛ فنزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [3].

***

١ ـ الشعراء: ٢١٤.

٢ ـ الحجر: ٩٤.

٣ ـ المائدة: ٦٧.

الفصل الثالث

نظريّة (نولدكه)

في الترتيب الزمني لنزول القرآن

١ ـ نزول القرآن :

سنركز البحث في هذا الفصل الأخير من دراستنا على مفهوم نزول القرآن، وأنواع هذا النزول، مضافاً إلى الاجتهادات المحتملة في ترتيب سور القرآن، وصولاً إلى الترتيب بحسب النزول التاريخي والزمني، والآراء المختلفة حوله، سواء في ذلك المسلمون والمستشرقون، بمن فيهم (ثيودور نولدكه)، وهو ما عقدنا البحث أساساً من أجله.

ولكننا سنستهل البحث ببيان أنواع نزول القرآن ومنها النزول الدفعي، وذلك لارتباطه بنحوٍ من الأنحاء ببحث النزول التدريجي، وكونه قسيماً له.

مفهوم النزول وكيفيته:

قال ابن منظور: النزول: الحلول. والمَنزَل: النزول، وهو الحلول، تقول: نزلت نزولاً ومنزلاً، أنشد ثعلب:

أإن ذكرتك الدار منزلها جُمْلُ   بكيت، فدمع العين منحدرٌ سجلُ

والتنزيل أيضاً: الترتيب. والتنزل: النزول في مهلة. ويقال: نزلت عن الأمر إذا تركته، كأنك كنت مستعلياً عليه. ونزل من علوّ إلى سفل: انحدر[1].

وأما استعمال النزول للقرآن الكريم فلا ريب في كونه من المجاز؛ لعدم كون القرآن حقيقة مادية، ويمكن أن يكون من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، وذلك بأن يشبه إعلام السيّد لعبده، بإنزال الشيء من علو إلى سفل، بجامع أنّ في كلّ من طرفي التشبيه، صدوراً من جانبٍ أعلى إلى جانبٍ أسفل[2].

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل القرآن على مرحلتين، فنزل في إحداهما جملة واحدة، وفي الثانية تدرّج في نزوله نجوماً، وقد اختلفت كلمات العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال:

الأوّل: إنه كان ينزل في كلّ ليلة قدرٍ من السنة، ما يقدّر الله إنزاله في تلك السنة، ثمّ ينزل بعد ذلك منجّماً في جميع السنة. وهذا القول هو الذي ذكره الإمام فخر الدين الرازي احتمالاً، ثمّ توقف فيه. وقد نقله ابن كثير عن مقاتل بن حيّان. قال السيوطي: (وممّن قال

---

١ ـ ابن منظور الإفريقي، جمال الدين، لسان العرب، مادة (نزل)، ج١١، ص٦٥٦، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٩٩٠.

٢ ـ الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج١، ص٦٥ ـ ٦٧، دار ابن قتيبة، ط١، ١٩٩٨.

بقول مقاتل: الحليمي والماوردي)[1].

الثاني: إنه ابتدئ إنزاله في ليلة القدر، ثمّ استمرّ نزوله بعد ذلك منجماً في أوقاتٍ مختلفة من سائر الأوقات، وهو قول الشعبي[2].

الثالث: وهو الأصحّ والأشهر، أنه نزل جملة واحدة في ليلة القدر في مستهلّ البعثة، ثمّ أخذ ينزل بعد ذلك منجّماً في عشرين سنة، أو يزيد عليها[3].

وبذلك يكون للقرآن الكريم نزولان: دفعيّ، وتدريجيّ. والمعنى الأول هو المصطلح عليه بالإنزال، والمعنى الثاني هو المصطلح عليه بالتنزيل.

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذين النوعين من النزول في آيةٍ واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾[4]. وقد قال السيد الشهيد محمد باقر الصدر ﵀ في بيان هذه الآية:

---

١ ـ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص١٣١، دار ابن كثير، ط٣، بيروت، ١٩٩٦.

٢ ـ المصدر المتقدّم.

٣ ـ المصدر المتقدم، ص١٢٩.

٤ ـ هود: ١.

«إنّ هذا القول يُشير إلى مرحلتين في وجود القرآن، أولهما: إحكام الآيات. والثانية: تفصيلها. وهو ينسجم مع فكرة تعدّد الإنزال؛ فيكون الإنزالُ مرّة واحدة على سبيل الإجمال هي مرحلة الإحكام. والإنزال على سبيل التفصيل تدريجاً هي المرحلة الثانية، أي مرحلة التفصيل»[١].

أما خصوص النزول الدفعي، الذي تمّ فيه نزول جميع القرآن على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله جملة واحدة فيشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾[٣].

وأما النزول التدريجي، الذي اقتضاه التسلسل الزمني والطبيعي للأحداث ونزل نجوماً، فقد عبّر عنه القرآن الكريم بقوله:﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾[٤].

الحكمة من الإنزال:

كانت الحكمة من الإنزال، ونزول القرآن بأجمعه دفعة واحدة،

---

١ ـ الحكيم، محمد باقر، علوم القرآن، ص٢٨، مجمع الفكر الإسلامي، ط٣، قم، ١٣١٧.

٢ ـ القدر: ١.

٣ ـ الدخان: ٣.

٤ ـ الإسراء: ١٠٦.

على قلب النبي الأكرم ﷺ، هي إحكام الآيات، وتثبيت النبي والشد على قلبه، إذ يعلم مسبقاً ما ستؤول إليه رسالته، والنتائج الباهرة التي سيحققها في المستقبل، وقد حدث النزول الدفعي بعيداً عن علم الناس، وليس من الضروري أن يعلموه بعد أن كان المعنيّ به شخص النبيّ الأكرم ﷺ، على ما تقدّم من طمأنته وتثبيت قلبه، وحيث غاب هذا النوع من النزول على الكفار والمشركين، فقد تساءلوا عن سبب عدم نزول القرآن بأجمعه على الرسول جملة واحدة، إذ لم يعهدوا إلا نزوله تدريجياً، من هنا فقد قرّر القرآن الكريم تساؤلهم هذا مع الإجابة عنه بتحققه وحصوله بالفعل، حيث قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** ﴾ [1].

وفيما يلي نذكر بعض الأدلة التي تثبت هذا النوع من النزول الدفعي للقرآن الكريم:

روى علي بن إبراهيم القمّي في تفسيره: سئل الإمام الصادقعليه السلام عن شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن، كيف كان وإنما أُنزل القرآن في طول عشرين سنة؟! فقال عليه السلام: «إنه نزل جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثمّ أُنزل من البيت المعمور في طول عشرين سنة»[2].

---

١ ـ الفرقان: ٣٢.

٢ ـ القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، ج١، ص٧٤، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١.

وقد فسّر العلامة الطباطبائي حقيقة نزول القرآن جملة واحدة فقال:

«بالتفريق والانبساط والتدرّج. وهو المصحّح لكونه واحداً غير تدريجي، ونازلاً إنّ الكتاب ذو حقيقة أخرى، وراء ما نفهمه بالفهم العادي، الذي يقضي فيه بالإنزال دون التنزيل. وهذا الاحتمال الثاني هو اللائح من الآيات الكريمة، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [1]، فإنّ هذا الإحكام مقابل التفصيل.. والآية ناطقة بأنّ هذا التفصيل المشاهد في القرآن، إنما طرأ عليه بعد كونه محكماً غير مفصل. وأوضح منه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].. فنفس الكتاب شيءٌ، والتفصيل الذي يعرضه شيءٌ آخر.. وهذا الذي ذكرنا هو الموجب لأن نحمل قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، على إنزال حقيقة الكتاب، والكتاب

---

١ ـ هود: ١.

٢ ـ الأعراف: ٥٢.

المبين إلى قلب رسول الله ﷺ دفعة، كما أنزل القرآن المفصل على قلبه تدريجاً في مدّة الدعوة النبويّة»[1].

وأخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما من طريق منصور، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: «أُنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض»[2].

وروي عن مقسم، قال: سأل عطيةُ بن الأسود، ابنَ عباس فقال: إنه قد وقع في قلبي الشك في قوله تعالى: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** ﴾[3]، وقوله: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾[4]، وقوله: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ**﴾[5]، وقد أنزل في شوال، وذي القعدة، وذي الحجّة، والمحرم، وشهر ربيع الأول؟!

فقال ابن عباس: في رمضان، وفي ليلة القدر، وفي ليلة مباركة،

---

١ ـ الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، ج٢، ص١٧ ـ ١٩، منشورات مؤسسة الأعلمي، ط١، بيروت، ١٩٩٧.

٢ ـ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص١٢٩، دار ابن كثير، ط٣، بيروت، ١٩٩٦.

٣ ـ البقرة: ١٨٥.

٤ ـ القدر: ١.

٥ ـ الدخان: ٣.

جملة واحدة. ثمّ أنزل على مواقع النجوم مرسلاً في الشهور والأيام[1].

ورويَ في الكافي، عن حفص بن غياث، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** ﴾، وإنما نزل في عشرين سنة بين أوّله وآخره؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «أنزلَ القرآنُ جملةً واحدةً في شهر رمضان إلى البيتِ المعمور، ثمّ نزل في طول عشرين سنة»[2].

يُضاف إلى ذلك: إنّ القرآن الكريم كسائر الكتب السماوية التي سبقته، كتاب هداية يهدف إلى بناء الإنسان. وقد نزلت جميع الكتب السماوية جملة واحدة، فلماذا نستكثر ذلك على القرآن، ونبخل عليه بهذه الحقيقة، وقد أثبتها رسول الله صلى الله عليه وآله فيما روي عنه حيث قال: «أُنزلت التوراة لستٍّ مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت منه، والزبور لثمان عشرة خلت منه، والقرآن لأربع وعشرين خلت منه»[3].

---

١ ـ السيوطي، جلال الدين، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، ج٢، ص٤٢٠، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠١. وروي مثله من طريق آخر في جامع البيان في تفسير القرآن، لابن جرير الطبري، ج٢، ص٤٤٨.

٢ ـ الفيض الكاشاني، محسن، تفسير الصافي، ج١، ص٦٤، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٣ ـ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص١٣٣، دار ابن كثير، ط٣، بيروت، ١٩٩٦.

ومن طريق آخر روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أنزلت صُحفُ إبراهيم، في أوّل ليلةٍ من شهر رمضان. وأنزلت التوراة، لستٍّ مضينَ من شهر رمضان. وأنزلَ الإنجيلُ، لثلاث عشرة خلت من شهر رمضان. وأنزل الزبور، لثمان عشرة خلون من شهر رمضان. وأنزلَ القرآنُ، في ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان»[1].

أما الذي أنكر النزول الدفعي للقرآن الكريم، فقد وقع في تكلفات كبيرة وكثيرة، في تصوير نزول القرآن في ليلة القدر الواقعة في شهر رمضان المبارك. واضطرب في بيان انسجام ذلك مع بداية البعثة في السابع والعشرين من شهر رجب المرجّب. وارتبك في معالجة هذه المسألة في عدة مواطن من كتابه (تاريخ القرآن)، واضطر أحياناً إلى تقطيع بعض الروايات التي تثبت النزول الدفعي للقرآن الكريم، فأخذ منها ما يوافق مذهبه، وأهمل منها ما لا يروقه؛ فكان في ذلك بمثابة من يقصّ الثوب ليكون مناسباً لمقاسه[2].

وأمّا نحن فمن السهل علينا الجمع بين بداية البعثة التي اقترنت بنزول الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وبين نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك، وذلك بسهولة من طريق التفريق

---

١ ـ الفيض الكاشاني، محسن، تفسير الصافي، ج١، ص٦٤، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٢ ـ أنظر: معرفت، محمد هادي، تاريخ القرآن.

بين الإنزال والتنزيل. فنقول: إنّ إنزاله كان في ليلة القدر، بينما كان تنزيله قد بدأ في السابع والعشرين من شهر رجب المرجّب مقارناً للبعثة النبويّة الشريفة.

بقي علينا التنويه إلى أنّ بحث ترتيب نزول سور القرآن الذي نريد مناقشته هنا والذي تعرض له المستشرق الألماني (ثيودور نولدكه) وأدلى فيه بدلوه، يرتبط بالنوع الثاني من نزول القرآن، أعني النزول التدريجي للآيات والسور، إذ نزلت نجوماً وتباعاً وفي أوقاتٍ متباعدة، استمرّت لأكثر من عقدين من الزمن. وليس لبحث الترتيب الزمني لنزول سور القرآن أيّ علاقة بالإنزال بمعناه الأول. من هنا سنقصر البحث فيما يلي على النزول بالمعنى الثاني، وهو النزول التدريجي للقرآن الكريم.

الحكمة من التنزيل:

أما النزول التدريجي فقد راعى الجانب التربوي في هداية هذه الأمّة الناشئة، دون إشعارها بعنتٍ أو حرج، فكان هذا النوع من النزول بمثابة الفطام عن الرذائل دون أن يؤدّي بالقوم إلى الانتكاسة والتقهقر إلى الوراء. وهذه سياسة حكيمة لابدّ منها في تربية الأمم الفتية، لا سيّما إذا كانت أمّة معاندة تنتهج العصبيّة في عاداتها وتقاليدها، وتتهوّر في سفك الدماء وشنّ الحروب لأتفه الأسباب. وقد روي عن عائشة قولها: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل

فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثابَ الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: (لا تشربوا الخمر)! لقالوا: لا ندعُ الخمرَ أبداً»[1].

٢- نماذج من الأحكام التدريجية في الإسلام:

نجح الإسلام في هذه الخطة التربوية نجاحاً باهراً، كما يلاحظ ذلك على مستوى تحريم الربا، والخمر، والقضاء على ظاهرة الرقّ، واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان، فكان الإسلام بذلك أنجح تشريعاً، وأهدى سبيلاً من سائر الأمم، حتى ما كان منها يدعي التحضر على المستوى النظري، وأفلست في برنامجها على المستوى العملي، ويمكن أن نذكر لذلك مثلاً ما قامت به الولايات المتحدة في مطلع القرن العشرين، فقد ذكر الأستاذ (محمد شديد) في كتابه (منهج القرآن في التربية):

«منعت حكومة أمريكا الخمر وطاردتها في بلادها، واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة، كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور، لتهجين شربها، وبيان مضارّها ومفاسدها، ويقدّرون ما أنفقت الدولة في الدّعاية ضدّ الخمر، بما يزيد على ستين مليون دولار.

---

١ ـ البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ج٣، باب تأليف القرآن، ص١٢٨٧، دار الفكر، ط١، بيروت، ٢٠٠٣.

وأنّ ما نشرته من الكتب والنشرات، يشتمل على عشرة ملايين صفحة. وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم مدّة أربعة عشر عاماً، لا يقلّ عن مئتين وخمسين مليون جنيه. وقد أعدم فيها ثلاثمئة نفس، وسجن أكثر من نصف مليون نفس ـ ٥٣٢٣٢٥ نفساً ـ وبلغت الغرامات ستة عشر مليون جنيه، وصادرت من الأملاك ما يبلغ أربعمئة مليون جنيه.. ولكن كلّ ذلك لم يزد الأمّة الأمريكية، إلا غراماً بالخمر وعناداً في تعاطيها، حتى اضطرّت الحكومة سنة ١٩٣٣ ميلادية إلى سحب هذا القانون، وإباحة الخمر في مملكتها إباحة مطلقة»[١].

في حين نجح القرآن في القضاء على هذه الظاهرة، من خلال سياسته المتأنية، التي يسردها أبو داود الطيالسي، بسنده عن ابن عمر، قال: نزلت في الخمر ثلاث آيات، فأول شيءٍ نزل: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنْ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا** ﴾[٢]. فقيل: حرّمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله، دعنا ننتفع بها كما قال الله؛ فسكت عنهم ﷺ. ثمّ نزلت: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** ﴾[٣]. فقيل: حرّمت الخمر، فقالوا:

---

١ ـ شديد، محمد، منهج التربية في القرآن، ص١٢ ـ ١٣، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ١٩٧٩.

٢ ـ البقرة: ٢١٩.

٣ ـ النساء: ٤٣.

يارسول الله، لا نشربها قرب الصلاة؛ فسكت عنهمﷺ. ثمّ نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَعَنْ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ﴾[1] . فقال رسول الله ﷺ: (حرّمت الخمر)[2].

وقال أنس بن مالك: «بينما أنا أدير الكأس على أبي طلحة، وأبي عبيدة بن الجرّاح، وأبي دجانة، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن بيضاء، حتى مالت رؤوسهم من خليط بسرٍ وتمر، فسمعت منادياً ينادي: (ألا أنّ الخمر قد حرّمت)، قال: فما دخل علينا داخل، ولا خرج منا خارج، حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا، واغتسل بعضنا.. ثمّ خرجنا إلى المسجد»[3].

ولم ينجح الإسلام على هذا النحو في القضاء على ظاهرة تعاطي الخمر فحسب، بل وحقق أفضل النتائج فيما يتعلق بالقضاء على ظاهرة الربا والرقّ أيضاً، على الرغمّ من أن هذين الأخيرين كانا بمنزلة اللحمة والسِّدى، في النسيج الاقتصادي للمجتمع.

---

١ ـ المائدة: ٩٠ ـ ٩١.

٢ ـ ابن كثير، أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص١١١، دار الدعوة الإسلامية، ط١، ١٩٩٦.

٣ ـ المصدر المتقدم، ص١١٢.

مقارنة بين الرّق في المفهوم الإسلامي والغربي:

لقد جاء الإسلام وكان الرقّ والاتجار بالعبيد وامتلاكهم، ضارباً بأجرانه في الجزيرة العربية، بوصفه ظاهرة سائدة في المجتمع، ممّا يعني: أنّ إلغاءه بجرّة قلم، يُعدّ أمراً مرفوضاً في ذلك المجتمع. وبما أنّ الإسلام لا يجنح إلى الخيال في معالجة الأزمات، فقد انتهج في معالجة هذه الظاهرة التي يندى لها جبين الإنسانية معالجة حكيمة متأنية، كما هو شأنه في الحالات المماثلة، لأنّ الرق إن لم يكن أخطر من ظاهرة إدمان الخمرة، فهو ليس دونها خطراً.

إذن يكفي أن نثبت هنا أنّ الإسلام لم يؤسس لهذه الظاهرة، ولم يبدُ منه ما يؤيدها، ولذلك لا نجد آية واحدة في القرآن تؤيّدها ولو من بعيد، بل نجد جذوة الدعوة إلى القضاء عليها متأجّجة منذ السنوات الأولى من البعثة النبوية، وعلى لسان الوحي نفسه؛ إذ يقول تعالى: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾[1]، راسماً بأروع ريشة أنّ بين الإنسان ودخول الجنة والفوز بالرضوان، عقبة كأداء، متمثلة بالامتناع عن عتق العبيد وفك أسرهم. ولم يكتف بذلك حتى قرن قبح الاسترقاق بظاهرة لا أبشع منها قبحاً، وهي منع الطعام في يوم المجاعة

---

١ ـ البلد: ١١ ـ ١٦.

عن يتيم ذي رحم، أو مسكينٍ أدّت به مسكنته وجوعه إلى إلصاق جسمه بالتراب. وليس هذا بالتصريح الهيّن في مجتمع يشكّل الرقّ رئته التي يتنفس منها. ثمّ أخذ بمعالجة هذه الظاهرة والقضاء عليها بشتى الطرق والسبل، فإذا كان المجتمع قد فتح قنوات للرق لا تتجاوز الأسرى والمدينين، فقد ألغى بعض هذه القنوات من خلال تحريم الربا، وفتح العديد من القنوات لإلغاء الرق، من خلال المكاتبة والمشارطة إلى أنواع الكفارات، وفي ما يتعلق بالقناة الأخيرة، كأن الإسلام يريد التنبيه إلى أن الذنب العظيم لا يمحوه إلا التنصّل عن قبيح مثله وهو الاسترقاق. وهكذا سار الإسلام في سياسته هذه، فنجد الإمام زين العابدين عليه السلام مثلاً لا يشتري العبيد إلا بنية عتقهم، ولكن وفق منهج مدروس، يتمثل بتوظيفهم فيما يبرعون فيه، وجمع أموالهم لهم، حتى إذا بلغت مقداراً يصلح لأن يشكل رأس مال يمكنهم من السيادة على أنفسهم، دعاهم إليه، وأعطى كلّ واحدٍ منهم ما جمعه له من ماله، وأعتقهم جميعاً، ليدخلوا الحياة الكريمة من أوسع أبوابها، دون أن يطلب منهم أجراً على ذلك إلا الدعاء له بأن يعتقه الله يوم القيامة كما أعتقهم، ونتيجة لذلك اختفت هذه الظاهرة من وجه المجتمع الإسلامي، حتى لم يبق لها من أثر في واقعنا الراهن.

نعم يجدر بنا الاعتراف بأنّ عملية القضاء على ظاهرة الرّق في العالم الإسلامي قد استغرقت وقتاً طويلاً، ويعود السبب في ذلك إلى الممارسات الخاطئة التي قامت بها الحكومات المنتسبة إلى الإسلام

زوراً وبهتاناً في العصور الأموية والعباسية وما تلاها، وهي ممارسات دفع المسلمون ثمنها قبل غيرهم أنهاراً من الدم، يشهد على ذلك واقعة كربلاء والحرّة في المدينة قبل الأندلس، ولا غرابة في ذلك (كما يقول السيد علي الوردي) فالعساكر التي تقترف هذه الجريمة النكراء في واقعة الحرّة ومدينة الرسول ﷺ لا تبالي أن تقترفها في بلاد أخرى[1].

إلا أنّ هذه الممارسات لا تمتّ إلى الإسلام المحمّدي ﷺ الأصيل بصلة، بل هي أقرب إلى الإسلام الأمريكي كما يعبّر عنه الإمام الخميني الراحل قدس سره مصيباً كلّ الإصابة، ويبدو أنّ العقلية الأموية قد تفتقت عن هذا النوع من الإسلام قبل تأسيس الولايات المتحدة بثمانية قرون. ونحن نشجب ونستنكر هذا التفسير المادي للإسلام الذي لم يسلم منه إلا عمر بن عبد العزيز إذ حاول نسبياً أن يعيد الأمور إلى نصابها ونجح في ذلك جزئياً، من ذلك أنّ بعض عماله شكا إليه كثرة دخول أهل الذمة في الإسلام، الأمر الذي أضر بجباية أموال الجزية، فما كان من عمر بن عبد العزيز إلا أن وبّخه على ذلك قائلاً: (إنّ الله تعالى بعث محمّداً ﷺ هادياً، ولم يبعثه جابياً). وهذه هي الحقيقة ملخصة في هذه العبارة الموجزة، فقد كانت النظرة السائدة إلى الإسلام نظرة مشوّهة غرستها السياسات الأموية وغيرها في أذهان

١- أنظر: الوردي، علي، وعاظ السلاطين، ص٢٠٩، دار كوفان للنشر، ط٢، بيروت، ١٩٩٥م.

الناس، ففي الوقت الذي نزل فيه الدين الإسلامي على قلب رسول الله عمودياً سماوياً نقياً يغزو القلوب ويجتاح النفوس، أمسى في عهد الملوك المنتسبين إلى الإسلام ظلماً وعدواناً إلى إسلام أفقي أرضي مشوّه تعافه الضمائر الحيّة، وبعد أن كان الإسلام يراد على نحو الموضوعية (كما يقول علماء الأصول) صار ينظر إليه على نحو الطريقية!

وأمّا إذا نظرنا إلى الرق من زاوية العالم الغربي، فسوف نجد أنّ هذا العالم قد مارس الرق بشكلٍ يندى له حتى جبين العصر الجاهلي في شبه الجزيرة العربية. فإذا تلخصت أسباب الرق في الحروب والديون الربويّة، فإنّ الغرب كان حتى عصور قريبة يسترقّ أحراراً بالأصالة، وهذا ما كان يحدث في البرتغال وإسبانيا وبريطانيا، ولكي تتضح لنا صورة هذا العالم الغربي فيما يتعلق بتقنين الرقّ، لا مندوحة لنا من دراسة تاريخه، ولكن حيث أن الإحاطة بهذا التاريخ تخرجنا عن الهدف من هذه الرسالة، لذلك سنقتصر في إثبات ما نحن بصدده على النموذج الأمريكي الذي لا يعدو كونه خلطة من العالم الأوربي، وتجسيداً أميناً لصورته البشعة.

تقدّم أن ذكرنا في الفصل الأول من دراستنا هذه أنّ (كريستوفر كولومبوس)، عندما بلغ شاطئ العالم الجديد تصوّر أن قدميه قد وطئتا ساحل الهند الشرقية، ولما كان يتصوّر أنه سيتعامل مع قومٍ ذوي حضارة إسلامية، فقد أعدّ نفسه للتعامل معهم على هذا الأساس، فكانت العبارة الأولى التي خاطب بها حمر الجلود: (السلام عليكم)!

وبعد أن تعرّف عليهم جيداً لم يختلف الأمر عنده، إذ لم يكن هؤلاء القوم ـ رغم بعدهم عن المدنية الغربية ـ خلواً من النبل والقيم، فقد استقبلوه وعصابته بحفاوة وكرم، شبيه بالكرم العربي.

كتب (كولومبوس) إلى ملك إسبانيا في ذلك قائلاً: «إنّ هؤلاء الناس طيّعون جدّاً، ومسالمون للغاية.. هؤلاء القوم يُحبون جيرانهم كحبّهم لأنفسهم، ويتحدّثون بعذوبة ولطف، وأنّ الابتسامة لا تفارق شفاههم، وبرغم كونهم عراة في الواقع! إلا أنّ سلوكهم محتشم».

فلماذا قوبل هذا العرفان بأنهار عبيطة من الدم؟! إنّ (كولومبوس) هذا كان أوّل من غرس بذرة الرّق في هذه الأرض. وذلك بخطفه عشرة رجال من قبيلة (التاينوس) التي قامت بواجب ضيافته، وحملهم قسراً إلى إسبانيا، لتشريفهم بدخول عالم الرجل الأبيض الناصع. وعلى خطاه سار الأسبان ينهبون القرى ويحرقونها، ويخطفون المئات من الرجال والنساء والأطفال، ويشحنونهم بالسفن إلى أوربا ليباعوا فيها عبيداً أرقاء.

وعندما قاوم حمر الجلود، وهبّوا للدفاع عن كرامتهم وشرفهم، والذود عن حياضهم، لم يبخل عليهم المنجل الأوربي، فحصدهم عن بكرة أبيهم، (بدعوى مكافحة الإرهاب طبعاً)! ولم تمض عشر سنوات على وصول كولومبوس شاطئ (سان سالفادور) في الثاني عشر من أكتوبر عام١٤٩٢م، حتى أزهقت أرواح مئات الألوف من سكان العالم الجديد على يد رسل الحضارة الغربية! وبعد أن أفرغوا هذه الأرض

من سكانها وأبادوا أهلها أو كادوا، لجأوا إلى القارّة السوداء ليأتوا بأحرارها من أراضيهم وبيوتهم زرافات زرافات؛ ليعملوا في المناجم والمزارع وبيوت البيض دون وجه حق، وامتدّ ذلك قروناً حتى تجاوز القرن التاسع عشر منتصفه، حين أدت نقمة المستعبدين إلى أزمات اجتماعية وسياسية حادة، ضاق بها المجتمع الغربي نفسه، وأخذ يتذوّق شيئاً من مرارة الكأس التي أترعها بسوء فعلته، وانقسم الغرب أثرها على نفسه، وأودت به إلى خوض حرب طاحنة بين الشمال والجنوب عرفت بـ (الحرب الأهلية)، التي انتهت بانتصار الشمال على الجنوب، وظهور الرجل الأبيض متمثلاً بالراحل (أبراهام لنكولن)[1]، معلناً إلغاء قانون الرق، وإعلان تحرير العبيد، في عام ١٨٦٢ للميلاد. ولكن هل تحقق تحرير للعبيد بالفعل؟! وكيف كانت تبعات هذا الإعلان الذي حدث بجرّة من قلم، ولم يكن فيه أي تدبّر في العواقب كما حصل بالنسبة إلى تعامل الإسلام مع هذه الظاهرة.

فبعد إلغاء الرّق، وفور إعلان (لنكولن)، تمّ رمي الأكثرية الساحقة من المستعبدين في الشوارع دون غطاء ولا وطاء! ولما لم يكن

---

١ ـ أبراهام لنكولن (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥م): سياسي أميركي، وزعيم الحزب الجمهوري. يُعتبر أحد أنصع الوجوه في التاريخ الأميركي. قاتل الولايات الجنوبية في الحرب الأهلية، فانتصر عليها. ألغى الاسترقاق وأعلن حق المسترقين في الحرية. اغتاله الممثل المسرحي (جون بوث) فيما كان يشهد إحدى الحفلات في مسرح بواشنطن. أنظر: موسوعة المورد، منير البعلبكي، ج٦، ص١٢٤.

لدى أكثرهم ما يتقوّتون به، ولم يكن لديهم من المال ما يضمن لهم حياة الكفاف، فقد تحوّل بعضهم إلى نهّابين وسرّاق وقطاع طرق، وإلى (إرهابيين)! وفقاً للتصنيف الغربي! وأما من كان منهم مسالماً بطبعه غير ميّال إلى العنف وهم الأكثرية، فقد فضلوا حياة العبودية على الحرية، في ظلّ غياب سياسة الإمام زين العابدين عليه السلام المتقدّمة، الأمر الذي دعا هؤلاء المحررين إلى الدعاء على (لنكولن) بالويل والثبور، بدلاً من الدعاء له بالعتق من نار جهنم.

ومنذ ذلك الحين واصل الزنوج عيشتهم البائسة على هامش المجتمع الأبيض، معزولين عنه بشكل يكاد يكون شبه كامل. وكانت المطاعم العامة حتى وقتٍ قريب ترفع لافتة على مداخلها، تمنع دخول السود والكلاب إليها. وظل الحال على ما هو حتى بعد إعلان المنشور العالمي لحقوق البشر، وتصرّم قرن من الزمن على وفاة (أبراهام لنكولن)، ووضع الزنوج من سيّئ إلى أسوأ. ويمكن أن نقف على صورة واضحة في تصوير هذه المأساة من خلال المشهد الذي يرسمه لنا المناضل (مارتن لوثر كينغ)[1]، في كلمته الأدبية الرائعة التي ألقاها

---

١ ـ مارتن لوثر كينغ (١٩٢٩ ـ ١٩٦٨م): قس ومناضل أميركي أسود. استخدم اللاعنف وسيلة للدفاع عن حقوق الزنوج الأميركيين المدنية متأثراً في ذلك بفلسفة (الساتياغراها) التي أبدعها المهاتما غاندي. منح جائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٤م. قتل غيلة على يد المتطرفين. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٦، ص٥٥.

وسط جمهور غفير، تجمّع بمناسبة مضي مئة عام على تاريخ إعلان التحرير، وذلك في عام ١٩٦٣م. يصوّر فيها (كينغ) البؤس والتعاسة التي ظلّ يرزح فيها الزنوج في أميركا منذ إعلان التحرير، مكرراً لازمته الشهيرة: (لا زلت احلم بالحرية، ولكن ها قد مضت مئة عام ولا نزال عبيداً)، وإليك فقرات من هذه الكلمة بنصها الإنجليزي:

Five score years ago, the great American, in whose symbolic shadow we stand today, signed the Emancipation Proclamation. This momentous decree came as a great beacon light of hope to millions of Negro slaves who had been seared in the flames of withering injustice. It came as a joyous daybreak to end the long night of their captivity.

But one hundred years later, the Negro still is not free. One hundred years later, the life of the Negro is still sadly crippled by the manacles of segregation and the chains of discrimination. One hundred years later, the Negro lives on a lonely island of poverty in the midst of a vast ocean of material prosperity. One hundred years later, the Negro is still languished in the corners of American society and finds himself an exile in his own land. And so we have come here today to dramatiz a shamefull condition.

I say to you today, my friends, so even though we face the difficulties of today and

tomorrow, I still have a dream. It is a dream deeply rooted in the American dream.

I have a dream that one day this nation will rise up and live out the true meaning of its creed: "We hold these truths to be self-evident, that all men are created equal."

I have a dream that one day on the red hills of Georgia, the sons of former slaves and the sons of former slave owners will be able to sit down together at the table of brotherhood.

I have a dream that my four little children will one day live in a nation where they will not be judged by the color of their skin but by the content of their character. I have a dream today[١].

هذا ولا يزال الاستعباد الغربي للناس مستمراً، فبعد أن زال على مستوى الأفراد ظاهرياً فقط، إذ لم يكن هذا التحرير الصوري قد تمّ لسواد عيون الإنسانية طبعاً، بل اضطر له الغرب اضطراراً بعد أن أخذ ينوء تحت ثقله. أخذ هذا الاستعباد بعد ذلك حتى هذه المرحلة يلبس ثوباً جديداً يتمثل باستعمار الشعوب والأوطان بشتى الذرائع والصيغ. وبمختلف الأساليب والطرق، ومن أشهرها تسويد شذاذ الآفاق من كلّ أمة وتحكيمهم على مصائرها، من طريق التحكّم بهم

---

1 -Luther King, Martin, A call to conscience, P.81 -85, Warner Books, New York, 2001.

وتحريكهم من بعيد بواسطة ما يشبه (الريموت كونترول)!

وما دويلة إسرائيل إلا واحدة من صيغ الاستعباد الغربي المعاصر للشعوب الآمنة في أوطانها.

٣- ترتيب السور في القرآن الموجود بين أيدينا:

إن القرآن المجموع بين الدفتين، والموجود بين أيدينا، والذي قطع عباب القرون؛ ليصل إلينا سالماً من جميع أنواع الدسّ والتحريف لتصدق نبوءة القرآن، إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١]، لم يتمّ ترتيب سوره بحسب التسلسل الزمني لنزولها، بل قد نجد الترتيب الراهن للقرآن مخالفاً تماماً لترتيب نزوله، إذ نجد أغلب السور المكية في آخر القرآن، بينما تقع السور المدنيّة في بداياته. من هنا اهتم العلماء منذ القدم، بالبحث والتحقيق بشأن معرفة ترتيب نزول القرآن. وقد عقدنا هذا الفصل لدراسة هذه الظاهرة وبيان آراء العلماء فيها.

ولكننا قبل الخوض في ذلك لابد لنا من مقدمة نبين فيها الترتيب الحالي للقرآن الكريم، فقد تمّ على أساسٍ من طول السور وقصرها، بمعنى تقديم الطوال على المئين، والمئين على المثاني، والمثاني على المفصلات (القصار) ـ وإنما سُميّت بالمفصلات لتقارب فواصلها ـ

---

١ ـ الحجر: ٩.

وهذا طبعاً إنما هو في الأعم الأغلب، إذا استثنينا سورة الفاتحة لافتتاح القرآن بها. وهناك استثناءات أخرى أيضاً، إذ نجد تقدّماً لبعض السور على سور أخرى أطول منها نسبيّاً.

وهناك شواهد تفيد أن معيار (الطول والقصر) في ترتيب سور القرآن كان متداولاً بين الصحابة، على ما يظهر من وصف مصحف عبد الله بن مسعود، وأُبيّ بن كعب. ومن الشواهد على ذلك أيضاً، ما يروى عن ابن عباس في اعتراضه على عثمان في ترتيب بعض السور، فقد قال: (قلت لعثمان: ما حملكم أن عمدتم إلى (الأنفال)، وهي من المثاني، وإلى (براءة) وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم)؟ قال عثمان: «كان رسول الله ﷺ ممّا يأتي عليه الزمان وتنزل عليه السور، وكان إذا نزل عليه شيءٌ دعا بعض من يكتب، فقال: (ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)، وكانت (الأنفال) من أوائل ما نزل من المدينة، وكانت (براءة) من آخر القرآن، وكانت [قصّتها] شبيهة بقصّتها، فقبض رسول الله ولم يبيّن لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم)»[١].

ثمّ هناك ترتيب للسور متصوّر على تسلسل حروف الهجاء،

---

١ ـ الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٣٢٩، دار المعرفة، ط٢، بيروت، ١٩٩٤.

ولكننا لا نراه بشيء، لأنّ أسماء السور ليست توقيفية أو تعبّدية بأجمعها، وإنما هي من الأمور الاعتبارية والاجتهادية، التي يصحّ معها تسمية السورة لأدنى مناسبة. بل هناك من السور ما يحمل أكثر من اسمٍ واحد، كما في سورة الفاتحة حيث تسمّى: الحمد، وأمّ الكتاب، وأمّ القرآن، والسبع المثاني، الخ. حتى قال السيوطي: (وقفت لها على نيّف وعشرين اسماً)[1]. ولذلك فقد أعرضنا عن ذكر هذا النوع من الترتيب.

وقد وقع البحث بين العلماء في أن ترتيب السور على ما هو موجود بين الدفتين، هل هو توقيفيّ وأنه كان بأمر النبي. أم هو اجتهاد من الصحابة؟ والآراء في ذلك ثلاثة:

الأول: إنه اجتهاد من الصحابة، وهو الذي ذهب إليه جمهور العلماء. قال ابن فارس:

> «جمع القرآن على ضربين؛ أحدهما: تأليف السور، كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا هو الذي تولته الصحابة. وأما الجمع الآخر: وهو جمع الآيات في السور؛ فهو توقيفي، تولاه النبي الأكرم ﷺ كما أخبر جبريلُ عن أمر ربّه»[2].

---

١ ـ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص١٦٧، دار ابن كثير، ط٣، دمشق ـ بيروت، ١٩٩٦.

٢ ـ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ص١٩٤ ـ ١٩٥، دار ابن كثير، ط٣، دمشق ـ بيروت، ١٩٩٦.

الثاني: إنه توقيفيّ تعهّده رسول الله ﷺ. قال أبوبكر الأنباري:

«أنزل الله القرآن كله إلى السماء الدنيا، ثمّ فرقه في بضعٍ وعشرين [سنة]، كانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جواباً لمستجد، ويوقفُ جبريلُ النبيَّ على موضع الآية والسورة، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كله عن النبيّ ﷺ؛ فمن قدّم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن»(١).

الثالث: التفصيل بالقول إنّ بعضه توقيفي، وبعضه اجتهادي. وبذلك حاول هذا الرأي أن يجمع بين الرأيين المتقدّمين. ولكنه مع ذلك، نشب الخلاف بين أنصار هذا الرأي في تعيين وتحديد السور التوقيفية والاجتهادية، ولم يخرجوا بنتيجة واحدة(٢).

ونحن نذهب إلى الرأي الأول، القائل بأنّ الترتيب الراهن للسور، إنما هو اجتهادٌ من قبل الصحابة؛ وذلك للدليل الذي أقامه أصحاب هذا الرأي، وهو: ما نشاهده من اختلاف مصاحف السلف في ترتيب السور، فمنهم من رتبها بحسب تسلسلها الزمني، كمصحف الإمام علي عليه السلام، والمحاولة المنسوبة لابن عباس على ما سيأتي بيانه،

---

١ ـ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ص١٩٥، دار ابن كثير، ط٣، دمشق ـ بيروت، ١٩٩٦.

٢ ـ أنظر: راميار، محمود، تاريخ قرآن، ص٦٠٠، انتشارات أمير كبير، طهران، ١٣٧٩.

بينما يبدأ مصحف عبد الله بن مسعود، وأُبيّ بن كعب، بالطوال ثمّ المئين إلى القصار على اختلافٍ بينهما؛ فلو كان الترتيب توقيفياً لما خالفوه، ولو خالفوه لأنكر عليهم. هذا وربما كان خصوص الترتيب الذي انتهجه الإمام علي عليه السلام توقيفياً، وأنه كان بأمرٍ من النبي، ولكن هذا لا ينافي التسويغ لغيره بأن يرتب سور القرآن وفقاً لذوقه، كما قد حصل بالفعل بعد رفض المصحف الذي ألفه علي بن أبي طالب عليه السلام.

٤- الأقوال في ظاهرة المكي والمدني:

بعد استعراضنا لمحاولات المسلمين لبيان الترتيب الزمني لنزول القرآن، كانت أولى المحاولات في تبويب السور القرآنية ضمن مجموعات تميزها من بعضها، هي تصنيفها إلى المكي والمدني. وهناك ثلاثة أقوال في هذا التقسيم، وهي:

الأوّل: المعيار المكاني، فالمكيّ ما نزل بمكة المكرّمة، والمدنيّ ما نزل بالمدينة المنوّرة.

الثاني: المعيار الخطابي، فما كان من القرآن خطاباً لأهل مكة، فهو مكيّ. وما كان منه خطاباً لأهل المدينة، فهو مدنيّ.

الثالث: المعيار الزمني، حيث يتمّ تقسيم سور القرآن على أساس الهجرة النبوية الشريفة، فما نزل من القرآن قبل الهجرة، فهو مكيّ حتى وإن كان خارجها. وما نزل بعد الهجرة، فهو مدني وإن نزل

في مكة بعد عام الفتح. كما أن المعيار في المدني، هو تحقق الدخول في المدينة، فما نزل من القرآن في الطريق إليها وقبل دخولها، فهو مكيّ.

روى السيوطي في الإتقان عن عثمان بن سعد الرازي، بسنده إلى يحيى بن سلام، قال: ما نزل بمكة، وما نزل في طريق المدينة، قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة، فهو من المكي. ثمّ علق السيوطي على ذلك قائلاً: (وهذا أثرٌ لطيفٌ يُؤخذ منه: أنّ ما نزل في سفر الهجرة، مكيّ اصطلاحاً)[1].

فيكون قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾[2]، مكيّاً؛ لنزوله بالجحفة، والنبي الأكرم ﷺ مهاجر إلى يثرب[3].

ولكن ينبغي استبعاد المعيارين الأولين، أما الأول فلكونه لايقدّم كبير فائدة للباحث والمحقق، مضافاً إلى عدم كونه جامعاً؛ فما نزل في الأسفار، لا يكون مكيّاً ولا مدنياً. وأما الثاني؛ فيفترض أن القرآن قد يكون خطاباً لأهل مكة، أو المدينة. في حين قد ثبت في محله، أن

---

١ ـ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص٢٦، دار ابن كثير، ط٣، بيروت، ١٩٩٦.

٢ ـ القصص: ٨٥.

٣ ـ الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٢٨٤، دار المعرفة، ط١، بيروت، ١٩٩٠.

العبرة في التعامل مع الآيات القرآنية، إنما تكون بعموم الوارد، لا بخصوص المورد. فما دامت الآية عامة، فالمخاطب بها عامّة الناس، ولا يمكن تحديدها بقوم دون غيرهم. وبذلك كان القول الثالث، هو الصحيح والمختار.

خصائص المكي والمدني:

اعتمد المسلمون عند محاولتهم التمييز بين المكي والمدني، على النصوص التاريخية أولاً، إذ استطاعوا تعرّف عددٍ كبير من السور المكية والمدنية؛ فاستخلصوا منهما بعض الخصائص التي تغلب على إحدى الحقبتين دون الحقبة الأخرى، ثمّ أخذوا يقيسون ما لم يرد فيه نصّ تاريخي من السور، فيصنفونه في المكي إذا توفرت فيه خصائص المكي، أو يصنفونه في المدني إن اشتمل على خصائص المدني.

ومما ذكروه للسور المكية من الخصائص، الأمور الآتية:

١ ـ قصر الآيات والسور.

٢ ـ الدعوة إلى أصول الإيمان بالله والوحي وعالم الغيب واليوم الآخر.

٣ ـ مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم.

٤ ـ التعبير بـ(يا أيها الناس)، بدلاً من التعبير بـ(يا أيها الذين آمنوا).

٥ ـ الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة.

في حين تميزت السور المدنية بما يأتي:

١ ـ طول السور والآيات.

٢ ـ تفصيل البراهين والأدلة على الحقائق الدينية.

٣ ـ مجادلة أهل الكتاب.

٤ ـ ذكر المنافقين.

٥ ـ تفصيل الأحكام والحدود والشرائع[١].

قال إبراهيم بن إبراهيم الجعبري[٢]، في بيان بعض من هذه الخصائص التي تميز المكي من المدني:

«لمعرفة المكي والمدني طريقان: سماعي وقياسي. فالسماعي ما وصل إلينا نزوله بأحدهما [أي بالمدينة أو بمكة]، والقياسي، قال علقمة[٣]، عن عبد الله بن مسعود: كلّ سورة فيها (يا أيها الناس)، أو (كلا)، أو أولها

---

١ ـ أنظر: الحكيم، محمد باقر، علوم القرآن، ص٧٧ ـ ٧٨، مجمع الفكر الإسلامي، ط٣، قم، ١٤١٧.

٢ ـ إبراهيم بن عمر بن إبراهيم المقرئ برهان الدين أبو إسحاق الجعبري، شيخ بلد الخليل، له شرح كبير (للشاطبية) كامل في معناه، و(شرح الرائية)، و(قصيدة لامية) في القراءات العشر، توفي سنة ٧٣٢. نقلاً عن (البرهان في علوم القرآن) للزركشي، ج١، ص١٤٩.

٣ ـ هو علقمة بن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي. ولد في حياة رسول الله ﷺ. روى عن عليّ عليه السلام وعمر وعثمان وابن مسعود. وروى عنه عامر الشعبي وجماعة. قال أبوظبيان: (أدركت ناساً من أصحاب النبي ﷺ يسألون علقمة ويستفتونه). توفي سنة٦٢هـ بالكوفة. (تهذيب التهذيب) لابن حجر، نقلاً عن (البرهان في علوم القرآن) للزركشي.

حروف تهجّ سوى الزهراوين [البقرة، وآل عمران] والرعد في وجهٍ، أو فيها قصّة آدم وإبليس سوى الطولى [البقرة]، فهي مكية. وكلّ سورة فيها قصص الأنبياء، والأمم الخالية، مكية. وكلّ سورة فيها فريضة، أو حدّ، فهي مدنية»[1].

وقال ثيودور نولدكه في معرض بيان التطور الداخلي في القرآن، وتمييز المرحلة المكيّة من المدنية:

«إنّ الهدف الكبير الوحيد الذي يتبعه محمد في السور المكيّة، هو دعوة الناس إلى الإيمان بالإله الواحد الحقّ، وما لا ينفصل عن ذلك من الإيمان بقيامة الأموات، والحساب في يوم الدين»[2].

ومما لا شك فيه أن هذه الخصائص قد تؤدي إلى ترجيح أحد الاحتمالين على الآخر، ولكنها مادامت أغلبية وليست دائمية، فلايمكن الأخذ بها على إطلاقها، فقد نجد بعض خصائص المكي في بعض السور المدنية، ولو في سورة واحدة منها، والعكس صحيح أيضاً. وعليه

١ ـ الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٢٧٦، دار المعرفة، ط٢، بيروت، ١٩٩٤. والسيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص٥٣، دار ابن كثير، ط٣، بيروت، ١٩٩٦.

٢ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٦٥.

لا يمكن التعويل على أيّ من هذه الخصائص في تحديد المكي أو المدني بضرس قاطع، أو قول جازم. نعم قد يبعث ذلك على الظن، ولكنه لا يغني من الحقّ شيئاً، ويكون القول به رجماً بالغيب، وعليه لا يجوز التعويل على مثل هذه الخصائص، أو الأخذ بها، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [1].

محاولات مشبوهة للتمييز بين المكي والمدني:

بالنظر إلى الفوارق المتقدّمة بين الأسلوب المكي والمدني، حاول بعض المخالفين والمستشرقين الطعن في القرآن الكريم، متخذاً من ذلك دليلاً على تأثر القرآن بالبيئة التي نزل فيها، ونحن وإن كنا لا ننكر وجود التطوّر في النهج القرآني، ولكننا نرفض أن يكون ذلك بسبب تأثر القرآن بالبيئة، بل يعود سبب ذلك إلى مراعاة القرآن ـ بوصفه كتاب هداية وتربية ـ للظروف بقصد التأثير، والوصول إلى أفضل النتائج، بالإضافة إلى طبيعة الحوادث التي كانت تفرض على القرآن عدم التقدم عليها واستباقها، فلم يكن بإمكان القرآن أن يتحدّث عن مشاكل اليهود أو المنافقين في الحقبة المكية، بعد أن كان الوضع فيما يتعلق بهم سالبة بانتفاء الموضوع. وبعبارة أخرى: إن التغيير في الأسلوب القرآني لا يعود إلى عجز الله تعالى عن استباق الأحداث أو

١ ـ الإسراء: ٣٦.

جعلها على وتيرة واحدة بحيث تكون جميع الآيات والسور على نسق واحد، بل لما كان القرآن كتاب هداية يهدف إلى تربية الإنسان، كان من الضروري أن تؤخذ طبيعة هذا الإنسان المحدودة بنظر الاعتبار، فكان السبب في تغير واختلاف الأسلوب القرآني يعود قبل كلّ شيء إلى نقص وقصور في الإنسان نفسه، لكونه محدوداً بحدود الزمان والمكان، لا إلى الله تعالى الذي خلق الزمان وأيّن الأين، كيف وقد أثبتنا في مستهل هذا الفصل، نوعين من النزول للقرآن، وأن القرآن قد نزل في أحدهما جملة واحدة، وأن الله لا يعجزه شيء، فلا يُنسب الله إلى ضعف.

وعليه لابد لنا أن نفرّق بين فكرة تأثر القرآن بالظروف الزمانية والمكانية، وبين مراعاته لتلك الظروف بقصد التأثير فيها، وذلك لأن الفكرة الأولى تنطلق من إنكار الوحي أساساً واعتبار القرآن نتاجاً شخصياً لمحمد ﷺ، وهو باطل جملة وتفصيلاً على ما مرّ بيانه في الفصل الثاني من هذه الدراسة. وعلى هذا الأساس، نجزم ببطلان جميع الشبهات التي أثيرت وتثار حول الأسلوب المكي والمدني.

من تلك الشبهات ما قيل في بيان تمييز المكي من المدني: إن المكيّ يتفرّد بالعنف والشدة والقسوة والحِدّة، والغضب، والسباب، والوعيد، والتهديد. بغية إثبات أنّ القرآن مفكك الأجزاء غير مترابط الحلقات، وأنه ليس كلاماً سماوياً، بل هو كسائر الأعمال البشرية متأثر بالظروف البيئية، وبالتالي لايمكن أن يكون معجزة، وما هو إلا كلام

محمد الذي سار في بداية أمره متأثراً بأسلوب أهل مكة البدوي البعيد عن التحضر، ثم بدّل نهجه بعد الهجرة متأثراً بطبيعة المدنيين المتحضرين[1]!

وأما ردّنا على هذا المعيار الباطل فواضح جداً إذ نقول: إنّ هذه التهمة لا تصح طرداً ولا عكساً، فالشدة والعنف كما هو موجود في المكيّ، موجود في المدني أيضاً. مضافاً إلى أن المكي لا يخلو من اللين والتسامح في الكثير من مواطنه.

ومن الأمثلة على توفر السور المدنية على الشدّة والأسلوب اللاذع قوله تعالى على سبيل التمثيل دون الحصر: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [2]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنْ اللهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمْ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى

---

١ - محمد باقر الحكيم، علوم القرآن، ص٨٢، مجمع الفكر الإسلامي، ط٣، ١٤١٧ق.

٢ ـ البقرة: ٢٤.

٣ ـ البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ [1].

هذا وإن دعواهم بأنّ السور المكية قد غلب عليها طابع الشدة والقسوة، تدلّ بمفهومها على خلو هذه السور من الصفح واللين، وهي تهمة باطلة مثل منطوقها، والدليل على ذلك أنك تجد السور المكية مفعمة بآيات كريمة تطفح بالرقة والرأفة والتسامح، ولايملك من يقرأها، إلا أن يهتز لرقتها ويقشعر بدنه لما تحتويه من معاني الرحمة والرأفة، من ذلك قوله تعالى على سبيل التمثيل دون الحصر أيضاً: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [2]. وقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [3]. وقوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [4]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ

---

١ ـ آل عمران: ١٠ ـ ١١.

٢ ـ الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤.

٣ ـ فصّلت: ٣٤.

٤ ـ الشورى: ٤٠.

اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [١].

وأما دعوى السباب بمعنى فاحش القول، فهي منفية عن القرآن بكلا مرحلتيه المكية والمدنية، ويردها قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [٢].

نعم هناك في القرآن بقسميه المكيّ والمدنيّ شدّة يقتضيها تسفيه أحلام المعاندين الذين لا يصيغون السمع، ولا يفتحون أعينهم لساطع البراهين، وتدعو إليها رحمة الله ورأفته بعباده، شأنه في ذلك شأن الطبيب الحريص على شفاء مريضه المتحمّس إلى بُرئه، حتى إذا اضطرّه ذلك إلى استعمال المبضع والمشرط، إذ ليس له من غاية سوى إنقاذه من براثن الموت ومخالب الضياع. فكذلك القرآن الكريم في قسوته وشدته يسعى إلى صعق الغافلين، وانتشالهم من الضلالة، وإعادتهم إلى الصواب وإرشادهم وهدايتهم إلى الجادّة والصراط المستقيم، فهو بذلك كما قال القائل:

فقسا ليـزدجروا ومن يكُ حـازماً   فليقسُ أحياناً على من يَرحمُ

وقيل أيضاً: إنّ الأسلوب المكي يمتاز بقصر السور والآيات، خلافاً للأسلوب المدني الذي يمتاز بالتفصيل والإسهاب[٣]، مما يدلّ

---

١ ـ الزمر: ٥٣.

٢ ـ الأنعام: ١٠٨.

٣ ـ المصدر المتقدم، ص٨٥.

على انقطاع الصلة بين هاتين الحقبتين من نزول القرآن، وتأثره بالبيئة التي عاشها محمد طوال نبوّته، فلأنّ المجتمع المكي يمتاز بالأمية، لم يكن النبي بقادرٍ على أن يفصّل في شرح المفاهيم، وإنما أمكنه ذلك عندما أخذ يعيش في مجتمع المتحضرين في المدينة[١]!

وتردّ هذه الشبهة بأن قصر المكي وطول المدني وإن كان هو الغالب، ولكنه ليس على إطلاقه، فهو لا يصح عكساً ولا طرداً، فقد نجد في المدني سوراً قصيرة، كما هو الحال بالنسبة إلى سورة النصر والزلزلة والبينة وغيرها. كما نجد سوراً طويلة في المرحلة المكية، من قبيل: سورة الأنعام والأعراف، وعليه لايكون هناك انقطاع بين الأسلوب المكي والمدني، إذ يكفي في تحقيق هذه الصلة، أن يأتي القرآن ببعض السور الطويلة في المكي، وبعض السور القصيرة في المدني.

وقيل: إن القسم المكي لم يتناول الجانب التشريعي وبيان الأحكام التكليفية، بل اهتم بالأصول والعقائد[٢]، خلافاً للقسم المدني

١ ـ وكأنّ هذا حصل فجأة وبقدرة قادر، مع أننا نعلم أن التغيير في النهج والأسلوب من البساطة إلى التعقيد، والانتقال من الأفكار الساذجة والعفوية، إلى الأفكار الفلسفية المعقدة لا يتحقق بمثل هذه السرعة! فإذا حصل ذلك وقد حصل بالفعل فلابد أن يكون بتسديد من قوة ميتافزيقية، وبذلك يكون هذا دليلاً لنا لا علينا. الباحث.

٢- محمد باقر الحكيم، علوم القرآن، ص٨٧، مجمع الفكر الإسلامي، ط٣، ١٤١٧ق.

الذي اهتمّ بالفروع والأحكام. وهذا يعبّر عن جانبٍ آخر من تأثر القرآن بالأجواء المحيطة به، والأجواء التي يعيشها، إذ لم يكن المجتمع المكي منفتحاً على تشريعات أهل الكتاب، بعكس المجتمع المدني الذي تأثر إلى حدّ كبير بثقافة الأديان السماوية من اليهودية والنصرانية.

ويمكن الوقوف على بطلان هذا التهمة بمراجعة الكتب الفقهية المصنفة في آيات الأحكام، إذ نجد عدداً كبيراً من الآيات المكية، تناولت فروع الدين، وأبواب الفقه والتشريع، من الطهارة، والصلاة، والزكاة، إلى أحكام القصاص، وأنواع المكاسب، وغير ذلك. فمن الأمر بالتطهّر قوله تعالى: ﴿ **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ** ﴾ [١]، فقد ذهب الأكثر إلى أنّ المراد من هذه الآية: الطهارة من النجاسات[٢]. وفي تشريع الصلاة، قال تعالى: ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى** ﴾ [٣]. بل وبيان بعض أحكام الصلاة، من قبيل الساتر، قال تعالى: ﴿ **يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ [٤]، اتفق المفسّرون على أنّ المراد بأخذ الزينة هو ستر العورة

---

١ ـ المدّثر: ٤ ـ ٥.

٢ ـ المقداد السيوري، جمال الدين، كنز العرفان في فقه القرآن،ج١، ص٥٤، المكتبة المرتضوية، طهران، ١٣٨٤ق.

٣ ـ طه: ١٣٢.

٤ ـ الأعراف: ٣١.

في الصلاة[١]. ووجوب القراءة في الصلاة، لقوله تعالى: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ [٢]، قال المقداد السيوري: دلنا على وجوب قراءة شيء من القرآن، ولا شيء من القرآن في غير الصلاة بواجب، فيكون الوجوب في الصلاة، وهو المطلوب. أمّا الصغرى، فلصيغة الأمر الدالة على الوجوب. وأمّا الكبرى، فإجماعية[٣]. وتفصيل أنواع القراءة بالجهر في بعضها والإخفات في بعضها الآخر، حيث قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ [٤].

ومن تشريع الزكاة ـ خلافاً لمن يدّعي عدم تشريع الزكاة في مكة ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾[٥]، قال ابن كثير في تفسير الآية:

«الأكثرون على أنّ المراد بالزكاة ههنا، زكاة الأموال، مع أنّ هذه الآية مكيّة، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أنّ التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أنّ أصل الزكاة واجبٌ

---

١ ـ المصدر المتقدّم، ج١، ص٩٥.

٢ ـ المزمّل: ٢٠.

٣ ـ المقداد السيوري، جمال الدين، كنز العرفان، ج١، ص١١٨، المكتبة المرتضوية، طهران، ١٣٨٤ق.

٤ ـ المصدر المتقدّم، ص٢٢١.

٥ ـ المؤمنون: ٤.

بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [١]»[٢].

وبذلك فإنّ ابن كثير يقرّ بوجوب أصل الزكاة في مكة، ولكنه يذهب إلى أنها لم تكن معلومة المقادير، ولم يعرف مقدار الواجب منها إلا في المدينة، في السنة الثانية من الهجرة على وجه التحديد.

ولكن يردّه قوله تعالى في سورة المعارج وهي مكية أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾، فقد تمّ تقييد الزكاة بكونها حقاً معلوماً. ولا يمكن أن يكون هذا الحقّ معلوماً إلا بتحديد مقداره من قبل الله تعالى، فلو ترك تحديده للمكلف نفسه لبقيَ على حاله من عدم المعلومية، إذ نجهل المقدار الذي سيحدده ذلك المكلف، فلا يكون حقاً معلوماً كما بيّنت الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[٣]، قال المقداد السيوري: هذه الآية صريحة في وجوب الزكاة على الكافر؛ للتوعّد على عدم إتيانها[٤].

---

١ ـ الأنعام: ١٤١.

٢ ـ ابن كثير، أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٤٠٣، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٨.

٣ ـ فصّلت: ٦ ـ ٧.

٤ ـ المقداد السيوري، جمال الدين، كنز العرفان، ج١، ص٢٢١، المكتبة المرتضوية، طهران.

هذا وقد ذهب بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** ﴾، فراراً من محذور القول بوجوب الزكاة في مكة، إلى القول: «إنّ المراد من الزكاة هنا، هو زكاة النفس وطهارتها من الرذائل، على غرار قوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** ﴾ [١]»[٢].

ولكنّ هذا الكلام مردود باقتران لفظ الزكاة في الآية بـ (الإتيان) الذي يعني الإعطاء. ولذا نجد ابن جرير الطبري يذهب إلى تفسير الزكاة في هذه الآية بزكاة الأموال، حيث قال بعد استعراض الآراء والأقوال في المراد من الزكاة في هذه الآية:

«والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا: معناه لا يؤدّون زكاة أموالهم. وذلك أنّ ذلك هو الأشهر في معنى الزكاة... وفي إتباع الله قوله ﴿ **وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** ﴾ قوله ﴿**الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**﴾، ما يُنبئ عن أنّ الزكاة في هذا الموضع، معنيّ بها زكاة الأموال»[٣].

---

١ ـ الشمس: ٩ ـ ١٠.

٢ ـ ابن كثير، أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٤٠٣، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٨.

٣ ـ الطبري، ابن جرير، تفسير الطبري، ج٢٠، ص٣٨٠، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط١، القاهرة، ٢٠٠١.

لا بل إننا نجد أن الله تعالى قد قرن الزكاة في غير واحد من الآيات بالصلاة، وكأنه يُساوق بين وجوبها ووجوب الصلاة التي إن قبلت قبل ما سواها، وإن ردّت ردّ ما سواها. من ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1]. بل وبّخ المصلي إذا امتنع من أداء الزكاة، حيث قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْـمَاعُونَ﴾ [2].

وبذلك يثبت وجوب الزكاة في الحقبة المكية بشكل تفصيلي.

وفي أحكام المكاسب قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [4]. وفي القصاص، قوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَـمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾[5]، قال المقداد

---

١ ـ النمل: ٣.

٢ ـ الماعون: ٤ ـ ٧.

٣ ـ هود: ٨٥.

٤ ـ المطففون: ١ ـ ٣.

٥ ـ الشورى: ٤٠ ـ ٤١.

السيوري: (فيها دلالة على أنه من أوقع به ظلمٌ في نفسٍ أو طرفٍ أو شجاج أو مال، فانتصر بعد ظلمه، أي: استوفى حقه، فليس عليه سبيل من المعاتبة واللوم)[1].

إلى غير ذلك من الأحكام، من قبيل قوله تعالى: ﴿ قُلْ لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[2].

وبذلك يتبين لك مقدار ما لهذه التهمة من البعد عن الحقيقة ومجانبة الصواب. هذا ولو سلمنا صحّة الشبهة المتقدّمة، فيمكن القول: إن فروع الدين في الشرع الإسلامي مترتبة على الأصول، على غرار المثل القائل: (العرش ثمّ النقش)، وعليه فمن الطبيعي أن تركز الدعوة في بداية أمرها على الجانب العقائدي، وبيان أصول الدين، تثبيتاً للعرش وتمهيداً لبيان الأحكام والفروع، والنقش على ذلك العرش في وقت لاحق، من هنا كانت أغلب الأحكام التشريعية وفروع الدين قد شرّعت في السور المدنية، ولكن هذا لا ينفي نزول بعض الأحكام في الحقبة المكية، كما تقدّم.

---

١ ـ المقداد السيوري، جمال الدين، كنز العرفان، ج٢، ص٣٧٢، المكتبة المرتضوية، طهران، ١٣٨٤ق.

٢ ـ الأنعام: ١٤٥.

وقيل أيضاً: إنّ الأسلوب المكي لم يتناول البراهين والأدلة[1]، خلافاً للمدني الذي كان مشبعاً بالاستدلالات العقلية والمنطقية، وهو تعبيرٌ آخر – على زعم هؤلاء – عن تأثر القرآن بالظروف البيئية والاجتماعية، إذ عجز القرآن في رأيهم عن تناول الجانب الذي يدلّ على عمق النظر في الحقائق الكونية عندما كان محمّد يعيش في مكة مجتمع الأميين، بينما ارتفع في هذا الجانب عندما جاور أهل الكتاب في المدينة، نتيجة لتأثره بهم؛ لكونهم أصحاب فكر وفلسفة ومعرفة بالديانات السماوية.

ويردّ هذا القول أيضاً: إنّ القسم المكي لم يخلُ من الأدلة والبراهين، بل تناولها في كثيرٍ من سوره، والشواهد على ذلك من القرآن كثيرة، فمن نماذج وموارد الاستدلال على التوحيد، قوله تعالى في سورة (المؤمنون): ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ [2]. وقوله في سورة الأنبياء: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ الله رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾[3]. وفي معرض الاستدلال على البعث والنشور، قال تعالى في سورة ق: ﴿ **وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ**

١ ـ الحكيم، محمد باقر، علوم القرآن، ٨٩، مجمع الفكر الإسلامي، ط٣، ١٤١٧ق.

٢ ـ المؤمنون: ٩١.

٣ ـ الأنبياء: ٢٢.

جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [1]. وقوله تعالى في سورة يس: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [2].

ثمّ لو سلمنا جدلاً بصحة الأقوال المتقدّمة، فيمكن تفسير ذلك على أساس مراعاة طبيعة المواجهة، فقد كانت الدعوة الإسلامية في مهدها في مكة المكرمة تواجه المشركين وعبدة الأوثان، فكان من الطبيعي أن يواجه القرآن هذا الصنف بأدلة يغلب عليها الطابع الفطري والوجداني، والقرآن كما ـ هو واضح ـ كتاب تغيير وهداية، وليس كتاباً علمياً جافاً، فهو يواكب تطوّر الدّعوة في نزول آياته، من هنا حينما اختلفت طبيعة الموقف، وأضحت الأفكار تمتاز بكثير من التعقيد، كما هو الحال في عقائد أهل الكتاب، اقتضى الموقف مواجهتها بأسلوب آخر من البرهان، أكثر تعقيداً وتفصيلاً[3].

وهذا ما توصّل إليه (ثيودور نولدكه) نفسه، حين قال: «لا داعي من التعجّب من هذا التطوّر، فهو يوافق قانون الطبيعة. ولا يجوز للمرء أن يأسف لحصوله، وذلك نظراً إلى النجاح الذي كلل به»[4].

---

١ ـ ق: ٩ ـ ١١.

٢ ـ يس: ٧٨ ـ ٧٩.

٣ ـ وللمزيد من التفصيل راجع: الزرقاني، عبد العظيم، مناهل العرفان، ج١، ص١٩٩.

٤ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص١٠٥.

٥- الأقوال في أوّل وآخر ما نزل من القرآن الكريم:

اختلف العلماء في أوّل ما نزل من القرآن على ثلاثة أقوال:

الأول: الآيات الأولى من سورة العلق، وهو الذي صحّحه العلامة أبو عبد الله الزنجاني[١]، والحافظ جلال الدين السيوطي[٢]. ولم يتم حسمها عند (ثيودور نولدكه)، بل ذهب إلى إمكان قولها في أيّ وقت، ولكنه مع ذلك لا يتردد في إرجاعها إلى الفترة الأولى من الحقبة المكية، مدفوعاً بقوّة أسلوبها وإيقاع أجزائها القصير[٣].

الثاني: سورة المدثر، فقد روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: سألت جابر بن عبد الله، أيّ القرآن أنزلَ قبلُ؟ قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْـمُدَّثِّرُ ﴾. والأرجح أن جابراً كان ناظراً إلى أول ما نزل من الوحي بعد الفترة، وذلك لما روي عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدّث عن فترة الوحي، قال: فبينما أنا أمشي إذ سمعت هاتفاً من السماء؛ فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء.. فرجعت فقلت: زمّلوني، زمّلوني؛ فدثروني، فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الْـمُدَّثِّرُ ﴾[٤].

---

١ ـ أنظر: الزنجاني، أبو عبد الله، تاريخ القرآن، ص٣٠، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت.

٢ ـ السيوطي، جلال‌الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص٧٦، دار ابن كثير، ط٣، بيروت.

٣ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٧٥.

٤ ـ الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٢٩٤، دار المعرفة، ط٢، بيروت، ١٩٩٤.

الثالث: سورة الحمد، قال الزمخشري في الكشاف: «أكثر المفسرين على أنّ الفاتحة أوّل ما نزل». وروى العلامة الطبرسي عن أحمد الزاهد بإسناده عن سعيد بن المسيّب عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «سألت النبي صلى الله عليه وآله عن ثواب القرآن؛ فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء، فأوّل ما نزل عليه بمكة: فاتحة الكتاب، ثم اقرأ باسم ربّك، ثم ن والقلم..»[١].

وقال جلال الدين السيوطي: «لم يُحفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير الفاتحة»[٢].

وأما آخر ما نزل من القرآن فقد اختلف فيه على أقوالٍ أيضاً:

الأول: سورة النصر، وهو المروي عن الإمام الصادق عليه السلام [٣]. وأخرجه مسلم عن ابن عباس، قال: آخر سورة نزلت: (النصر)[٤].

---

١ ـ الطبرسي، أبو علي، مجمع البيان، ج١٠، ص٢١٢، مؤسسة الأعلمي، ط١، بيروت، ١٩٩٥.

٢ ـ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص٣٤، دار ابن كثير، ط٣، بيروت، ١٩٩٦.

٣ ـ البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، ج١، ص١٨٥، مؤسسة البعثة، ط١، بيروت، ١٩٩٩.

٤ ـ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص٨٩، دار ابن كثير، ط٣، بيروت، ١٩٩٦.

الثاني: سورة (براءة)[1].

الثالث: روي إن آخر آية نزلت: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** ﴾ [2].

الرابع: قال ابن واضح اليعقوبي ﷺ: وقد قيل: إنّ آخر ما نزل عليه ﷺ: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾[3]. قال: وهي الرواية الصحيحة الثابتة الصريحة، كان نزولها يوم [النفر] على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، [بعد ترحّم][4].

---

١ ـ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص٨٩، دار ابن كثير، ط٣، بيروت، ١٩٩٦.

٢ ـ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص٨٦، دار ابن كثير، ط٣، بيروت، ١٩٩٦.

٣ ـ المائدة: ٣.

٤ ـ اليعقوبي، ابن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج١،ص٣٦٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت، ١٩٩٣، بتحقيق: الدكتور عبد الأمير علي مهنا. وهذا النصّ هو الذي وجدناه في أكثر طبعات (تاريخ اليعقوبي) التي توفرت عندنا، وقد بقي في النفس شيء من معنى (يوم النفر على أمير المؤمنين)؛ إذ لم نعهد يوماً في الإسلام معروف بأنه يوم النفر على أمير المؤمنين. ومن جهة أخرى لم نفهم معنى عبارة (بعد ترحّم)، وهل هناك محذور في أن تكون الصلاة عليه قبل الترحم! ولكن الذي هوّن الخطب، وذلل الصعب، أننا وجدنا في طبعة (ليدن)، ج٢، ص٤٣ـ٤٤، أنها تذكر في الهامش عن نسخة أخرى (النصّ) بدل (النفر)، فتكون العبارة: (يوم النصّ على أمير المؤمنين)، وبدلاً من (ترحم)، (يرخم)، فأدركنا أن (بعد ترحم) تصحيف عن (بغدير خم)، وبذلك يستقيم المعنى بشكلٍ كامل.

وهناك أقوالٌ أخرى، قال عنها القاضي أبو بكر في كتاب (الانتصار): «وهذه الأقوال ليس في شيءٍ منها ما رفع إلى النبي ﷺ، ويجوز أن يكون قاله قائله بضربٍ من الاجتهاد، وتغليب الظن»[1].

فإذا كان هذا هو حجم الاختلاف في بيان أول وآخر ما نزل من القرآن، يمكننا حينئذٍ أن نتصور كم سيكون مقدار الاختلاف والتفاوت في مجموع سور وآيات القرآن الكريم كلها. فلذلك علينا أن نعترف منذ البداية بأنّ عملية الوصول إلى نتيجة قطعية ومضمونة لترتيب نزول القرآن زمنياً، عملية في غاية التعقيد والصعوبة، وينطبق عليها المثل القائل: (إنّ من دونها خرط القتاد)!

٦- الفائدة في معرفة ترتيب النزول:

إنّ لمعرفة الترتيب الزمني لنزول سور القرآن الكريم وآياته فوائد جليلة، نشير فيما يأتي إلى بعضها:

الأولى: معرفة الناسخ من المنسوخ، إذ من الطبيعي أن يتقدم المنسوخ على الناسخ بحسب التوقيت الزمني؛ لأنّ الناسخ ناظر إلى المنسوخ، فإذا لم يكن هناك منسوخ أولاً، فلا يعقل أن يكون هناك

---

١ ـ الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٣٠٠، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٤، ط٢.

ناسخ، ونسوق لذلك مثلاً ما ادعاه ابن إدريس الشافعي، إذ قال بنسخ قوله تعالى: ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [1]. بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾[2]. فإذا عرفنا المتقدم نزولاً من هاتين الآيتين يتبيّن لنا خطأ ما ذهب إليه الشافعي؛ لكون ما حسبه ناسخاً متقدماً على ما حسبه منسوخاً، وذلك لأنّ آية حفظ الفروج مكية، وآية الاستمتاع قد نزلت في المرحلة المدنية.

الثانية: إثبات أمرٍ عقائدي، مثل الإسراء بالنبي الأكرم هل كان روحانياً أم جسمانياً، فالذين يستندون إلى روحانيته يتمسكون برواية (عائشة) إذ قالت: «في ليلة المعراج، لم يفارق جسدي رسولَ الله». فإذا عرفنا أنّ الإسراء قد حدث في مكة، وأنّ آية الإسراء قد نزلت في مكة، لم يكن ما نسب إلى عائشة صحيحاً؛ لأن زواجها من النبي لم يكن إلا في المدينة.

الثالثة: إثبات فضيلة لأهل البيت أو أحد الصحابة، كما في سورة الإنسان التي تضمّنت آيات، ذهب جمهور المفسرين إلى أنها نزلت في علي وفاطمة والحسنين عليهم السلام في قصة معروفة، ولكن عبد الله

---

١ ـ النساء: ٢٤.

٢ ـ المؤمنون: ٥ ـ ٧.

بن الزبير ينفرد من بين الصحابة باعتبارها مكية، ليصرفها عن أهلها.

الرابعة: إثبات صحة واقعة تاريخية أو عدم صحتها، من قبيل ما قيل في شأن نزول قوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾[1]، من أنها نزلت في أبي طالب، عندما كان يحتضر، فقال له النبي الأكرم ﷺ: «قل أشهد أن لا إله إلا الله، حتى أشهد بها لك يوم القيامة»، فلم يفعل، فنزلت هذه الآية! ولكننا إذا عرفنا أنّ أبا طالب قد توفي في مكة وفي عام الحزن، وأنّ هذه الآية قد نزلت في المدينة ضمن سورة التوبة وهي من آخر ما نزل من القرآن، علمنا عدم صحة هذه النسبة وهذه الواقعة.

الخامسة: فهم محتوى الآيات، خصوصاً في الجانب الفقهي على ما قيل، ومثل لذلك بقوله تعالى: ﴿ **وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** ﴾[2]، إذ قيل: لربما يُفهم منها تكليف المشركين والكفار بالفروع، ولكنّ معرفتنا بكون هذه الآية مكيّة، حيث لم يُشرّع وجوب الزكاة على المسلمين فضلاً عن غيرهم، تمنعنا من التمسّك بظاهر هذه الآية، وما ذلك إلا بفضل معرفة ترتيب النزول!

---

١ – التوبة: ١١٣.

٢ ـ فصّلت: ٦ ـ ٧.

ولكن الحقّ أنّ هذا أوّل الكلام، فمن قال إنّ تشريع الزكاة لم يحصل في مكة المكرمة، وقد سبق أن ذكرنا آنفاً في معرض بيان المحاولات المشبوهة للتمييز بين المكي والمدني، الكثير من الآيات التي نزلت في مكة في تشريع الزكاة، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾، وقد علق الفاضل المقداد عليها قائلاً:

> «هذه الآية الشريفة صريحة في وجوب الزكاة على الكافر؛ للتوعّد على عدم إتيانها، لكنه لا يصحّ منه أداؤها حال كفره؛ لعدم إخلاصه، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالله وَبِرَسُولِهِ ﴾، فإذا أسلم سقطت عنه، لقوله ﷺ: (الإسلام يجبّ ما قبله)»[2].

السادسة: معرفة التسلسل التاريخي لأحداث الإسلام، وهي غاية يطمح لها كلّ متخصص في التاريخ الإسلامي، ويبذل كل ما لديه من غالٍ ونفيس من أجل الوصول إليها. مضافاً إلى فوائد أخرى نعرض عنها رعاية للاختصار.

---

١ ـ المعارج: ٢٤ ـ ٢٥.

٢ ـ المقداد السيوري، جمال الدين، كنز العرفان في فقه القرآن، ج١، ص٢٠١- ٢٠٢، المكتبة الرضوية، طهران، ١٣٨٤ق.

٧- ترتيب السور والآيات بحسب النزول الزمني:

بعد أن كان القرآن الذي بين أيدينا في ترتيب سوره، مخالفاً للترتيب الزمني لنزول سور القرآن، وعدم توفر نسخة من المصحف الذي جمعه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، إذ تنكر له أصحاب القرار السياسي، كما تنكروا لقرينه ومن سهر على ترتيبه ستة أشهر تصرّمن بعد رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. ظهرت منذ القدم محاولات عديدة، تعتمد النقل أو العقل أو كليهما، في بيان ترتيب نزول سور القرآن زمنياً.

فهناك القائمة التي تعتمد على روايات تنتهي بأجمعها إلى ابن عباس وهي القائمة المعتمدة حالياً عند الأزهر الشريف، وتبدأ بسورة العلق وتنتهي بسورة النصر. وهناك قائمة يذكرها ابن النديم في الفهرست، وقائمة أخرى يقدمها عمر بن عبد الكافي. وإليك بياناً بهذه القوائم الثلاث، لنعمل فيما بعد على موازنة بينها وبين القائمة التي يقدمها المستشرق الألماني (ثيودور نولدكه) وغيره من المستشرقين.

٨ ـ آراء المسلمين في بيان ترتيب النزول:

إننا لو راجعنا الكتب التي عالجت مسألة ترتيب النزول، لوجدنا عدداً من القوائم، منها القائمة المنسوبة لجابر بن زيد، وثانية يرويها بدر الدين الزركشي في برهانه عن البيهقي، بإسناده إلى عكرمة، والحسن البصري، في آخر (دلائل النبوّة)، وثالثة إلى ابن عباس، ورابعة عن

سعيد بن المسيّب، وهي لا تختلف في جوهرها عن بعضها، كما أنها لا تختلف عن القائمة المعتمدة لدى الأزهر الشريف وغيره، إلا بشكل يسير بتقديم وتأخير في بعض السور بفارق سورة أو سورتين، وربما كانت تعود بأجمعها إلى مصدر واحد، لا يبعد أن يكون هو ترتيب ابن عباس. ولذلك سنكتفي هنا بذكر القائمة المنسوبة لابن عباس، مع قائمتين أخريين؛ إحداهما لابن النديم مذكورة في الفهرست، والقائمة الأخرى لعمر بن عبد الكافي، لنتعرض بعد ذلك إلى استقصاء محاولات المستشرقين في هذا المجال، ومنهم (ثيودور نولدكه) بغية المقارنة بينها والحكم على أساسها.

• القائمة المنسوبة لابن عباس:

٩٦، ٦٨، ٧٣، ٧٤، [١][1]، ١١١، ٨١، ٨٧، ٩٢، ٨٩، ٩٣، ٩٤، ١٠٣، ١٠٠، ١٠٨، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٩، ١٠٥، ١١٣، ١١٤، ١١٢، ٥٣، ٨٠، ٩٧، ٩١، ٨٥، ٩٥، ١٠٦، ١٠١، ٧٥، ١٠٤، ٧٧، ٥٠، ٩٠، ٨٦، ٥٤، ٣٨، ٧، ٧٢، ٣٦، ٢٥، ٣٥، ١٩، ٢٠، ٥٦، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ١٧،

---

١ ـ لم ترد سورة الفاتحة في قائمة ابن عباس، فاستدركناها عليه اعتماداً على أكثر القوائم الأخرى التي تضعها في السلم الخامس من ترتيب النزول، وإن كنا نميل في الوقت نفسه إلى كونها أول سورةٍ أنزلت على رسول الله ﷺ، كما هو المروي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام على ما مرّ بيانه آنفاً قبل قليل. الباحث.

١٠، ١١، ١٢، ١٥، ٦، ٣٧، ٣١، ٣٤، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٥١، ٨٨، ١٨، ١٦، ٧١، ١٤، ٢١، ٢٣، ٣٢، ٥٢، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٤، ٣٠، ٢٩، ٨٣، ٢، ٨، ٣، ٣٣، ٦٠، ٤، ٩٩، ٥٧، ٤٧، ١٣، ٥٥، ٧٦، ٦٥، ٩٨، ٥٩، ٢٤، ٢٢، ٦٣، ٥٨، ٤٩، ٦٦، ٦٤، ٦١، ٦٢، ٤٨، ٥، ٩، ١١٠[١].

● قائمة ابن النديم في الفهرست:

الحقبة المكية: ٩٦، ٦٨، ٧٣، ٧٤، ١، ١١١، ٨١، ٨٧، ٩٤، ١٠٣، ٨٩، ٩٣، ٩٢، ١٠٠، ١٠٨، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٥، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ٥٣، ٨٠، ٩٧، ٩١، ٨٥، ٩٥، ١٠٦، ١٠١، ٧٥، ١٠٤، ٧٧، ٥٠، ٩٠، ٥٥، ٧٢، ٣٦، ٧، ٢٥، ٣٥، ١٩، ٢٠، ٥٦، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ١٧، ١١، ١٢، ١٠، ١٥، ٣٧، ٣١، ٢٣، ٣٤، ٢١، ٣٩، ٤٥، ٤٦، ٥١، ٨٨، ١٨، ٦، ١٦، ٧١، ١٤، ٣٢، ٥٢، ٦٧، ٩٠، ٧٠، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٤، ٣٠، ٢٩، ٨٣، ٥٤، ٨٦.

الحقبة المدنية: ٢، ٨، ٧، ٣، ٦٠، ٤، ٩٩، ٥٧، ٤٧، ١٣، ٧٦، ٦٥، ٩٨، ٥٩، ١١٠، ٢٤، ٢٢، ٦٣، ٥٨، ٤٩، ٦٦، ٦٢، ٦٤، ٦١، ٤٨، ٥، ٩[٢].

---

١ ـ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص٣٠ ـ ٣٢.

٢ ـ ابن النديم، أبو الفرج، الفهرست، ص٤٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢.

وقد رويت هذه القائمة عن أبي الحسن محمد بن يوسف، عن أبي عبد الله محمد بن غالب، عن عبد الله بن الحجّاج المديني، عن بكر ابن عبدالوهاب المديني، عن الواقدي، عن الزهري، عن محمد بن نعمان بن بشير.

● **قائمة عمر بن عبد الكافي:**

الحقبة المكية: ٩٦، ٦٨، ٧٣، ٧٤، ١، ١١١، ٨١، ٨٧، ٩٢، ٨٩، ٩٣، ٩٤، ١٠٣، ١٠٠، ١٠٨، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٩، ١٠٥، ١١٣، ١١٤، ١١٢، ٥٣، ٨٠، ٩٧، ٩١، ٨٥، ٩٥، ١٠٦، ١٠١، ٧٥، ١٠٤، ٧٧، ٥٠، ٩٠، ٨٦، ٥٤، ٣٨، ٧، ٧٢، ٣٦، ٢٥، ٣٥، ١٩، ٢٠، ٥٦، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ١٧، ١٠، ١١، ١٢، ١٥، ٦، ٣٦، ٣١، ٣٤، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٥١، ٨٨، ١٦، ٧١، ١٤، ٢١، ٢٣، ٣٢،٥٢، ٦، ٦٩، ٧٠، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٤، ٣٠، ٢٩، ٨٣.

الحقبة المدنية: ٢، ٨، ٣، ٣٣، ٦٠، ٤، ٩٩، ٥٧، ٤٧، ١٣، ٥٥، ٧٦، ٦٥، ٩٨، ٥٩، ١١٠، ٢٤، ٢٢، ٦٣، ٥٨، ٤٩، ٦٦، ٦٢، ٦٤، ٦١، ٤٨، ٥، ٩[١].

وهناك لبرهان الدين الجعبري أرجوزة في بيان الترتيب الزمني لنزول القرآن، وقد اعتمد فيها على رواية جابر بن زيد وهو من

---

١ ـ بدوي، عبدالرحمن، الدفاع عن القرآن ضدّ منتقديه، ص١١٠، مكتبة مدبولي الصغير.

علماء التابعين، وقد أسماها: (تقريب المأمول في ترتيب النزول)[١].

وبذلك نصل إلى صورة كافية عن مختلف الأقوال في بيان الترتيب الزمني لنزول سور القرآن في الروايات والاجتهادات الإسلامية. وأما محاولات غير المسلمين من المستشرقين فهذا ما سندرسه في العناوين القادمة.

٩- آراء المستشرقين في بيان ترتيب النزول:

لقد بدأ اهتمام المستشرقين بترتيب نزول القرآن منذ القرن التاسع عشر، ولم يكتفوا بالتقسيم الذي تعارف عليه المسلمون من تقسيم القرآن إلى الحِقبتين: المكيّة والمدنية، بل عمد بعضهم إلى خصوص السور المكية فقسّمها إلى ثلاث مراحل كما صنع (ثيودور نولدكه)، متأثراً بصنيع سلفه المستشرق (جوستاف فايل)، ونجد لهذا التقسيم جذوراً حتى عند بعض المسلمين القدامى، وهو أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري[٢] إذ يقول في كتابه (التنبيه إلى

١ ـ السيوطي، جلال الدين، الاتقان في علوم القرآن، ج١، ص٨٢ ـ ٨٣.

٢ ـ أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، إمام عصره في معاني القرآن وعلومه، كان أديباً نحوياً عارفاً بالمغازي والقصص والسير، وسارت تصانيفه الحسان في الآفاق، منها: (التفسير المشهور)، و(عقلاء المجانين)، و(التنبيه على فضل علوم القرآن)، وغيرها من كتب التفسير والآداب، توفي سنة: ٤٠٦ هـ (الداودي، طبقات المفسرين ١/ ١٤٠). نقلاً عن (البرهان في علوم القران)، للزركشي.

فضل علوم القرآن):

«من أشرف علوم القرآن، علم نزوله، وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة: إبتداءً ووسطاً وانتهاءً، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك...»[١].

لا بل هناك من ذهب إلى أبعد من ذلك، كما سنرى في محاولة المستشرق (موير)، الذي بلغت به حمّى التنافس إلى توزيع السور المكية إلى خمس مراحل، وقد تمادى في إرجاع بعض السور إلى ما قبل البعثة!

وإليك بيان بهذه المحاولات[٢]:

ـ محاولة جوستاف فايل:

تقدم (جوستاف فايل) على نولدكه من المستشرقين في اقتراح تقسيم المكي إلى المراحل الثلاث، وسبقه في تقديم تبويبه للسور المكية، وذلك في مقدّمته للقرآن، موزعاً إياها على المراحل الآتية:

الفترة المكية الأولى: ٩٦، ٧٤، ٧٣، ١٠٦، ١١١، ٥٣، ٨١، ٦٨،

---

١ ـ الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٢٨٠، دار المعرفة، ط١، بيروت، ١٩٩٠.

٢ ـ أخذنا بعض هذه اللوائح من كتاب (الدفاع عن القرآن الكريم ضدّ منتقديه) لعبدالرحمن بدوي، فراجع.

٨٧، ٩٢، ٨٩، ٩٣، ٩٤، ١٠٣، ١٠٠، ١٠٨، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٩، ١٠٥، ١١٣، ١١٤، ١١٢، ٨٠، ٩٧، ٩١، ٨٥، ٩٠، ٩٥، ١٠١، ٧٥، ١٠٤، ٧٧، ٨٦، ٧٠، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٤، ٥٦، ٨٨، ٥٢، ٦٩، ٨٣، ٩٩.

الفترة المكية الثانية: ١، ٥١، ٣٦، ٥٠، ٥٤، ٤٤، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٧٦، ٣٧، ٣٨، ٤٣، ٧١، ٥٥، ١٥، ٦٧.

الفترة المكية الثالثة: ٧، ٧٢، ٣٥، ٢٧، ٢٨، ١٧، ١٠، ١١، ١٢، ٦، ٣١، ٣٤، ٣٩، ٤٠، ٣٢، ٤٢، ٤٥، ١٨، ١٦، ١٤، ٤١، ٣٠، ٢٩، ٤٦، ١٣، ٦٤.

الفترة المدنية: ٢، ٩٨، ٦٢، ٨، ٤٧، ٣، ٦١، ٥٧، ٤، ٦٥، ٥٩، ٣٣، ٦٣، ٢٤، ٥٨، ٢٢، ٤٨، ٦٦، ٦٠، ١١٠، ٤٩، ٩، ٥.

ـ محاولة ثيودور نولدكه:

تعتمد محاولة نولدكه في بيان الترتيب الزمني لنزول سور القرآن بعد التسليم بالتقسيم الإسلامي لسور القرآن إلى مرحلتين رئيستين (المكية والمدنية) على عاملين: خارجي، وداخلي. وتقوم محاولته في الجانب الأول على النقل والروايات التاريخية، والكتب التي تتناول موضوع أسباب النزول. وتقوم في جانبها الثاني على العقل من طريق النظر في الأسلوب القرآني، وخصوصيات الألفاظ والعبارات الواردة في القرآن الكريم، والقواعد التي جاء بها الوحي طبقاً لتطور الرسالة،

وموقف النبي من اليهودية والمسيحية والوثنيّة العربية. ثمّ عمد إلى خصوص الحقبة المكية فقسمها إلى فترات ثلاث، بينما أبقى الحقبة المدنية وحدة كاملة. وإليك بيان قائمته في السور المكية بفتراتها الثلاث، والمرحلة المدنية على النحو الآتي:

الفترة المكية الأولى: ٩٦، ٧٤، ١١١، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٢، ١٠٥، ٩٢، ٩٠، ٩٤، ٩٣، ٩٧، ٨٦، ٩١، ٨٠، ٦٨، ٨٧، ٩٥، ١٠٣، ٨٥، ٧٣، ١٠١، ٩٩، ٨٢، ٨١، ٥٣، ٨٤، ١٠٠، ٧٩، ٧٧، ٧٨، ٨٨، ٨٩، ٧٥، ٨٣، ٦٩، ٥١، ٥٢، ٥٦، ٧٠، ٥٥، ١١٢، ١٠٩، ١١٣، ١١٤، ١.

الفترة المكية الثانية: ٥٤، ٣٧، ٧١، ٧٦، ٤٤، ٥٠، ٢٠، ٢٦، ١٥، ١٩، ٣٨، ٣٦، ٤٣، ٧٢، ٦٧، ٢٣، ٢١، ٢٥، ١٧، ٢٧، ١٨.

الفترة المكية الثالثة: ٣٢، ٤١، ٤٥، ١٦، ٣٠، ١١، ١٤، ١٢، ٤٠، ٢٨، ٣٩، ٢٩، ٣١، ٤٢، ١٠، ٣٤، ٣٥، ٧، ٤٦، ٦، ١٣.

السور المدنية: ٢، ٩٨، ٦٤، ٦٢، ٨، ٤٧، ٣، ٦١، ٥٧، ٤، ٦٥، ٥٩، ٣٣، ٦٣، ٢٤، ٥٨، ٢٢، ٤٨، ٦٦، ٦٠، ١١٠، ٤٩، ٩، ٥.

وقد كان ثيودور نولدكه في قائمته هذه متأثراً إلى حدّ كبير بالقائمة التي اقترحها جوستاف فايل، وقد أقرّ بذلك ثيودور نولدكه نفسه إذ قال:

«ونحن نرى في هذا الاكتشاف الفضل الأساسي لكتابه

الصغير. لا يخفى أننا نختلف عنه هنا وهناك في تقسيم المجموعات، ونحدّد بعض الأمور بشكل أوضح، لكننا لم نرَ داعياً للتخلي عن تقسيمه بأسره»[1].

ولو أننا قارنا بين هذا الترتيب الذي قدّمه (ثيودور نولدكه) بما تقدم من ترتيب (جوستاف فايل) فيما يتعلق بالتقسيم الثلاثي للمرحلة المكية؛ لحصلنا على النتيجة الآتية:

عدد السور المكية عند (فايل) و(نولدكه):

المرحلة الأولى: فايل: ٤٥. نولدكه: ٤٨.

المرحلة الثانية: فايل: ٢٠. نولدكه: ٢١.

المرحلة الثالثة: فايل: ٢٦. نولدكه: ٢١.

مجموع المراحل: فايل: ٩١. نولدكه: ٩٠.

وأما بالنسبة إلى الترتيب المدني الذي قدمه (ثيودور نولدكه) فهو شبيه بما قدّمه (جوستاف فايل)، ولكن عدد السور المدنية عند (فايل) يصل إلى (٢٣) سورة، بينما يبلغ عدد السور المدنية عند (نولدكه) (٢٤) سورة. وبذلك فإن عدد السور المدنية عند (فايل) ينقص بسورة واحدة فقط. فقد عمد (فايل) إلى إرجاع السورة (٦٤) إلى الفترة المكيّة الثالثة، في حين أنها موجودة في قائمة ابن النديم،

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، الهامش رقم: ٢١٣، ص٦٦.

وابن عبد الكافي، ضمن المرحلة المدنية على ما تقدم[1].

ـ محاولة هـ. جريمه:

جاءت محاولة (جريمه) لترتيب نزول القرآن إثر محاولة (نولدكه)، واعتمد في محاولته على فكرة تطوّر القضايا أو المواضيع الدينية، مثل: التوحيد والبعث والقيامة وما إلى ذلك، وقد ركز اهتمامه على الحقبة المكية، وقدساير (نولدكه) في تقسيمه لها إلى المراحل الثلاث، ولكن ترتيبه لهذه الفترات قد اختلف إلى حدّ ما عن ترتيب (نولدكه).

ـ محاولة وليم موير:

وزع (موير) السور المكيّة على خمس مراحل:

الأولى: السور التي نزلت ـ بزعمه ـ قبل تكليف محمّد بالرسالة.

---

١ ـ هذا وقد ذكر الدكتور عبد الله محمود شحاتة في كتابه (علوم القرآن)، أنّ بالإمكان تقسيم سور الحقبة المكية وتوزيعها على ثلاث مراحل، ومن الملفت أنه يذكر لكل مرحلة نفس الخصائص التي ذكرها ثيودور نولدكه، إذ جاءت متطابقة معها حذو القذة بالقذة، وكأنها ترجمة حرفية وأمينة لما كتبه نولدكه! كلّ ذلك دون أن يأتي على ذكره ولو بالإشارة، ولله في خلقه شؤون! ولكنه مع ذلك لم يفصّل بذكر السور التي تنتمي لكلّ مرحلة من هذه المراحل الثلاث، واكتفى بذكر بعض النماذج لما يمكن أن يدرج في كلّ واحدة من هذه المراحل. أنظر: شحاتة، عبد الله، علوم القرآن، ص٥٠ ـ ٥١، مكتبة نهضة الشرق، ط٣، القاهرة، ١٩٨٥.

الثانية: أقدم السور، حتى الجهر بالدعوة والرسالة.

الثالثة: منذ الجهر بالدعوة، حتى السنة السادسة من بدء الرسالة.

الرابعة: من السنة السادسة إلى العاشرة.

الخامسة: من السنة العاشرة إلى الهجرة.

وإن المراحل الثلاث الأولى من هذا التقسيم تتضمّن تقريباً ـ كما صرّح (نولدكه) [1]ـ السور نفسها التي ضمّها نولدكه إلى مرحلته الأولى، وفي المرحلة الرابعة توجد أكثر السور التي عدها نولدكه ضمن مرحلته الثانية، وأخيراً فإن المرحلة الخامسة والأخيرة من هذا التقسيم تقريباً، هي فترة نولدكه الثالثة والأخيرة أيضاً.

وخلافاً لـ (نولدكه) سعى (وليم موير) في محاولته هذه إلى ترتيب السور واحدة واحدة ترتيباً زمنياً، بينما لا تتعدى محاولة (نولدكه) تقسيم المرحلة المكية إلى ثلاث فترات، واضعاً في كلّ فترة مجموعة من السور عشوائياً، دون بيان ما هو المتقدّم والمتأخر منها ضمن فترتها الواحدة، الأمر الذي لا يقدّم كبير فائدة للباحثين والمحققين.

ـ محاولة ريجيس بلاشير:

لقد اعتمد (بلاشير) في ترجمته للقرآن نفس الترتيب المعتمد

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٦٧.

لدى (نولدكه) فيما عدا بعض الاختلافات الطفيفة، إذ يضع (بلاشير) السورة الحادية والخمسين، والثامنة والستين، في بداية الفترة المكية الثانية، بينما وضعهما (نولدكه) في وسط ونهاية الفترة المكية الأولى. كما يضع (بلاشير) السورة السادسة والسبعين في الفترة المكية الأولى، ويضع السورة السابعة عشرة في الفترة المكية الثالثة، بينما يدرجهما (نولدكه) في بداية ونهاية الفترة الثانية. هذا ويصل عدد السور عند (بلاشير) إلى ١١٦ سورة مخالفاً بذلك إجماع المسلمين والمستشرقين في ذهابهم إلى أنها ١١٤ سورة، وذلك لأنه عمد إلى كلّ من السورة السادسة والتسعين، والرابعة والسبعين، فقسمهما إلى نصفين.

- محاولة ريتشارد بيل:

تعرض (بيل) لترتيب النزول في الفصل السادس من كتابه: (المدخل إلى القرآن)، مستعرضاً محاولة (ثيودور نولدكه)، معتبراً إياها أكثر المحاولات قبولاً، ثمّ محاولة (وليام مويير)، و(جريم)، و(هيرشفيلد)، و(بلاشير)، ليخلص إلى القول معترفاً: إنّ التوصّل إلى ترتيب شامل لسور القرآن ترتيباً زمنياً أمرٌ صعب المنال. ثمّ اقترح أنّ أفضل وسيلة يمكن إتباعها في هذا الإطار، هي وضع مبادئ عامة، يتمّ من خلالها التوصل إلى الترتيب المطلوب؛ فلجأ إلى اعتماد الأسلوب، حيث قال: (في غياب مرجع تاريخيّ محدد، يبقى الأسلوب هو المعيار الأدق للتوصّل إلى تاريخ تقريبي للسورة). لكنه سرعان ما تراجع عن

طرحه هذا معترفاً بصعوبة اعتماده واعتباره معياراً صالحاً. وبذلك صار إلى معياره الآخر فاعتمد تركيب الجمل، ليتراجع عنه أيضاً ويقول: (إنّ هناك مصادفات في هذا المعيار من شأنها أن توقعنا في الخطأ). ولكنه مع هذا يعترض على ترتيب السورتين السادسة والتسعين والرابعة والسبعين، اللتين أجمع المسلمون وكذلك المستشرقون على أنهما أول وثاني سور الوحي نزولاً، وقد برر اعتراضه بالقول: «إنّ طريقة نزولهما تتطابق أكثر مع المرحلة التالية من رسالة محمّد، إذ لم يكن له في بداية رسالته أيّ تصوّر عن الملائكة»[1]!

١٠- عودة إلى منهج (نولدكه) في بيان ترتيب القرآن:

تقدم أن ذكرنا أن نولدكه قد عمد في بيان ترتيبه لنزول القرآن زمنياً إلى اعتماد عاملين، الأول: النقل التاريخي، فقد أبقى على التقسيم الذي سار عليه المسلمون منذ القدم، من تقسيمه إلى مكيّ ومدني، والثاني: الاجتهاد العقلي.

والذي دعاه إلى التعويل على استعمال العقل بديلاً عن النقل قوله: (إذا ماثلنا المسلمين في الاتكال فقط، أو إلى حدٍّ بعيد على ما نقله إلينا المعلمون القدامى، فلن نصل إلا نادراً إلى نتيجة راسخة.

---

١ ـ بدوي، عبد الرحمن، الدفاع عن القرآن ضدّ منتقديه، ص١٢٢، مدبولي الصغير، ط١.

وسيكون حظنا بالوصول إلى نتيجة صحيحة أقلّ من هذا. لكننا نملك وسيلة تستحق قدراً أكبر من الثقة، وهي وحدها تجعل استعمال التراث بالنسبة لنا مثمراً. وهذه الوسيلة هي المراقبة الدقيقة لمعنى القرآن ولغته)[١].

وذلك على غرار ما قام به المسلمون من اجتهادات متقدّمة في التمييز بين المكي والمدني، وصفها (نولدكه) بأنها ملاحظات بسيطة[٢]، من قبيل عبارة: (يا أيها الناس) التي ترد في السور المكية، وعبارة: (يا أيها الذين آمنوا) التي يكثر ورودها في السور المدنية، ومن ذلك ما ذكره ابن خلدون[٣] في مقدمته بشأن التمييز بين السور المكية والمدنية بقصر الآيات في الأولى وطولها في الثانية، إذ قال:

«كان تنزّل نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكّة،

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٥٨، منشورات الجمل، بغداد، ٢٠٠٨.

٢ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٥٩، منشورات الجمل، بغداد، ٢٠٠٨. علماً أنّ نولدكه يعتمد هذه الملاحظات البسيطة في التوصل إلى مواضع السور!

٣ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م): مؤرّخ وعالم اجتماع عربي مسلم، يُعتبر أحد أعظم المفكرين العالميين في مختلف العصور. ولد ونشأ بتونس. ارتحل إلى مصر، فتولى فيها القضاء. وضع لكتابه الضخم (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، مقدّمة جعلت منه مؤسساً لفلسفة التاريخ ولعلم الاجتماع، وقد دعا علم الاجتماع في مقدّمته هذه (علم العمران). أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٥، ص١٦١، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٨١.

أقصر منها وهو بالمدينة. وانظر إلى ما نقل في نزول سورة براءة في غزوة تبوك، وأنها نزّلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته، بعد أن كان بمكة يُنزّل عليه بعض السور من قصار المفصّل في وقتٍ، ويُنزّل الباقي في حينٍ آخر. وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين، وهي ما هي في الطول، بعد أن كانت الآية تُنزّل بمكّة مثل: آيات الرحمن، والذاريات، والمدّثر، والضحى، والفلق، وأمثالها. واعتبر من ذلك علامة تميّز بها بين المكيّ والمدني من السور والآيات»[١].

بهذه النيّة عقد (ثيودور نولدكه) العزم على بيان قائمته الخاصة في ترتيب نزول القرآن، بعد أن وجد محاولات المسلمين، غير كافية للوفاء ببيان ترتيب نزول هو أقرب للواقع من ترتيبه، إذ قال: (نستطيع بواسطة الدراسة الدقيقة للوسائل التي يقدّمها لنا الحديث والقرآن نفسه، أن نتوصّل إلى معلومات كثيرة أكيدة حول نشوء أقسام القرآن المفردة)[٢].

فهل تمّ لـ (نولدكه) النجاح في هذا المجهود؟ هذا ما سيتضح من تضاعيف البحوث الآتية.

---

١ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، ص١٣٠، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٢ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٦٠، منشورات الجمل، بغداد، ٢٠٠٨.

أ) سور الحقبة المكية عند (نولدكه):

أعربَ ثيودور نولدكه عن عدم ثقته بالنصوص التاريخية بوصفها وسيلة صالحة للوصول إلى رسم الحدود الزمنية لنزول السور المكية؛ وذلك لتناقض هذه النصوص فيما بينها في الكثير من الموارد، وقال في ذلك: (لايمكن وضع توقيت تقريبي للسور المكية التي نادراً ماتؤخذ فيها الأحداث التاريخية الأكيدة بعين الاعتبار، إلا بقدرٍ قليلٍ من الدّقة)[١].

ولهذا الكلام جانب كبير من الصحة، فإننا إذا نظرنا إلى شخص مثل عبد الله بن الزبير الذي كان يسعى حدّ الاستماتة إلى إثبات مكية سورة الإنسان؛ لمجرّد استكثاره أن تكون قد نزلت في فضل أهل البيت عليهم السلام في قصّة الوفاء بالنذر والصوم ثلاثة أيام، وإطعام اليتيم والفقير والأسير، والتي ذهب أكثر المفسرين إلى أنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. من هنا فقد كان تاريخنا مشحوناً بهذا النوع من الألغام التي زرعتها أيدٍ أثيمةٍ بدوافع سياسية متبّلة بالحقد والحسد وغيرهما، ولذلك لنا أن نعذر الأستاذ (ثيودور نولدكه) فيما قاله من أنه ـ والتعبير له ـ سيتوخى الحذر الشديد، فلا يلتفت لدى معالجته سور المراحل [المكية] المختلفة، إلا إلى تطوّرها الداخلي، صارفاً النظر عن التاريخ؛ لكونه غير أكيد[٢].

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٦٤.

٢ ـ المصدر، ص٦٥.

ولكن سيتضح أن هذا التطوّر الداخلي، وما ذكر فيه من الخصائص والمقاييس ـ كما يعترف (نولدكه) نفسه ـ لا يقل عن النصوص التاريخية في عدم كونه مضمون النتائج، وبذلك يكون ترجيح (نولدكه) له على العامل التاريخي ترجيحاً بلا مرجّح. وقد لخص (ثيودور نولدكه) الفترات الثلاث التي ذهب إليها على النحو الآتي:

«اختلاف الأسلوب يؤدي بنا إلى التعرّف على مجموعات مختلفة من السور يقارب بعضها البعض الآخر زمنيّاً. وتبرز بشكلٍ خاص مجموعتان، تتألف إحداهما من السور القديمة الجيّاشة المشاعر، فيما تتألف الأخرى من السور المتأخرة، التي كثيراً ما تقارب في أسلوبها السور المدنية. بين هاتين المجموعتين نجد مجموعة أخرى هي مثل حلقة الوصل بينهما، تنتقل بنا بانحدارٍ تدريجيّ من المجموعة الأولى إلى الثالثة. علينا إذن أن نميّز بين سورٍ نشأت في ثلاث فترات»[1].

سور الفترة المكية الأولى:

اعتقد (نولدكه) أنّ بوسعه معرفة سور هذه الفترة بشيءٍ من اليقين من خلال أسلوبها، إذ وجد فيها قوّة الحماس، والكلام فيها عظيم وجليل مفعم بالصور الصارخة، ذات النبرة الخطابية التي تحتفظ

---

١ ـ المصدر، ص٦٦.

بلونها الشعري الكامل، والآيات فيها قصيرة بسبب تعاليمها البسيطة، ولكنها زاخرة بالقوّة. ومن العلامات المميّزة لهذه الفترة كلمات القسم التي ترد بنسبة ثلاثين إلى واحد بالقياس إلى السور المدنية، كما أنّ معظم سور هذه الفترة قصير، وإنّ لهجماته العنيفة على خصومه التي تصل إلى حدّ اللعنة، تأثيراً كبيراً في هذه السور، إذ يقول:

«أعتقد أنه يسعني التعرّف على سور هذه الفترة بشيء من اليقين من خلال أسلوبها. إنّ قوّة الحماس الذي حرّك النبي في السنوات الأولى.. أمّا الكلام فعظيم جليل مفعمٌ صوراً صارخة، والنبرة الخطابية تحتفظ بلونها الشعري الكامل. الآيات القصيرة تعكس الحركة الشغوفة التي تتقطع مراراً.. من العلامات الفارقة والمميّزة لهذه الفترة كلمات القسم»[1].

فبعد أن قضى محمّد ـ والكلام لا يزال لنولدكه ـ حياة زهدٍ طويلة في الوحدة والتأمل والصراع الداخلي إلى وضع من الاضطراب الهائل، الأمر الذي أدّى بخصومه بل أصدقائه حدّ اتهامه بالجنون، بل هو نفسه لم يكن خالياً من الشك في كونه مجنوناً حتى بلغ به ذلك حدّ الانتحار أحياناً! حُكمَ عليه بصورةٍ قاطعة بواسطة حلمٍ أو رؤيا بأن يتنبّأ، وأن يبلغ قومه ما انتهى إليه من الكتاب السماوي[2].

---

١ ـ أنظر: نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٦٨ ـ ٦٩.

٢ ـ م.ن، ص ٧٠ ـ ٧٨.

من هنا فقد ذهب (نولدكه) إلى جدولة الفترة الأولى من الحقبة المكية، وبلغ بها ثمانية وأربعين سورة على النحو الآتي[1]:

١ ـ السورة ٩٦ (العلق): (ما إذا كانت الآيات ١ ـ ٥ من سورة العلق بالفعل أول ما نزل من القرآن، فمسألة لا يمكن حسمها.. وينتج من العلاقة القائمة بين الآيات الخمسة الأولى والجزء المتبقي من السورة تحديد أدق بعض الشيء لزمن نشوء هذا الجزء، ولا يمكن أن يكون هذا قد حصل في الوقت نفسه الذي تلقى فيه محمّد للمرّة الأولى الدعوة للنبوّة. فهذا الجزء موجّه ضدّ عدوّ للإيمان يمنع عبداً مؤمناً عن الصلاة الجماعة المسلمة الفتيّة[2] (الآية ٩ ـ ١١).

هذا الجزء لم ينشأ إلا بعد سنوات من بعثة محمّد.. وإذا تبيّن أنّ الآيات ٦ وما يليها أضيفت لاحقاً، وجب علينا أن نعتبر مطلع السورة أقدم من سائر أجزائها...).

٢ ـ السورة ٧٤ (المدثر): (كلمات السورة نفسها تبدي لنا أنها

---

١ ـ سنعرض ترتيب السور، مع اختزال شديد لتعليقات (نولدكه) التي يذكرها ضمن كل سورة، إذ أنّ غايتنا الأساسية تتلخص في بيان الترتيب الذي يريده قبل كلّ شيء، دون الغوص في التفاصيل التي يسوقها لتبرير وضعه السورة في هذا الموضع أو ذاك إلا فيما ندر عندما تقتضي الحاجة إلى تعليقنا، وعلى من أراد التفصيل الرجوع إلى المصدر نفسه. الباحث.

٢- لايخفى ما في هذا التعبير من الارتباك وعدم الوضوح، وهو أمر شائع في عبارات هذا الكتاب، ولسنا نعلم ما إذا كان القصور في الترجمة أم الأصل.

نزّلت في أوائل البعثة. هذا ما يصحّ في أيّ حال بالنسبة للآيات ١ ـ ٧ أو ١ ـ ١٠ فقط. إذ إنّ الآيات اللاحقة التي تردّ على خصم بارز هي أحدث منها عهداً حتى لو كانت قديمة جدّاً. وقد أدخلَ إلى هذا القسم مقطعٌ يعود إلى فترة لاحقة، أعني الآيات ٣١ ـ ٣٤.. هذه الإضافة هي في كلّ الأحوال مدنية...).

٣ ـ السورة ١١١ (المسد): (يجمع الرأي على أنها من أقدم ما نزّل...).

ولا ريب في أن هذا الإجماع إنما بلغنا بواسطة النقل دون الاجتهاد!

٤ ـ السورة ١٠٦ (قريش) فيقول: (جوّ الرّضى الذي ينضح من السورة يدلّ على أنها نشأت قبل بدء النزاع مع هذه القبيلة...).

وهنا يقول نولدكه: (لابد من التخلي عن أيّ تسلسل زمني للسور الأخرى التي تعود إلى الفترة الأولى، وذلك بسبب انعدام المعلومات التاريخية التي تقود خطانا في ذلك. لهذا نودّ أن نوزعها بحسب مضمونها على مجموعات مختلفة، معتمدين في ترتيبها بقدر المستطاع على التطوّر التدريجي للأسلوب والأفكار)[١].

٥ ـ السورة ١٠٨ (الكوثر): (من أقدم السور التي تهدفُ أساساً

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٨٢.

إلى مناهضة أحد الخصوم.. يقال على الأغلب أنه عاص بن وائل، ويليه عقبة بن معيط أو كعب بن الأشرف). ثمّ أضاف (نولدكه) قائلاً: (وكما في السور الأخرى التي تبدأ بكلمة (إنّا) [وهي:] الفتح ونوح والقدر، فلعلّ مطلع هذه السورة أيضاً قد ضاع...)!

ولسنا ندري ما هي القاعدة التي يستند إليها (نولدكه) في تحريم ومنع تصدير الكلام بكلمة (إنّا)؟!

٦ ـ السورة ١٠٤ (الهُمَزة): (يتعرّض أثرياء متكبّرون للهجوم...).

٧ ـ السورة ١٠٧ (الماعون): (تنطقُ أيضاً بالويل تجاه من يُتمّم واجباته الدينية، ويبقى قاسياً تجاه الفقراء. وبالنظر إلى أنّ هذه الكلمات تنطبق إلى حدّ ما على المنافقين في المدينة يرى بعض المفسّرين السورة من الأجزاء المدنية...).

٨ ـ السورة ١٠٢ (التكاثر): (كذلك تتناول بحسب أحد الآراء، يهود المدينة...).

٩ ـ السورة ١٠٥ (الفيل): (أوّل سورة يُبيّن فيها للخصوم بحسب مثل من التاريخ ـ وذلك من تاريخ مكّة بالذات ـ كيف أنّ الله عاقب أمثالهم...).

١٠ ـ السورة ٩٢ (الليل): (كالكثير غيرها من السور، يرى البعض أنها نزلت كلها، أو جزء منها بعد الهجرة...).

١١ ـ السورة ٩٠ (البلد): (يبدو أنها نشأت في وقتٍ متأخرٍ نسبياً... أما السور التالية فذات مضمون مختلط، لكنها تتفق فيما بينها على أنّ غرضها الأساسي ليس محاربة الخصوم، بل وصف الآخرة...).

١٢ و١٣ ـ السورة ٩٤ (الشرح)، و٩٣ (الضحى): (في سورة الشرح وسورة الضحى التي يبدو أنها متأخرة عنها قليلاً، يحاول الله تعزية النبيّ عن وضعه الراهن بتذكيره بأنه أنقذه في الماضي من البؤس الذي كان فيه...).

١٤ ـ السورة ٩٧ (القدر): (تتناول جلال الليلة التي تنزّل فيها الملائكة والروح بالوحي على الأرض.. نصّ الآية الأولى يُغذي الشكّ بأنّ مطلع السورة الفعليّ قد ضاع...)!

١٥ ـ السورة ٨٦ (الطارق): (يبدو أنّ آياتها الثلاث الأولى تشير إلى أنها نشأت ليلاً، تحت تأثير نجمٍ ساطع).

١٦ ـ السورة ٩١ (الشمس): (تبدأ بعدد كبير من الأقسام يفوق المعدّل المعتاد...).

١٧ ـ السورة ٨٠ (عبس): (يلوم الله النبي على أنه فضل أن يدعو رجلاً غنيّاً إلى الإسلام وتولى عن أعمى فقير جاءه سعياً وراء الإيمان.. ومن المدهش، لا بل ممّا يُميّز هذا الدين الذي يتصف بأنه الدين الأكثر إنسانيّة بين أديان الوحي، أن تضمّ هذه الكلمات إلى القرآن...).

ولكننا سنكون أكثر دهشة من (نولدكه) إذا انسقنا وراء الرأي الذي يقول: إنّ المعنيّ بهذه السورة هو شخص النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وهو الموصوف بالقرآن بذي الخلق العظيم، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١)، بل إنّ الذي دعا الناس إلى اعتناق دعوته، هو ما كان عليه من هذا الخلق، وفي ذلك قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (٢). ولذلك فإننا نذهب في تفسير هذه الآية إلى ما ورد من الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، من أنها نزلت في رجل من بني أميّة، كان عند النبي صلى الله عليه وآله؛ فجاء ابن أمّ مكتوم، فلما رآه تقذر منه، وجمع نفسه، وعبس وأعرض بوجهه، فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه. كما هو المروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام (٣).

١٨ ـ السورة ٦٨ (القلم): (يعتبرها البعض أقدم السور أو ثانيها.. لكن ليس من الممكن أن تكون آيات يُهاجَم فيها أعداء الدين بشدّة منذ البداية، آيات قديمة العهد كهذه...).

١٩ ـ السورة ٨٧ (الأعلى): (تقدّم لنا مثلاً جديداً على الاستخفاف الذي نلاحظه لدى بعض المفسّرين القدماء، والذي أدّى

---

١ ـ القلم: ٤.

٢ ـ آل عمران: ١٥٩.

٣ ـ أنظر: تفسير الطبرسي لسورة عبس في مجمع البيان لعلوم القرآن.

بهم إلى استخلاص النتائج من تفاسيرهم. فقد وجد بعضهم في الدعوة إلى تسبيح الله إشارة إلى الصلوات اليومية التي فرضت قبل الهجرة بوقت قصير[1]، فجعلوا السورة كلها مدنية...).

٢٠ و٢١ ـ السورة ٩٥ (التين)، والسورة ١٠٣ (العصر): (يقال الشيء نفسه عن سورة التين.. وربما كان الشكل الذي وصلت فيه السورتان المذكورتان قد أجريت عليه بعض التحسينات، وأظنّ أنّ الآية السادسة من سورة التين قد أضيفت إليها لاحقاً؛ لأنّ طولها يفوق طول أيّ من الآيات الأخرى، ومعناها يُضعف الانطباع الذي يولده السياق، ولأن عبارة (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) لا تستعمل إلا لاحقاً في الفترة المكية المتأخرة. وينطبق السببان الأول والثالث أيضاً على الشكل الحالي للآية الثالثة من سورة العصر...).

٢٢ ـ السورة ٨٥ (البروج): (تبرز للمؤمنين مثال الأتقياء الذين عذبهم في الأزمنة الغابرة أناس يستحقون اللعن...).

٢٣ ـ السورة ٧٣ (المزمّل): (تعتبر من أقدم السور بسبب

---

١ ـ هذا كلام غريب، فإن الصلاة المفروضة شرّعت مقارنة للدعوة، منذ أن كان الإسلام فتياً، ولم يكن مع النبيّ الأكرم ' إلا علي بن أبي طالب ×، وخديجة الكبرى، وزيد بن حارثة، حيث انعقدت أوّل جماعة للمسلمين بإمامة النبيّ الأكرم بهذا العدد الذي لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، ولذلك يذهب الكثير وهو الصحيح إلى اعتبار سورة الفاتحة أول ما نزل من القرآن، باعتبار القاعدة القائلة: (لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب)، الباحث.

التشابه الحاصل بين بدايتها وبداية سورة المدّثر. وهذا خطأ لا يقلّ عن خطأ من يستند من أجل إيضاح أصل هذه السورة إلى عائشة التي تزوّجها محمد بعد ذلك بكثير...).

وهنا يقول نولدكه: (أما الجزء الأكبر المتبقي من سور هذه الفترة فيتضمن وصف الكوارث الطبيعية العظيمة التي سترافق قيام الساعة، أو يرسم بألوان فاقعة أفراح السماء ومرهبات الجحيم. ما من سورٍ أخرى من القرآن تضاهي هذه السور في روعتها وفي إبرازها الانفعال الشديد الذي كان يعتري النبي. ألا وكأنّ المرء يرى بأمّ عينه كيف تنشقّ الأرض، وتنفطر الجبال، وتتساقط الكواكب)[1].

٢٤ ـ السورة ١٠١ (القارعة): (يبرز الاضطراب التوّاق فوراً في الآيات القصيرة لسورة القارعة...).

٢٥ ـ السورة ٩٩ (الزلزلة): (يقول كثيرون وهي تولد بسبب مطلعها الرائع وإيقاعها أثراً لا يُقاوم: مدنية.. وتشبه هذه السورة أيضاً سورتان [هما]):

٢٦ و٢٧ و٢٨ ـ السورة ٨٢ (الانفطار)، و٨١ (التكوير)، ٥٣ (النجم): (ويتزيّنان بصوَرٍ أكثر غنى. ونوّد أن نقرن بالسورة المذكورة أخراً [التكوير] سورة (النجم) ٥٣، التي تعدّ من السور المتأخرة في الفترة الأولى، لكنها لا تنتمي إلى هذه المجموعة الثالثة...).

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٨٨..

وهنا يكرر نولدكه أسطورة الغرانيق، ويعبر عن عدم اقتناعه بما ساقه (ليوني كتاني) من الأدلة الواضحة على اختلاق هذه الأسطورة قائلاً: (الأسوأ من ذلك هو أنّ كتاني لا يستطيع أن يشرح كيف نشأ الحديث الذي يزعم أنه موضوع. فمن البديهي ألا يكون المسلمون قد اخترعوا قصة تثير شكوكاً من هذا النوع حول نبيّهم)[1]!!

ويبدو جلياً أنّ نولدكه يبالغ هنا في حسن ظنه بالمسلمين، أو أنه على غرار بعض الطوائف الإسلامية يؤمن بنظرية (عدالة الصحابة)، وهو ليس بالأمر الجديد أو الغريب. من حق نولدكه أن يستبعد أن يكون المسلمون قد وضعوا ما يثير الشكوك حول النبي الأكرم ﷺ. ولكن هذا الأمر المستبعد والمستغرب هو ما حدث بالفعل، بل إنّ هؤلاء المسلمين ومنهم: الطلقاء، والمؤلفة قلوبهم، والذين في قلوبهم زيغ، والمنافقون، والذين مردوا على النفاق، من الذين انقلبوا على الشرعية المتمثلة بولاية أهل البيت عليهم السلام. بل إنّ هؤلاء المسلمين الذين كانوا كثيراً ما يخاطبون النبي بعبارات من قبيل: (أنت الذي تزعم أنك رسول الله)!، واتهموه بالجنون في بداية البعثة كما ذكر ذلك (ثيودور) نفسه، ونسبوا ذلك إلى أنه ﷺ نفسه لم يكن يخل من هذه الشكوك، وأنه أوشك على الانتحار! بل وزعموا أن رجلاً يدعى (لبيد بن الأعصم) قد سحره، وأن مفعول ذلك السحر استمر لأكثر من سنة، كان

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٩١.

النبي ﷺ خلالها يفعل الفعل ويخيل له أنه لم يفعله، أو أنه لا يفعله ويخيل إليه أنه فعله! ولا ندري والحال هذه ماذا كان مصير الوحي الذي نزل عليه في تلك السنة! هذا ما يرويه المسلمون في تواريخهم نقلاً عن الوضاعين والمتربصين بالإسلام، من الذين يتمتعون بحصانة العدالة سواء في ذلك الظالم والمظلوم، والقاتل والمقتول! وما إلى ذلك من المحاولات التي كان الهدف من ورائها التشكيك في عصمة النبي الأكرمﷺ، مقدّمة للتشكيك في قيمة القرآن والرسالة الإسلامية بأكملها. وعليه إذا تعيّن علينا أن نتجرع تأريخنا المرّ ولا نسيغه، فليس لنا إلا أن نلتمس العذر لـ (ثيودور نولدكه)، ونرى فيما ذهب إليه أمراً طبيعياً للغاية، ولكن لا ننسى في الوقت نفسه أن نقف وقفة إجلال للأستاذ المستشرق المنصف (ليوني كتاني).

٢٩ ـ السورة ٨٤ (الانشقاق): (تلحق بسبب مطلعها بسورة الانفطار وسورة التكوير...).

٣٠ ـ السورة ١٠٠ (العاديات): (يعتبرها البعض خطأ مدنيّة؛ إذ يعتقدون أنّ الآيات الأولى منها تشير إلى الخيل التي استعملها محمّد في الحرب...).

٣١ ـ السورة ٧٩ (النازعات): (تتألف من ثلاثة أجزاء: الآيات ١ إلى ١٤، و١٥ إلى ٢٦، و٢٧ إلى ٤٦. الجزء الأخير أحدث قليلاً من الجزأين السابقين...).

٣٢ ـ السورة ٧٧ (المرسلات): (نزلت بحسب حديث، حين كان محمد مرّة مع بعض الصحابة في كهفٍ بمنى... السورة جديرة بالملاحظة أيضاً بسبب تكرار إحدى آياتها كلازمة...).

٣٣ ـ السورة ٧٨ (النبأ): (يبدو أنها تشترط وجود الآيات ١٢ من سورة المرسلات...).

٣٤ ـ السورة ٨٨ (الغاشية): (يعتبرها هبة الله نزلت في سنة احتلال مكة...)[١].

٣٥ ـ السورة ٨٩ (الفجر): (يعتبرها بعض المفسرين مدنية...).

٣٦ ـ السورة ٧٥ (القيامة): (فيها بعض الآيات من ١٦ إلى ١٩، التي لا علاقة لها بما يجاورها من الآيات، ولا بسائر السورة...).

٣٧ ـ السورة ٨٣ (المطففين): (لدينا أيضاً الكثير من المعلومات الخاطئة حول سورة المطففين...).

٣٨ ـ السورة ٦٩ (الحاقة): (ينسبها موير بسبب طولها إلى الفترة اللاحقة...).

٣٩ ـ السورة ٥١ (الذاريات): (الآيات ٢٤ وما يليها، أضيفت في وقت متأخر على الأرجح...).

---

١ - لا شك في أنّ النبي الأكرم ﷺ كان ابن مكة ومنها، فلم يكن رجوعه إليها احتلالاً كما يحلو لنولدكه تصوير ذلك، بل هو فتح مبين كما صوّر ذلك القرآن الكريم، وقد تحولت مكة بعد ذلك حرماً آمناً، فالجميع أصبح آمناً حتى أبو سفيان ومن دخل بيته.

٤٠ ـ السورة ٥٢ (الطور): (توجد بعض الآيات التي تعود إلى الفترة الثانية، أعني الآية ٢١ التي تشوّش السياق.. حيث التعابير (سبحان الله عن)، و(شرك)، وعبارات الآية ٤٨، وكلها تنتمي إلى المصطلح اللغوي الذي يستخدمه محمّد لاحقاً...).

٤١ ـ السورة ٥٦ (الواقعة): (مدنية بحسب حسن البصري...).

٤٢ ـ السورة ٧٠ (المعارج): (مطلعها على علاقة ظاهرة بمطلع سورة الواقعة...).

٤٣ ـ السورة ٥٥ (الرحمن): (تبدو بأسلوبها شبه اللاهي وكأنها نتاج متأخر نسبياً، وهذا ما دفعني وفايل إلى احتسابها من الفترة الثانية...). ولا يستطيع نولدكه هنا ضبط نفسه إزاء اللازمة القرآنية التي تتكرر بعد بعض الآيات من هذه السورة، وأعني بذلك قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، فيصف كثرة إعادتها وتكرارها بالمبالغ بها، وأنها تصل بالقارئ إلى حدّ الإنهاك[1]!

علماً أن أسلوب التكرار هو من الأساليب البلاغية التي تهدف إلى التأكيد العملي لحقيقة أو مفهوم من المفاهيم وترسيخه في ذهن السامع والمتلقي، وهو أسلوب لا يقتصر على القرآن الكريم، بل وهناك ما يشبهه في النصوص المقدسة السابقة، ومنها لازمة (لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٣٩ و٩٦.

رَحْمَتَهُ) التي ترد في الإصحاح السادس والثلاثين بعد المئة من سفر المزامير والتي تتكرر وتعاد لستة وعشرين مرّة.

وهنا يقول نولدكه: (نلحق بسور الفترة الأولى بعض السور القصيرة التي تعتبر صيغ إيمان وقسم. وبالرغم من تعذر الدقة في تحديد قدمها، بسبب قصرها وشذوذها بالكامل عن السور الأخرى، مما يفقدنا ما يُمكن التمسك به في سبيل ذلك، فهي أقرب إلى أن تنتمي إلى أوقات مبكرة منها إلى أوقات متأخرة)[1].

٤٤ ـ السورة ١١٢ (الإخلاص): (ينقلها الكثيرون إلى المدينة.. لكن موير ينسبها إلى المرحلة الأولى.. ويبدو أنّ ما دفعه إلى هذا الافتراض هو الرأي الضال بأنّ محمّداً كان عليه فوراً بعد مبعثه أن يأتي بما يشبه دستور الإيمان...).

٤٥ ـ السورة ١٠٩ (الكافرون): (تتضمّن ردّاً على اقتراح المكيّين أن يتبعوا النبي، إذا ترك آلهتهم على ما يليق بها من إكرام...).

٤٦ و٤٧ ـ السورة ١١٣ (الفلق)، و١١٤ (الناس)، فيقول نولدكه بشأنهما: (أصعب من ذلك تحديد موقعهما.. حتى موير الذي ينسب عادة لكلّ سورة مكاناً محدداً، لا يجرؤ على أن يُبدي رأيه فيهما...).

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص٩٦.

ثمّ قال نولدكه في بيان سبب وضع المعوذتين في نهاية القرآن: «أمّا موقعهما في آخر القرآن، فيعود بحسب اعتقادي إلى الخرافة نفسها التي تدفع بالمسلمين حتى يومنا هذا إلى بدء كلّ تلاوة قرآنية بقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»!

ولكن لو كان (نولدكه) مصيباً في اعتقاده هذا، أما كان من الأجدر والأنسب وضع المعوذتين في بداية القرآن، ما دامت الخرافة تقضي بافتتاح كل تلاوة بالاستعاذة؟!

٤٨ ـ السورة ١ (الفاتحة): (كما هي حال سورتي القسم [المعوذتين]، تخرج أيضاً السورة الأولى عن إطار السور الأخرى.. هنا تتراجع الصبغة الإسلامية الخاصة إلى درجة أنّ هذه الصلاة يُمكن أن توجد في أي كتابٍ روحي يهوديّ أو مسيحي. لهذا السبب يصعب السؤال عن عمرها...)[1].

وهكذا يختم (نولدكه) ترتيبه لسور الفترة الأولى من الحقبة المكية، والنهج الاعتباطي واضح إلى حدّ الصراخ في الكثير من المواطن، حتى أنه كان يكتفي أحياناً بنقل آراء الآخرين حول موضع السور دون التعليق عليها أو تفنيدها، بل واعترف أحياناً بالعجز عن تحديد موضع السور تحديداً دقيقاً، ولكي لا نقع في مصيدة التطويل

---

١ ـ أنظر: نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، من ص٧٥ إلى ص١٠٤.

الممل، يمكن للقارئ إعادة قراءة هذا الترتيب مرّة أخرى، تاركين له حرية التعليق.

سور الفترة المكية الثانية:

قال (نولدكه) في مطلع بيان ترتيب سور هذه الفترة من الحقبة المكية: (ليس لهذه السور أيّ طابع مشترك. بعضها يشبه سور الفترة الأولى، بينما البعض الآخر يشبه سور الفترة الثالثة. نلاحظ في هذه السور الانتقال من الحماس العظيم إلى قدر أكبر من السكينة في السور المتأخرة التي يغلب عليها الطابع النثري)[1].

وقد زعم (نولدكه) في بيان خصائص هذه الفترة الثانية: أنّ النبيّ الأكرم ﷺ بدا له أن يطلق على الله سبحانه تسمية (الرحمن)، إذ قال: (في هذه الفترة أطلق محمّدٌ على إلهه اسم (الرحمن)، إلى جانب اسم الله الذي كان معروفاً أيضاً لدى المشركين)[2]! رغم اعترافه في الوقت نفسه بأنه استعمل اسم الرحمن قبل ذلك، ولو مرّة واحدة فقط. هذا في حين يغفل نولدكه ـ شأنه في ذلك شأن المشركين في عصر النص ـ الأسماء الحسنى الأخرى التي تربو على الألف، طبقاً لدعاء الجوشن الكبير المروي عن النبيّ الأكرم ﷺ من طريق أهل بيته، والتي هي في واقعها

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص١٠٥.

٢ ـ المصدر، ص١٠٧.

صفات له سبحانه وتعالى. وأما الشبهة التي دعت نولدكه أن يتصوّر أنّ النبي بدا له أن ينتخب لله عز وجل تسمية جديدة، فهي الشبهة ذاتها التي دعت المشركين إلى اتهام النبي بأنه يدعوهم إلى التوحيد، بينما يسلك هو طريق الشرك، متمسكين بأوهى الأدلة وأضعفها، إذ روي أنّ النبي كان ساجداً ذات ليلة بمكة، يدعو: (يا رحمن يا رحيم)؛ فقال المشركون: هذا يزعم أنّ له إلهاً واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى[1]! في إشارة منهم إلى إصرارهم على الشرك، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ قُلْ ادْعُوا اللهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْـحُسْنَى﴾ [2]. في بيان أنّ ذات الله الربوبية واحدة، وإن تعددت صفاتها وأسماؤها، وإنّ بالإمكان استعمال أيّ اسمٍ من هذه الأسماء المشيرة إلى حقيقة واحدة. وإنّ من السخف تصور تعدد هذه الذات لمجرّد تعدد الأسماء والعناوين المشيرة إليها، ولكن ما حيلة الغريق إلا التشبّث بكلّ شيءٍ وإن كان قشاً!

بعد ذلك يعيد (نولدكه) الاعتراف باستحالة التوصل إلى ترتيب زمني دقيق لسور هذه الفترة أيضاً، فقد قال: (أمّا الحيز الدقيق الذي تحتله كلّ سورة إزاء السور الأخرى، فلا يمكن تحديده هنا بتأكيد)[3].

---

١ ـ الطبرسي، أبوعلي، مجمع البيان، ج٦، ص٣٠٣ ـ ٣٠٤، مؤسسة الأعلمي، ط١، بيروت.
٢ ـ الإسراء: ١١٠.
٣ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص١٠٨.

وإليك بيان بقائمة هذه الفترة الثانية كما استعرضها نولدكه، وقد وصل عدد السور هنا إلى إحدى وعشرين سورة، على النحو الآتي:

١ ـ السورة ٥٤ (القمر): (نتيجة تفسير خاطئ للآية ١ من هذه السورة تألفت خرافة سخيفة.. لكنّ كثيراً من المفسّرين المسلمين يرى بحق في الموضع إشارة إلى اليوم الآخر...).

لقد روي انشقاق القمر بدعاء النبي الأكرم ﷺ في مكة حتى صار فرقتين. وقد روي بطرق مختلفة وكثيرة عن الصحابة وهم: أنس ابن مالك، وعبدالله بن مسعود، وابن عمر، وجبير بن مطعم، وابن عباس، وحذيفة بن اليمان، ونقل صاحب روح المعاني ممن روي عنه الحديث من الصحابة علياً عليه السلام ثمّ نقل عن السيد الشريف في شرح المواقف، وعن السبكي في شرح المختصر أنّ الحديث متواتر لا يُمترى في تواتره. وقد ورد انشقاق القمر لرسول الله عليه السلام في روايات الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيراً، وقد تسلمه المحدثون والعلماء من الشيعة من غير توقف.

قال العلامة الطباطبائي في الميزان:

«آية شق القمر بيد النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة باقتراح من المشركين مما تسلمها المسلمون بلا ارتياب. ويدل عليها من القرآن الكريم دلالة ظاهرة قوله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ**

مُسْتَمِرٌّ﴾[1]؛ فالآية الثانية تأبى إلا أن يكون مدلول قوله: (وانشق القمر) آية واقعة قريبة من زمان النزول أعرض عنها المشركون كسائر الآيات التي أعرضوا عنها وقالوا: سحر مستمر. ويدل عليها من الحديث روايات مستفيضة رواها الفريقان وتسلمها المحدثون. فالكتاب والسنة يدلان عليها، وانشقاق كرة من الكرات الجوية ممكن في نفسه، لا دليل على استحالته العقلية، ووقوع الحوادث الخارقة للعادة (ومنها الآيات المعجزات)، جائز إمكاناً ووقوعاً»[2].

ولكن قال العلامة الشيخ محمد جواد مغنية في الكاشف:

«ليس من شك أنّ هذا [انشقاق القمر] ممكن في ذاته، ولكن الإمكان شيء، والوقوع شيء آخر؛ لأنّ الوقوع يفتقر إلى دليل الاثبات، ولا دليل على أنّ الانشقاق حدث في عهد الرسول الأعظم ﷺ، بل الأدلة القائمة على العكس»[3].

٢ ـ السورة ٣٧ (الصافات): (وهي على شيءٍ من الطول، تشدّد الآيات ١ ـ ٧٢ تجاه كفر المكيّين على حتميّة القيامة والحساب...).

١- القمر: ١ – ٢.

٢ - الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ج١٩، ص٥٣، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠٦.

٣ ـ مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف، ج٧، ص١٨٩، دار الكتاب الإسلامي، ط٤، قم المقدسة، ٢٠٠٧م.

٣ ـ السورة ٧١ (نوح): (يجعل فيها محمّد نوحاً الأب الأول يثور على أصنام العرب...).

٤ ـ السورة ٧٦ (الإنسان): (تدور حول الآخرة والحساب. بسبب رواية غير صحيحة، تظهر فيها فاطمة والحسن والحسين، يضع بعضهم السورة كلها أو جزءاً منها.. في زمن ما بعد الهجرة...).

إنّ هذه الرواية غير الصحيحة بزعم نولدكه! هي التي رواها أكثر الصحابة، أما الرواية الصحيحة! فهي التي ينفرد بروايتها عبد الله ابن الزبير صاحب المواقف السياسية المعروفة المضادّة لأهل البيت عليهم السلام، وقد تبعه على ذلك جماعة ممّن جاء بعده من المفسرين، وقد أدت المجازفة ببعضهم إلى حدّ ادّعاء الإجماع[١] على نزولها بمكة، وقد ردّ (الحسكاني) هذا الإجماع المزعوم في كتابه (شواهد التنزيل) إذ قال: (اعترض بعض النواصب على هذه القصّة، بأن قال: اتفق أهل التفسير على أنّ هذه السورة مكيّة!!.. قلت: كيف يسوغ له دعوى الإجماع مع قول الأكثر: إنها مدنية؟).. ثمّ ساق (الحافظ الحسكاني) كثيراً من الروايات التي تثبت مدنية هذه السورة[٢].

---

١ ـ نسب الحسكاني هذا الإجماع في كتابه (شواهد التنزيل) إلى بعض النواصب ولم يُسمه.

٢ ـ الحسكاني، الحافظ، شواهد التنزيل، ج٢، ص٤٠٩، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط١، طهران، ١٩٩٠.

٥ ـ السورة ٤٤ (الدخان): (يعتبر بعضهم الآية ١٤ مدنية...).

٦ ـ السورة ٥٠ (ق): (يبدو أنّ الآية ٣٨ فيها اعتراض على الفكرة الكتابية أنّ الله استراح بعد إنهائه عمل الخلق. وإذ فسّر هذا تهجّماً على اليهود اعتبرت الآية مكية...)[١].

٧ ـ السورة ٢٠ (طه): (يضعها موير بسبب طولها في المرحلة الأخيرة. ويقال إن تلاوة الآيات الأولى دفعت بعمر إلى اعتناق الإسلام...).

٨ ـ السورة ٢٦ (الشعراء): (تبدأ بعنوان شكلي للتصديق على طابع الوحي...).

٩ ـ السورة ١٥ (الحجر): (أراد بعضهم أن يجد فيها بعض الآيات الغارقة في القدم.. لكنّ هذا الرأي لا يعتمد إلا على لفظي (النذير) و(فاصدع)، كما لو أنّ محمّداً لم يكن في وسعه في وقت متأخر أن يحثّ على الدعوة إلى الإيمان من دون خوف...).

١٠ ـ السورة ١٩ (مريم): (يروى أنّ المسلمين قرأوا الجزء الأول منها على نجاشي الحبشة المسيحي بحضور وفدٍ من قريش...).

---

١ ـ الأنسب اعتبار السورة مدنية وفقاً لهذا التفسير، لمكان اليهود في المدينة، وقد ذهب نولدكه إلى غير ذلك فاعتبر السورة مكية، وعليه ربما كان الخطأ في التعبير بـ (مكية) آنفاً في عبارة نولدكه قد وقع سهواً في النسخة العربية التي اعتمدناها في دراستنا هذه، فيكون الخطأ من المعرّب والله أعلم.

١١ ـ السورة ٣٨ (ص): (يقال إن الآيات الأولى منها نشأت حين حاولت قريش حمل أبي طالب على التوقف عن حماية محمد، أو حين كان ملقىً على فراش الموت. لكن هذا ليس إلا مجرّد استنتاج من العبارة البسيطة (انطلق الملأ)...).

١٢ ـ السورة ٣٦ (يس): (قد أبدي رأيٌ مماثلٌ حولها. بعضهم يقصره على الآية ١١ فقط).

١٣ ـ السورة ٤٣ (الزخرف): (يقال إنّ الآية ٤٥/ ٤٤ نشأت في القدس أو في السماء، ووجّهت إلى الأنبياء الذين كانوا ليلة المعراج مجتمعين هناك. ليس من الصعب العثور على أصل هذا القول الغريب، وقد أحسن فايل إيضاحه...).

١٤ ـ السورة ٧٢ (الجن): (تُردّ إلى الرؤيا التي اكتشف فيها محمّد أنّ الجنّ تسترق السمع إليه عند تلاوته القرآن...).

١٥ ـ السورة ٦٧ (الملك): (مدنية بحسب إحدى الروايات، ربما فقط بسبب مشابهتها في الطول للسور من الحديد إلى التحريم التي نزلت في المدينة...).

١٦ ـ السورة ٢٣ (المؤمنون): (تعتبر منها الآية ٧٨/٧٦ مدنية، بسبب تفسير خاطئ يربطها بوقعة بدر. ويحسبها البعض من دون أن نعرف السبب، آخر سورة نزلت في مكة...).

١٧ ـ السورة ٢١ (الأنبياء): (يصف بعضهم الآية ٧ منها بأنها مدنية...).

١٨ ـ السورة ٢٥ (الفرقان): (الآية ٤٧/٤٥ نزلت بحسب حديث في الطائف. إذا صحّ هذا الرأي، لزم أن تكون الآيات المرتبطة بها من المصدر نفسه، ولا دليل على ذلك...).

١٩ ـ السورة ١٧ (الإسراء): (تتعلق بإسراء محمّد من مكة إلى بيت المقدس...).

٢٠ ـ السورة ٢٧ (النمل): (لابد من أنّ بعض الكلمات قد سقطت منها. فالمفردات التي تتبع (هو) لا يمكن أن تخصّ إلا سليمان وصحبه...).

٢١ ـ السورة ١٨ (الكهف): (تعتبر بعض آياتها مدنية...)[١].

سور الفترة المكية الثالثة:

قال (ثيودور نولدكه) في بيان سمات سور هذه الفترة:

«ما تكوّن في الفترة الثانية تدريجاً من أسلوبٍ ولغةٍ ومعالجةٍ للمواضيع، يبرز في الفترة الثالثة بشكله النهائي. اللغة تصبح مطنبة، واهية، نثرية. التكرار الذي لا نهاية له.. كلّ هذا يجعل الآيات والسور مملة في كثيرٍ من الأحيان.. من خصائص الفترة الثالثة المخاطبة بقول (يا أيها الناس)»[٢].

---

١ ـ أنظر: نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، من ص١٠٨ إلى ص١٢٨.

٢ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص١٢٨ ـ ١٢٩.

وفيما يتعلق بترتيب السور داخل هذه الفترة يكرر نولدكه عجزه عن بلوغ ذلك إذ يقول: (ونظراً إلى اختفاء التطوّر تقريباً في سور الفترة الثالثة، تضعف لدينا إمكانية القيام بترتيب تاريخي لها عمّا كانت تسمح به الفترتان السابقتان)[1].

ثمّ أخذ بسرد سور هذه الفترة التي بلغت إحدى وعشرين سورة أيضاً، على النحو الآتي:

١ ـ السورة ٣٢ (السجدة): (... الآية ١٦ أو الآية ١٨ حتى ٢٠ تعتبر خطأ مدنية، الأولى بسبب رواية تربطها بالفقراء من المهاجرين أو الأنصار والثانية بسبب ربطها بحادثة وقعت قبل وقعة بدر).

٢ ـ السورة ٤١ (فصّلت): (يُعتقد أن محمّداً حاول بواسطتها أن يقنع وجيهاً من وجهاء مكة هو عتبة بن ربيعة باعتناق الإسلام...).

٣ ـ السورة ٤٥ (الجاثية): (نشأت الآية ١٣/١٤ بحسب الواحدي أثناء الزحف على بني المصطلق، أو لمناسبة أخرى في المدينة...).

٤ ـ السورة ١٦ (النحل): (نجد بعض الآيات التي نزلت في المدينة. ويمكن ربط الآيتين ٤١ و٤٣ بالهجرة إلى الحبشة...).

٥ ـ السورة ٣٠ (الروم): (لابد من أنّ الآيات الأولى من سورة الروم ٣٠ نزلت بعد هزيمة البيزنطيين (الروم) أمام الفرس في إحدى

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص١٢٩.

الدول المجاورة لشبه جزيرة العرب...).

٦ ـ السورة ١١ (هود): (يعتبر بعضهم، من دون سببٍ معروف، أنّ الآية ٥ منها نزلت في الطائف...).

٧ ـ السورة ١٤ (إبراهيم): (يعزوها مفسرون كثيرون خطأً إلى القرشيين الذين شهدوا بدراً...).

٨ ـ السورة ١٢ (يوسف): (تختلف عن سواها من طوال السور بأنها تعالج موضوعاً واحداً فقط هو حياة يوسف، باستثناء بضع آيات في النهاية، لكنها على صلة بالآيات الأخرى...).

٩ ـ السورة ٤٠ (غافر): (يُظنّ خطأً أنّ المقصود بها هم اليهود، ولذلك تعتبر مدنية...).

١٠ ـ السورة ٢٨ (القصص): (يخطئ من يظن أنّها تشير إلى النصارى الذين قدموا إلى محمّد في المدينة...).

١١ ـ السورة ٣٩ (الزمر): (يقال: إنّ بعض آياتها أرسلت من المدينة إلى مكة بسبب وحشي أو بسبب مجرمين آخرين. لهذا كثيراً ما تعتبر الآيات مدنية...).

١٢ ـ السورة ٢٩ (العنكبوت): (يعتبرها الكثيرون بحق مدنية...)[1]!

---

١ ـ فإذا كان الكثيرون يعتبرونها مدنية، وكان هذا الاعتبار عند نولدكه حقاً، فلماذا لم يصنفها ضمن السور المدنية؟! الباحث.

١٣ ـ السورة ٣١ (لقمان): (يعتبرها بعضهم مدنية بسبب ذكر الزكاة فيها[1]. الآيتان ١٣ و١٤ اللتان تتناولان والدين أحمقين تكادان تكونان في المكان الصحيح...).

١٤ ـ السورة ٤٢ (الشورى): (تعتبر عدّة آيات مدنية، من دون أسباب قاطعة...).

١٥ ـ السورة ١٠ (يونس): (نجد أيضاً بعض الآيات التي تعتبر مدنية من غير حق...).

١٦ ـ السورة ٣٤ (سبأ): (يحصل الشيء نفسه، وذلك بسبب إشارتها إلى اليهود...).

١٧ ـ السورة ٣٥ (فاطر): (الآية ٣٧/٣٩ حتى النهاية ذات فاصلة تنتهي بألف طويلة...).

١٨ ـ السورة ٧ (الأعراف): (تقسم إلى خمسة مقاطع... ورغم عدم وجود صلات وثيقة بين هذه المقاطع، فقد يكون محمّد جمعها بنفسه...).

١٩ ـ السورة ٤٦ (الأحقاف): (تعتبر مدنية بسبب ذكر اليهود فيها...).

٢٠ ـ السورة ٦ (الأنعام): (توجد فيها مواضع يتقطع فيها المعنى

---

١ ـ ولكننا أثبتنا فيما تقدّم من رسالتنا هذه أنّ تشريع الزكاة قد تمّ في مكة المكرمة، بشكل وافٍ لا يقبل معه أي مجال للتشكيك، فراجع.

بشدّة... إلا أن السورة تظهر بشكل غير معتاد على مستوى واحد من ناحية الأسلوب والمفردات...).

٢١ ـ السورة ١٣ (الرعد): (تشير بعض آياتها بحسب التفسير المعهود إلى (عامر بن الطفيل) و(الأربد بن قيس)، رأسي قبيلة عامر بن صعصعة، اللذين أرادا قتل النبي في السنة التاسعة أو العاشرة، فعاجلهما الموت عقاباً على ذلك. لهذا السبب تنسب إلى أصل مدني...)[١].

وبذلك يكون نولدكه قد فرغ من بيان الترتيب الزمني لسور الحقبة المكية، وكان مجموعها تسعين سورة.

ب) سور الحقبة المدنية عند (نولدكه):

قال نولدكه في بيان معالم السور المدنية، بعد أن تعرض باختصار إلى وضع النبي قبل الهجرة وبعدها:

«كثيراً ما تخاطب هذه السور المسلمين، لكن لا لتعرُض عليهم، إلا نادراً، تعاليم عقائدية أو أخلاقية، وقد عرّفتهم بها بصورة وافية السور المكية... عارضاً المقبلات، أو آمراً ومشرّعاً... إن الأمور الجديدة التي دخلت بعد الهجرة في دائرة اهتمامات محمّد، فصارت تعالج في السور، سببت

١ ـ أنظر: نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، من ص١٢٩ إلى ص١٤٨.

فيها بالتأكيد اختلافات بالغة مقابل أسلوب الفترة المكية الأخيرة... وبما أنّ النبي لا يتوجّه هنا إلى الناس عموماً.. فإنّ المنادى (يا أيها الناس) نادر جداًّ. وكثيراً ما يستعمل النداء (يا أيها المؤمنون)... إنّ تطوّر استعمال اللغة الذي لاحظناه قبل الهجرة، لا يلاحظ بعدها في أقصى الأحوال إلا في آثار متفرّقة. ويسهل التخلي عن هذه الوسيلة، وهي دوماً غير مضمونة، عند تحديد زمن نشوء الآية. فالمضمون، والصلة الدائمة بظروف أو أحداث معروفة، والارتباط الوثيق بنمو الكيان السياسي الجديد عوامل قادرة على توجيه خطانا في هذا السبيل... هكذا نستطيع إعداد ترتيب زمني للسور المدنية، يحتوي على عناصر أكيدة»[١].

وأما بشأن التحديد الدقيق للوقت الذي نشأت فيه كل واحدة من هذه السور المدنية، فيكرر نولدكه اعترافه بأن هذا ما لا سبيل إلى تأكيده، قائلاً: (يبقى بالطبع الكثير مما هو غير مؤكد. فبعض المقاطع لا يمكن تحديد زمن نشوئها إلا على وجه التقريب)[٢].

ثمّ شرع في بيان ترتيب السور في هذه الحقبة المدنية في قائمة

١ ـ أنظر، نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ص١٤٨ ـ ١٥٥.

٢ ـ نولدكه، ثيودور نولدكه، تاريخ القرآن، ص١٥٥.

واحدة، دون توزيعها على فترات متعددة[1]، كما صنع في الحقبة المكية، فبلغ بها أربعاً وعشرين سورة على النحو الآتي:

١ ـ السورة ٢ (البقرة): (... لا شكّ في أنّ المسلمين على حق في قولهم إنّ سورة البقرة هي أقدم السور المدنية المتبقية...).

٢ ـ السورة ٩٨ (البيّنة): (تعتبرها الغالبية مدنية، فيما تعتبرها القلة مكية...).

٣ ـ السورة ٦٤ (التغابن): (تشبه السور المكية ولهذا السبب تعدّ منها... وثمّة ما يؤيّد كون السورة كلها مدنية. وأعتقد أنّ هذا يصحّ بالإجمال على كلّ المسبّحات...).

٤ ـ السورة ٦٢ (الجمعة): (يبدو أنّ الجزء الأول منها، وهو موجّهٌ ضدّ اليهود، تزامن في النشوء والجزء الأكبر من سورة البقرة...).

٥ ـ السورة ٨ (الأنفال): (معظمها وليس كلها كما تدّعي رواية قديمة، على علاقة مباشرة بالنصر في بدر...).

٦ ـ السورة ٤٧ (محمّد): (لا يمكن أن تكون قد نشأت بعد وقعة بدر بزمنٍ طويل...).

---

١ ـ لسنا بحاجة إلى التذكير بأنّ أبا القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري قد أشار إلى إمكان تقسيم الحقبة المدنية إلى ثلاث مراحل أيضاً، على غرار الحقبة المكية، وقد تقدم أن أشرنا إلى ذلك. الباحث.

٧ ـ السورة ٣ (آل عمران): (من غير المؤكد متى نزل الجزء الأول منها. إذا كانت السورة كلها قد نزلت في وقتٍ واحد فينبغي أن يكون ذلك قد حصل بعد وقعة بدر...).

٨ ـ السورة ٦١ (الصف): (تعتبر أحياناً مكية، شأنها في ذلك شأن أكثر من سورةٍ مدنية قصيرة...).

٩ ـ السورة ٥٧ (الحديد): (كثيراً ما تعتبر كاملة مكية... ولكن هذا ليس صحيحاً، إذ لا يبدو في كلّ المقطع أنّ محمداً متفائل...).

١٠ ـ السورة ٤ (النساء): (الجزء الأكبر منها ينتمي كما يبدو إلى الفترة الواقعة بين نهاية السنة الثالثة والسنة الخامسة...).

١١ ـ السورة ٦٥ (الطلاق): (... إذا كانت الآية الأولى تشير فعلاً إلى ابن عمر الذي طلق زوجته وهي حائض، فلا يمكن أن تكون السورة نزلت قبل السنة الثامنة...).

١٢ ـ السورة ٥٩ (الحشر): (تتعلق في معظمها بإخضاع قبيلة النضير اليهودية وطردها... ولهذا تسمّى أيضاً سورة النضير...).

١٣ ـ السورة ٣٣ (الأحزاب): (تتألف من عدّة مقاطع. الآيات ٩ ـ ٢٧ نشأت بالتأكيد في نهاية السنة الخامسة... وتنتمي الآيات ٣٦ ـ ٤٠ إلى الفترة نفسها تقريباً. وهي تعود إلى زينب بنت جحش... وأخيراً الآيات ٢٨ ـ ٣٥ التي تتضمّن أحكاماً مختلفة حول أزواج محمّد...).

١٤ ـ السورة ٦٣ (المنافقون): (يُردّ زمن نشوئها إلى فترة قصيرة بعد غزوة بني المصطلق...).

١٥ ـ السورة ٢٤ (النور): (الآيات ١ ـ ٣ موبقة الزنا وزواج البغايا، الآيات ٤ ـ ١٠ و٢١ ـ ٢٦ الفحشاء وعقاب من يرمي المحصنات بها زوراً...).

١٦ ـ السورة ٥٨ (المجادلة): (تتناول أموراً مشابهة للتي تتناولها سورة النور...).

١٧ ـ السورة ٢٢ (الحج): (القسم الأكبر منها... نزل في الفترة الزمنية الثالثة قبل الهجرة، إلا أنها تكتسب معناها الأساسي من خلال القطع المدنية الموجودة فيها...).

١٨ ـ السورة ٤٨ (الفتح): (نشأت بعد صلح الحديبية...).

١٩ ـ السورة ٦٦ (التحريم): (يربط التراث بين الآيات الأولى منها وفضيحة حصلت في بيت النبي. فقد استعمل محمد في أحد الأيام خيمة زوجته حفصة ليلتقي بأمته القبطية ماريا. ولم يكن في ذلك خرق للعادات الحسنة وحسب، بل وأيضاً انتهاك شديد لحقّ البيت الزوجي. عادت حفصة إلى البيت في وقتٍ غير متوقع، وفاجأت الاثنين، فرمت النبي بأقسى التهم، وحرّضت عائشة وكلّ نسائه عليه... وتحمل هذه الرواية ضمانة تاريخيتها في ذاتها...)!

أقول: بينما يلجأ (نولدكه) إلى الاعتبارات الداخلية في القرآن الكريم للوصول إلى ترتيب زمني دقيق لنزول سوره، ويتنكر للرواية

التاريخية والاعتبارات الخارجية، معتبراً إياها ـ بعد شدّة تعارضها فيما بينها ـ فاقدة للمصداقية في الكثير من الأحيان، نجده هنا شديد الحماسة لهذه الرواية، واصفاً إياها بأنها تحمل ضمانتها التاريخية في ذاتها! من دون أن يقدم لنا سبباً منطقياً لهذه الضمانة التاريخية، غير ما نعرفه نحن من أنّ هذه الضمانة التاريخية المزعومة، تعود في واقعها إلى أن (نولدكه) وأضرابه يستهويهم أن يجدوا النبيّ الأكرم محشوراً في زاوية حرجة، ليغمزوه منها! ولعمري، (تلك شكاة ظاهر عنهم عارها)! وكأنّ الوسيعة قد ضاقت على رسول الله، وكأنّ مارية القبطية لا تمتلك بيتاً كسائر زوجات النبي، حتى يضطر إلى السطو على خيمة حفصة، حيث وجدته الأخيرة متلبّساً بالجرم المشهود، ووجدت في هذه الجناية سبقاً صحفياً راحت تذيعه على ضراتها وتستميلهن إلى صفها، وتدعوهن إلى تشكيل تحالفٍ بقيادتها! أين منه التحالف الذي شكله الله تعالى في الآية الرابعة من السورة ذاتها، حيث يقول تعالى: ﴿ **وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾ [1]، ولكن هذا هو مبلغ الإنصاف عند بعض المستشرقين عندما يدّعون دراسة التاريخ بحيادية مطلقة! إنها (شنشنة أعرفها من أخزم).

٢٠ ـ السورة ٦٠ (الممتحنة): (مطلع (الآيات ١ ـ ٩) يحذر المسلمين من أن يصادقوا من نفاهم محمد وأتباعه في ذلك الحين...).

---

١ - التحريم: ٤.

٢١ ـ السورة ١١٠ (النصر): (تبدو وكأنها قطعة مأخوذة من نصّ أكبر، توجد في القرآن بين سور مكية... إلا أن اليقين المتفائل بأنّ الناس ستدخل في الدين الحقّ أفواجاً يؤيّد بالأحرى كون السورة مدنية متأخرة...).

٢٢ ـ السورة ٤٩ (الحجرات): (تتألف من عدّة أقسام. ويفسّر الجميع تقريباً الآيات ١ ـ ٥ إشارة إلى بني تميم الذين أتوا إلى المدينة ليفاوضوا محمّداً على إطلاق سراح الأسرى. وحين لم يخرج إليهم للتوّ ضجّوا متحدّين إياه...).

٢٣ ـ السورة ٩ (التوبة): (أهمّ آياتها هي تلك التي تلاها النبيّ بواسطة عليّ على العرب المجتمعين في مكّة أثناء الحج في السنة التاسعة...).

٢٤ ـ السورة ٥ (المائدة): (بينما تعتبر الأكثرية السورة السابقة آخر السور، يرى آخرون أن سورة المائدة أحدث عهداً... يحسب التراث صراحة الآية ٣ فقط من بين هذه الآيات، مؤكداً أنّ محمداً تلاها على المؤمنين أثناء حجّة الوداع في السنة العاشرة، قبل وفاته ببضعة أشهر. ولكن يجوز أن نضيف إليها أيضاً الآيات ١ و٣ حتى (واخشون)، فهي تشكل من حيث المضمون تتمّة مناسبة لها...)[١].

وهكذا يتمّ (نولدكه) السور المدنية، وقد بلغت عنده أربعة

١ ـ أنظر، نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، من ص١٥٥ إلى ص٢١٠.

وعشرون سورة، فيكون مجموعها مع السور المكية التي بلغت تسعون سورة عنده ١١٤ سورة، وهو مطابق لعدد السور القرآنية عند المسلمين بشتى طوائفهم ومذاهبهم وعليه إجماعهم.

١١- بيان خصائص السور عند نولدكه:

وفقاً لما تقدم، يمكننا اختزال الخصائص التي وضعها (نولدكه) للحقبة المكية بمراحلها الثلاث، وكذلك المدنية على النحو الآتي:

خصائص الفترة المكية الأولى:

١ ـ الكلام فيها عظيم مفعم بالصور الصارخة والزاخرة بالقوة.

٢ ـ كلمات القسم التي تكثر في هذه الفترة دون سواها.

٣ ـ السور قصيرة في الأعم الأغلب.

٤ ـ هجمات النبي على خصومه، لها تأثيرٌ كبيرٌ في سور هذه الفترة[١].

خصائص الفترة المكية الثالثة:

١ ـ اللغة فيها مطنبة وواهية ونثرية، والتكرار فيها لا نهاية له.

٢ ـ بعض السور فيها طويل جداً.

٣ ـ توجيه الخطاب القرآني بعبارة (يا أيها الناس)[٢].

١- نولدكه، تيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٦٨- ٦٩.

٢- م.ن، ج١، ص١٢٨- ١٢٩.

أما خصائص الفترة المكية الثانية، فهي مزيج من خصائص المرحلتين الأولى والثالثة، مع اختلافها عنهما في الشدّة والضعف، بمعنى أنها تحتوي خصائص كلتا الفترتين، ولكن على نحو أضعف[1].

خصائص الحقبة المدنية:

١ ـ خلوها من التعاليم العقائدية والأخلاقية إلا فيما ندر.

٢ ـ ظهور النبي فيها بوصفه قائداً ومشرعاً.

٣ ـ توجيه الخطاب القرآني بعبارة: (يا أيها الذين آمنوا).

٤ ـ تميز سور هذه الحقبة بكونها الأطول على الإطلاق[2].

وبذلك يتضح أن (نولدكه) لم يأتِ بمعايير جديدة غير تلك التي ذكرها من سبقه من المسلمين والمستشرقين، بحسن نية أو سوء نية، وقد تقدم أن أجبنا عن مدى صدقية هذه المعايير في معرض الحديث عن ظاهرة المكي والمدني، والتمييز بينهما في مطلع هذا الفصل، وبذلك نجد أنفسنا في غنىً عن التكرار والإسهاب والإعادة. ومن الواضح أيضاً أن نولدكه شأنه في ترتيب نزول السور شأن المسلمين الأوائل الذين ميزوا بين الأسلوب المكي والمدني من السور، فقد استخرج هذه الخصائص والمعايير من السور المكية والمدنية بعد التعرّف عليها عبر الرواية التاريخية، وعليه فإن جعل هذه الخصائص علامات للتمييز بين

١- نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص١٠٥.

٢- م.ن، ج١، ص ١٤٨- ١٥٥.

المكي والمدني أشبه بالدور.

ولو سلمنا جدلاً بصحة هذه المعايير التي أعاد (نولدكه) اجترارها في بيان الترتيب التاريخي لنزول سور القرآن، فإنما يقتصر نجاحه ـ إذا كتب له النجاح ـ على تحديد تاريخ نزول مجموعة من السور ضمن فترة زمنيّة بعينها، فنعلم أن الفترة المكية الثالثة قد شهدت مثلاً نزول السور رقم: ٣٢ و٤١ و٤٥ و١٦ و٣٠، ولكن ما هو المتقدّم منها وما هو المتأخر ضمن هذه الفترة الواحدة؟ هذا ما لم يستطع (نولدكه) الجزم به بضرس قاطع. بل اعترف غير مرّة بعجزه عن ذلك، كما ذكرنا مراراً. لا بل إنه عابَ على (وليم موير) منهجه في تعيين تاريخ آحاد السور، قائلاً: (أمّا غلطته الأساسية في هذا التقسيم، فهي أنه يسعى إلى ترتيب السور واحدة واحدة ترتيباً زمنيّاً. وهو يتواضع إلى درجة الاعتراف بأنه لم يبلغ هدفه تماماً، لكن هذا الهدف يستحيل بالفعل بلوغه)[1].

١٢- طريقة المهندس مهدي بازركان في بيان ترتيب النزول:

يتضح مما تقدّم أن (نولدكه) لم يكن موفقاً في الاعتماد على

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١ ص٦٧.

الخصائص الداخلية في بيان الترتيب الزمني لنزول سور القرآن مئة في المئة. وإننا لنجد الميزان الذي أبدعه مؤخراً المهندس السيد مهدي بازركان[1] في هذا الإطار أكثر صدقاً من (نولدكه) في التجرّد من الرواية التاريخية، إذ اقترح السيد بازركان معياراً رياضياً في الوصول إلى موضع كل سورة من غيرها، ابتداءً من أول سورة نزلت على رسول الله إلى آخر سورة، وقد طبق هذه الطريقة في بادئ الأمر على ثلاث سور تواترت الأخبار في نزولها في المرحلة الأولى والوسيطة والأخيرة من عهد الرسالة، وذلك بغية التثبّت من صحة معياره، الأمر الذي يرفع ـ كما سبق لنا أن ذكرنا في الفصل الثاني من هذا البحث ـ من رصيد الإعجاز العددي والحسابي في القرآن الكريم. وقد وصف السيد (مهدي بازركان) طريقته قائلاً:

«إنّ من أبسط الطرق وأيسرها على الفهم هو طول الآيات وقصرها، وهذا يعود إلى عدد المفردات التي

---

١ ـ مهدي بازركان (١٢٨٦ ـ ١٣٧٣هـ ش): سياسي ايراني، وأستاذ جامعي، وباحث في الشأن القرآني. ولد في مدينة بازركان من محافظة آدربيجان الغربية. رئيس الحكومة المؤقتة، وأول رئيس للوزراء بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، من المؤسسين الأوائل لـ (حركة التحرير في إيران) إلى جانب آية الله السيد محمود الطالقاني، ويد الله سحابي، نائب أهالي طهران في مجلس الشورى الإسلامي في دورته الأولى. تجاوز عدد مؤلفاته ثمانين كتاباً في الدين والاقتصاد والسياسة، ومن مؤلفاته: (البعثة والتكامل)، و(الدين والحضارة)، و(البراغماتية في الإسلام)، و(علي والإسلام)، و(تطور القرآن)، والكتاب الأخير هو الذي يستعرض فيه طريقته في الترتيب الزمني لنزول سور القرآن.

تتكون منها تلك الآيات، وهذا لا يتوقف على معلومات لغوية أو صرفية أو نحوية، وهي من أضمن الطرق وأكثرها حيادية بحيث لا يختلف فيها اثنان، ومزيتها هي التوجه مباشرة إلى الأعداد الرياضية والحسابات العددية.. ولحسن الحظ سترون أن السور القرآنية والبالغ عددها ١١٤ سورة، لا يشترك منها اثنان في عدد واحد، ولن يحصل خلط فيما بينها من هذه الناحية[١]، وسيكون لكل سورة عددها الخاص الذي سنعتبره شاخص السورة»[٢].

تقول طريقة (بازركان): إن آيات السور غير متساوية الطول؛ وذلك لاختلافها في عدد الكلمات، ولكنها مع ذلك قريبة من بعضها ولها نظام خاص، فعلينا لذلك أن نأخذ (متوسط الطول) فيها بنظر الاعتبار. إن متوسط الطول هذا يؤخذ من متوسط طول آحاد الآيات، ويكفي في ذلك إجراء عملية رياضية بديهية ومعروفة للجميع، يمارسها الصغار في المدارس قبل أن يتجاوزوا مرحلتهم الابتدائية، وهي تقسيم عدد الكلمات الواردة في السورة على عدد آياتها. ولإثبات صحّة هذه الطريقة نأخذ مثلاً ثلاث سور من بداية البعثة ووسطها وآخرها، وهي:

---

١ ـ سيتضح أنّ هذا غير صحيح على إطلاقه، إذ سنجد تطابقاً كاملاً في اشتراك أكثر من سورة في متوسط الطول، وسنتعرّض لذلك بتفصيلٍ أكثر. المؤلف.

٢ ـ بازركان، مهدي، سير تحوّل قرآن، ص٣١.

(الهمزة)، و(طه)، و(المائدة)، ونجري عليها الطريقة الحسابية المذكورة على النحو الآتي:

الهمزة	طه	المائدة
عدد كلماتها: ٣٣	عدد كلماتها: ١٣٠٤	عدد كلماتها: ٢٦٣٦
عدد آياتها: ٩	عدد آياتها: ١٤٢	عدد آياتها: ١٢٥
٣٣ : ٩ = ٦٦ / ٣	١٣٠٤ : ١٤٢ = ١٦ / ٩	٢٦٣٦ : ١٢٥=٠٨ / ٢١

ويبدو الاختلاف كاملاً، وعليه يمكن القول بأن متوسط طول الآيات قد كان له مسار تصاعديّ بمرور الزمن، ولو أننا طبقنا هذه المعادلة على سور أخرى معلومة النزول نسبياً من حيث التقدّم والتأخر، ستتضح الطريقة بشكل أكثر:

الأعراف: قبل الهجرة بقليل، ٣٢٤٣ : ٢١١ = ١٥/٣٦

الأنفال: بداية الهجرة (بدر وأحد)، ١١٩٧ : ٧٧ = ١٥/٥٧

الحشر: العام الهجري الرابع (إخراج اليهود)، ٤٦٣ : ٣٦ = ١٧/١١.

النور: العام السادس (بعد غزوة بني المصطلق)، ١٢٨٤ : ٦٤ = ١٩/٧٥.

وقد نزلت هذه السور الأربعة في الفترة الواقعة بين نزول سورتي (طه) و(المائدة)، بحيث يبدو جلياً أن متوسط طولها يقع بين متوسط طولهما.

وعليه يمكننا في ضوء هذا الاكتشاف أن نؤسس لنظرية في ترتيب نزول القرآن تقوم على قاعدة رياضية تقول: (**إنّ الطول المتوسط للآيات تابع للتقدّم الزمني**).

ثمّ عثر المهندس مهدي بازركان أثناء بحثه الدؤوب عن مختلف المحاولات لترتيب سور القرآن، على نسخة للقرآن الكريم، كانت تحتوي على جدول يرتب السور على سنوات النزول[1]، وقد أعطى لكل سنة تسمية خاصة بها على النحو الآتي:

السنة الأولى (الافتتاحية)، وفيها نزلت ست وعشرون سورة،

---

١ ـ فيما يتعلق بمصدر هذا الجدول يقول السيد مهدي بازركان: قمت بالكثير من المراسلات والتحقيقات، دون أن أحصل على جوابٍ شافٍ من أحد، ولم أجده حتى في كتاب تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني، ولا في مقدمة القرآن الذي حققه المستشرق الفرنسي بلاشير، وحتى في الكتب التي صنفت في بيان الفهارس التاريخية لم نجد أدنى إشارة إلى هذا الجدول! إلى أن جاءني بعض الأصدقاء بنسخة قرآنية مترجمة ومزوّدة بفهارس ودليل الآيات، ومطبوعة بشكل فاخر، وتعود كتابته إلى سنة ١٣١٣ هـ ق في طهران وقد نال شرف كتابته الخطاط الميرزا عبد الباقي التفرشي، وربما كانت هي الأولى في نوعها من النسخ المطبوعة في إيران، وقد أشرف على تنظيمها الوزير (اعتماد السلطنة)، وزير الطباعة في عهد الملك القاجاري (ناصر الدين شاه)، وقد ذكر هذا الوزير في مقدمته على هذه النسخة القرآنية أنه أخذ فهرس الموضوعات من (عالم مغربي) دون أن يسمّيه، ثمّ استعرض هذا الجدول لترتيب نزول القرآن سنوياً مع ذكر تسمية لكلّ سنة، دون أن يتضح ما إذا كان هذا الجدول قد أخذه من ذلك العالم المغربي المجهول، أم أنه من وضع اعتماد السلطنة نفسه.

وهي: الفاتحة، الناس، الفلق، الإخلاص، المسد، النصر، الكافرون، الكوثر، الماعون، قريش، الفيل، الهمزة، العصر، التكاثر، القارعة، العاديات، الزلزال، العلق، التين، الانشراح، الضحى، الليل، الشمس، البلد، الفجر، الغاشية.

السنة الثانية (الاستعلائية)، وفيها نزلت ثلاث عشرة سورة، وهي: الأعلى، الطارق، البروج، الانشقاق، التطفيف، الانفطار، التكوير، عبس، النازعات، النبأ، المرسلات، الدهر، القيامة.

السنة الثالثة (الدثارية)، وفيها نزلت ثمان سور، وهي: المدّثر، المزمّل، الجن، نوح، المعارج، الحاقة، القلم، الملك.

السنة الرابعة (الواقعية)، وفيها نزلت سبع سور، وهي: الواقعة، الرحمن، القمر، النجم، الطور، الذاريات، ق.

السنة الخامسة (الأحقافية)، وفيها نزلت أربع سور، وهي: الأحقاف، الجاثية، الدخان، الزخرف.

السنة السادسة (الشورائية)، وفيها نزلت أربع سور، وهي: الشورى، فصلت، المؤمن، الزمر.

السنة السابعة (الداودية)، وفيها نزلت خمس سور، وهي: ص، الصافات، يس، الملائكة، سبأ.

السنة الثامنة (اللامية)، وفيها نزلت أربع سور، وهي: السجدة،

لقمان، الروم، العنكبوت.

السنة التاسعة (الطائية)، وفيها نزلت ثلاث سور، وهي: القصص، النمل، الشعراء.

السنة العاشرة (الفرقانية)، وفيها نزلت ٣ سور، وهي: الفرقان، المؤمنون، الأنبياء.

السنة الحادية عشرة (السامرية)، وفيها نزلت أربع سور، وهي: طه، ومريم، الكهف، الأسرى.

السنة الثانية عشرة (النحلية)، وفيها نزلت خمس سور، وهي: النحل، الحجر، إبراهيم، الرعد، يوسف.

السنة الثالثة عشرة (الهودية)، وفيها نزلت أربع سور، وهي: هود، يونس، الأعراف، الأنعام.

السنة الرابعة عشرة (الهجرية)، وفيها نزلت أربع سور، وهي: القدر، التغابن، المنافقون، الجمعة.

السنة الخامسة عشرة (البدرية)، وفيها نزلت ثلاث سور، وهي: البينة، الصف، الحديد.

السنة السادسة عشرة (الأحدية)، وفيها نزلت سورتان، وهما: محمد صلى الله عليه وآله، المجادلة.

السنة السابعة عشرة (النظيرية)، وفيها نزلت سورتان، وهما: الحشر، الممتحنة.

السنة الثامنة عشرة (الخندقية)، وفيها نزلت سورتان، وهما: الحجرات، الحج.

السنة التاسعة عشرة (الحديبية)، وفيها نزلت سورتان، وهما: النساء، النور.

السنة العشرون (الخيبرية)، وفيها نزلت ثلاث سور، وهي: الطلاق، التحريم، الأحزاب.

السنة الحادية والعشرون (الفتحية)، وفيها نزلت سورتان، وهما: الفتح، الأنفال.

السنة الثانية والعشرون (التبوكية)، وفيها نزلت سورتان، وهما: التوبة، البقرة.

السنة الثالثة والعشرون (الوداعية)، وفيها نزلت سورتان، وهما: آل عمران، المائدة.

ثمّ عمد السيد بازركان إلى تطبيق نفس الطريقة الحسابية، ولكن من خلال تقسيم عدد الكلمات النازلة في كلّ سنة على عدد الآيات النازلة فيها، فخرج بالنتيجة الآتية:

سنة النزول	عدد السور	عدد الآيات	عدد الكلمات	متوسط الطول
الأولى	٢٦	٢٦٢	١٠٢٣	٣/٩١
الثانية	١٣	٤١٥	١٧٧٣	٤/٢٧
الثالثة	٨	٣٠٩	٢٠٤٠	٦/٦٠
الرابعة	٧	٤٤٥	٢٤٧٨	٥/٥٦
الخامسة	٤	٢١٧	٢٣١١	١٠/٦٤
السادسة	٤	٢٦٦	٤٠٢٨	١٥/١٤
السابعة	٥	٤٥٢	٣٩٧٩	٨/٨
الثامنة	٤	١٩٣	٢٧٣٢	١٤/١٥
التاسعة	٣	٤١٠	٣٨٧٧	٩/٤٥
العاشرة	٣	٣٠٧	٣١٠٥	١٠/١٠
الحادية عشرة	٤	٤٥١	٥٣٩٣	١١/١٥
الثانية عشرة	٥	٤٣٣	٥٨١٧	١٣/٤٣
الثالثة عشرة	٤	٦٠٣	١٠١٢٥	١٦/٧٩
الرابعة عشرة	٤	٤٥	٦٢٦	١٣/٩٠
الخامسة عشرة	٣	٥١	٨٥٩	١٦/٨٤
السادسة عشرة	٢	٦٠	١٠١٢	١٦/٨٦
السابعة عشرة	٢	٣٧	٧٧٥	٢٠/٩٤
الثامنة عشرة	٢	٩٦	١٦٣٤	١٧/٠٠

سنة النزول	عدد السور	عدد الآيات	عدد الكلمات	متوسط الطول
التاسعة عشرة	٢	٢٤٠	٤٨٥٦	٢٠/٢٣
العشرون	٣	٩٧	١٨١٢	١٨/٦٥
الحاد والعشرون	٢	١٠٤	١٧٩١	١٧/٢٢
الثانية والعشرون	٢	٤١٥	٨٦١٨	٢٠/٧٦
الثالثة والعشرون	٢	٣٢٠	٧٢٨٤	٢٢/٧٦

وكما هو ملاحظ فقد كان هناك نزول وصعود في الأثناء، ولكن المسار العام كان على الصعود التدريجي، بحيث أنّ متوسط الطول في السنة الأولى والثانية كان هو الأقصر على الإطلاق. بينما متوسط الطول في السنة الأخيرة، كان هو الأطول على الإطلاق.

كان هذا تطبيقاً لطريقة (بازركان) على التقسيم السنوي لنزول السور حسب الرواية المتقدّمة. وأما فيما يتعلق بترتيب السور واحدة واحدة، فقد خرج بجدول آخر، نذكره على النحو الآتي:

قائمة المهندس (مهدي بازركان) في الترتيب الزمني لنزول سور القرآن الكريم

الرقم	السورة	متوسط الطول	الرقم	السورة	متوسط الطول	الرقم	السورة	متوسط الطول
١	الإخلاص	٣/٠٠	٣٩	الصافات	٤/٧٠	٧٧	فصّلت	١٤/٤٨
٢	عبس	٣/١١	٤٠	الحاقة	٤/٨٠	٧٨	الكهف	١٤/٥٩
٣	الأعلى	٣/١٢	٤١	البروج	٤/٨٦	٧٩	المؤمن	١٤/٦٩
٤	القارعة	٣/٢٧	٤٢	المعارج	٤/٩٠	٨٠	هود	١٤/٨٦
٥	الشمس	٣/٣١	٤٣	الرحمن	٤/٩٦	٨١	إبراهيم	١٤/٩٢
٦	الناس	٣/٣٣	٤٤	الشعراء	٥/٦٥	٨٢	الزمر	١٥/٤٠
٧	الكوثر	٣/٣٣	٤٥	النجم	٥/٧١	٨٣	المنافقون	١٥/٤٥
٨	الانشراح	٣/٣٧	٤٦	القلم	٥/٧٧	٨٤	الأعراف	١٥/٥٧
٩	الليل	٣/٣٨	٤٧	الدخان	٥/٨١	٨٥	سبأ	١٥/٦٠
١٠	الغاشية	٣/٣٨	٤٨	الذاريات	٥/٨٥	٨٦	يوسف	١٥/٦١
١١	الماعون	٣/٤٢	٤٩	الحجر	٥/٨٩	٨٧	الجمعة	١٥/٦٣
١٢	الضحى	٣/٤٥	٥٠	القدر	٦/٠٠	٨٨	الأنفال	١٥/٦٤
١٣	التكاثر	٣/٥٠	٥١	الطور	٦/٢٠	٨٩	الشورى	١٥/٦٤

الرقم	السورة	متوسط الطول	الرقم	السورة	متوسط الطول	الرقم	السورة	متوسط الطول
١٤	المرسلات	٣/٥٤	٥٢	القمر	٦/٢٦	٩٠	الصف	١٥/٦٤
١٥	التكوير	٣/٥٥	٥٣	المزمّل	٦/٣٦	٩١	القصص	١٥/٧٥
١٦	التين	٣/٥٧	٥٤	نوح	٦/٥٠	٩٢	لقمان	١٥/٨٢
١٧	قريش	٣/٦٠	٥٥	الدّهر	٧/٦٤	٩٣	الأحقاف	١٦/٠٠
١٨	العاديات	٣/٦٣	٥٦	ق	٨/١٥	٩٤	الحج	١٦/١٥
١٩	الطارق	٣/٦٤	٥٧	ص	٨/٢١	٩٥	يونس	١٦/٣١
٢٠	العلق	٣/٧٣	٥٨	يس	٨/٣٠	٩٦	فاطر	١٦/٤٨
٢١	الهمزة	٣/٧٧	٥٩	المؤمنون	٨/٥٥	٩٧	الأحزاب	١٦/٦٦
٢٢	النازعات	٣/٨٤	٦٠	طه	٩/١٤	٩٨	آل عمران	١٧/٠٠
٢٣	الواقعة	٣/٨٨	٦١	مريم	٩/٢٢	٩٩	الحشر	١٧/٠٠
٢٤	الانشقاق	٣/٩٥	٦٢	الزخرف	٩/٤٣	١٠٠	الأنعام	١٨/٩٦
٢٥	البلد	٤/٠٠	٦٣	الجن	٨/٨١	١٠١	الحجرات	١٨/٤٦
٢٦	الكافرون	٤/٠٠	٦٤	البيّنة	١٠/٠٠	١٠٢	التوبة	١٨/٨٣
٢٧	القيامة	٤/٠٧	٦٥	الأنبياء	١٠/١٣	١٠٣	النصر	١٩/٠٠
٢٨	الفاتحة	٤/١٤	٦٦	الملك	١١/٠٠	١٠٤	الحديد	١٩/٠٢
٢٩	النبأ	٤/١٤	٦٧	الفرقان	١١/١٥	١٠٥	الفتح	١٩/٠٣

الرقم	السورة	متوسط الطول	الرقم	السورة	متوسط الطول	الرقم	السورة	متوسط الطول
٣٠	الانفطار	٤/١٥	٦٨	النمل	١١/٩٦	١٠٦	الرعد	١٩/٦٨
٣١	الفجر	٤/٢٢	٦٩	السجدة	١٢/١٦	١٠٧	النور	١٩/٦٩
٣٢	المسد	٤/٤٠	٧٠	الروم	١٣/٣٥	١٠٨	البقرة	٢٠/٣٧
٣٣	المدّثر	٤/٤٣	٧١	الجاثية	١٣/٦٠	١٠٩	النساء	٢١/٠٦
٣٤	الزلزلة	٤/٥٠	٧٢	الإسراء	١٣/٦٢	١١٠	المجادلة	٢٢/١٩
٣٥	الفلق	٤/٦٠	٧٣	التغابن	١٣/٨٠	١١١	التحريم	٢٢/٦٠
٣٦	الفيل	٤/٦٠	٧٤	النحل	١٣/٩٦	١١٢	المائدة	٢٢/٩٠
٣٧	المطففين	٤/٦٣	٧٥	محمد	١٤/١٦	١١٣	الطلاق	٢٣/٥٨
٣٨	العصر	٤/٦٤	٧٦	العنكبوت	١٤/١٧	١١٤	الممتحنة	٢٣/٩٢

الخلل في هذا الترتيب:

يمكننا أن نأخذ على هذه الطريقة المقترحة من قبل السيد مهدي بازركان، أنها تأخذ السورة القرآنية كوحدة واحدة، تنتمي بجميع كلماتها وآياتها إلى فترة زمنية متصلة ببعضها، في حين أنّ المعروف أنّ هناك آيات قد أقحمت في سور قد نزلت في وقت سابق عليها، وأن هناك آيات مستثنيات في الكثير من السور، إذ نشاهد آيات مدنية في

سور مكية، وقد كان ذلك يتمّ بأمر النبي الأكرمﷺ، وربما أحياناً باجتهاد من الصحابة، وهذا يؤدّي بطبيعة الحال إلى الإنقاص من رصيد الآيات في بعض السور، بينما يرفع رصيد سور أخرى لم تنزل في فترتها، وهي بالإضافة إلى ذلك من الكثرة، واختلاف الآراء فيها بحيث يتعسر إخضاعها لضابطة محدّدة، وربما كان هذا هو السبب في النزول والصعود الذي شاهدناه في متوسط الطول بالنسبة إلى بعض الآيات والسور، سواء الموجودة في ترتيب السور أو سنوات البعثة، الأمر الذي أحدث إرباكاً في هذه الطريقة.

أضف إلى ذلك أن بعض الكلمات لم تؤخذ في الحساب كما صرّح السيد (مهدي بازركان) نفسه، من قبيل: حروف العطف والربط والنفي والنهي وأمثالها، مثل: (الواو، والفاء، ولا، ولم، وهل)، أو أنها عدّت مع ما بعدها كلمة واحدة، من قبيل: (فلا تقل)، و(ألم تعلم)، و(أفلا تعقلون)، و(أفغير)، و(لولا كان)، و(يا أيها الذين)، وما إلى ذلك.

هذا وإننا نجد توافقاً في مقدار متوسط الطول بين بعض السور، وقد وصل أحياناً إلى ثلاث سور، وذلك كما في سورتي (الناس)، و(الكوثر)، فقد بلغ متوسط طولهما ٣/٣٣. و(الليل)، والغاشية)، فقد بلغ طولهما ٣/٣٨. و(البلد)، و(الكافرون)، فقد بلغ طولهما ٤/٠٠. و(الفاتحة)، و(النبأ)، فقد بلغ طولهما ٤/١٤. و(الفلق)، و(الفيل)، فقد بلغ طولهما ٤/٦٠. و(آل عمران)، و(الحشر)، فقد بلغ طولهما ١٧/٠٠.

وكذلك (الأنفال)، و(الشورى)، و(الصف)، فقد بلغ متوسط الطول في هذه السور الثلاث ١٥/٦٤. وفي هذه الحالة من حقنا أن نتساءل: ما هي الطريقة التي ينبغي لنا أن نتبعها في معرفة المتقدّم من المتأخر في خصوص هذه السور؟

وعليه بغضّ النظر عن هذه العقبات، فإنّ هذه الطريقة حتى وإن سلمنا بصحتها على نحو الإجمال، إلا أنّ الاضطراب الحاصل في نقل هذا الكمّ الكبير من الآيات، وزعزعتها عن مواضعها التي نزلت فيها، وإقحام هذه الآيات في فترات لا تنتمي إليها، وتشعّب الخلاف المحتدم بشأنها من الناحية التاريخية، يجعل من المتعذر الاطمئنان إلى مثل هذا المقياس وهذه الطريقة، أو يؤدّي بنا إلى اعتبارها عديمة الجدوى، حتى وإن كانت صحيحة وحيادية في ذاتها.

وبذلك نتوصل إلى نتيجة مفادها: إخفاق جميع المحاولات المتقدمة في عرض ترتيب لنزول السور ترتيباً زمنياً يمكن التعويل عليه والاطمئنان إليه بضرس قاطع. ولذلك لا يبقى أمامنا سوى الترتيب الذي ألفه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بأمر ووصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وسنتعرّض إلى تفاصيل هذا الترتيب في السطور الآتية:

١٣ ـ الأرشيف الذي قدّمه النبيّ لترتيب سور القرآن الكريم:

بعد إخفاق كل المحاولات في بيان ترتيب النزول، سواء تلك

التي تعتمد الرواية التاريخية، أو تلك التي تريد الوصول إلى ذلك من طريق وضع مقياس عقلي بحت، يتنكر للتاريخ الملغوم والمشحون بالأكاذيب التي تمّت فبركتها نتيجة للحقد على الإسلام، أو حسداً لما ناله أئمة المسلمين من أهل بيت النبوة من منصب الإمامة الإلهي. أو تلك التي تعتمد التلفيق بين الأسلوبين، من جهة. وبعد علمنا بأهمية الترتيب الزمني لنزول القرآن، وخطورته من حيث ترتب الأحكام الفقهية والعقائدية، من جهة ثانية. من حقنا أن نتساءل: كيف يمكن للنبي الأكرم ﷺ أن يكون قد أهمل أمراً على مثل هذه الخطورة، فلم يعمل على نظمه وتنسيقه، وربيبه يقول: «أوصيكم بتقوى الله ونظم أمركم»؟! وإلى ذلك يشير الأستاذ (نولدكه) في معرض بيانه لسبب لجوئه إلى الأسباب الخارجية في التماس الترتيب الزمني لنزول السور، حيث رأى غياب أرشيف لدى النبي محمّد ﷺ يؤرخ لنزول السور القرآنية سورة سورة، فقال متهكماً:

«وهل من أحدٍ يودّ الافتراض أنّ محمّداً كان لديه أرشيف، رتب فيه السور بحسب تسلسلها الزمني؟ لو كان هذا موجوداً لكان قطعة جانبيّة جميلة إلى جانب الجوارير التي نصبها فايل بسخرية للسور المفردة؛ ليدخل فيها الآيات التي أضيفت إلى هذه لاحقاً»[1].

---

١ ـ نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، ص٥٧ ـ ٥٨.

ولبيان المفارقة نقول: إنّ النبي الأكرم كان أحرص على الوحي النازل عليه، لا من حيث الضياع فحسب، بل حتى من حيث تسلسله الزمني، وقد تجلى هذا الحرص بنزول الوحي على النبي في كلّ سنة، يعيد عليه ما نزل خلال تلك السنة للتأكد من حفظه، وقد نزل عليه في عام الوداع مرتين زيادة في الاطمئنان، وقد كان النبي يتلو قوله تعالى: ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [1]، ويتلمس هذه الأذن بين أفراد الصحابة، ويرجو أن تكون هي أذن علي عليه السلام، وهو ما كان بالفعل، فكان (علي مع القرآن والقرآن مع علي)، طبقاً لما هو المروي عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله. وكان هو الأذن الواعية للقرآن، في حين كان من الصحابة من يخرج من عند رسول الله بعد سماع القرآن، فيقول: ماذا قال آنفاً؟!

فعن (الأصبغ بن نباتة)، قال: «لما قدمَ أمير المؤمنين الكوفة، صلى بهم أربعين صباحاً يقرأ بهم ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [2]؛ فقال المنافقون: لا والله، ما يُحسن ابن أبي طالب أن يقرأ القرآن، ولو أحسن أن يقرأ القرآن، لقرأ بنا غير هذه السورة. فبلغهُ ذلك؛ فقال: ويلٌ لهم! إني لأعرفُ ناسخه من منسوخه، ومحكمه من متشابهه، وفصله من فصاله، وحروفه من معانيه. والله، ما من حرفٍ نزل على محمّد صلى الله عليه وآله إلا أني أعرف فيمن أنزل، وفي أيّ يوم، وفي أيّ موضع. ويلٌ لهم! أما

١- الحاقة: ١٢.

٢- الأعلى: ١.

يقرأون: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾[1]، والله عندي، ورثتهما من رسول الله ﷺ، وقد أنهى رسول الله من إبراهيم وموسى عليهما السلام. ويلٌ لهم! والله، أنا الذي أنزل فيّ ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾، فإنما كنا عند رسول الله ﷺ؛ فيخبرنا بالوحي، فأعيه أنا ومن يعيه، فإذا خرجنا قالوا: ماذا قالَ آنفاً»[2].

وقال الإمام علي عليه السلام: «ما نزلت آية على رسول الله ﷺ إلا أقرأنيها وأملاها عليّ، فأكتبها بخطي. وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها. ودعا الله لي أن يعلمني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله، ولا علماً أملاه عليّ فكتبته منذ دعا لي ما دعا»[3].

وعن جابر، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «ما من أحدٍ من الناس ادّعى أنه جمع القرآن كما أنزل الله، إلا كذب، وما جمعه وحفظه كما أنزل الله إلا علي بن أبي طالب والأئمة من بعده»[4].

---

١ ـ الأعلى: ١٨ ـ ١٩.

٢ ـ ابن عياش السلمي، محمد بن مسعود، تفسير العيّاشي، ج١، ص١٤، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.

٣ ـ البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، ج١، ص٤٠ ـ ٤١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت، ١٩٩٩.

٤ ـ م.ن، ج١، ص١٣٨..

وعن عائشة: «عليّ أعلم أصحاب محمّد بما أنزل على محمد»[1].

وأخرج ابن أبي داود في (المصاحف) عن محمد بن سيرين، قال: «لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله، أقسم عليّ أن لا يرتدي برداء إلا لجمعة، حتى يجمع القرآن في مصحف، ففعل»[2].

وروى (الذهبي) بسنده إلى (عبد خير)، عن علي عليه السلام، أنه قال: «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، أقسمت ألا أضع ردائي عن ظهري، حتى أجمع ما بين اللوحين، فما وضعته عن ظهري حتى جمعت القرآن»[3].

وروى (ابن النديم)، عن (عبد خير)، عن علي عليه السلام، انه رأى من الناس طيرة عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله؛ فاقسم أن لا يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن، فجلس في بيته ثلاثة أيام، حتى جمع القرآن، فهو أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه[4].

---

١ ـ الحسكاني، الحافظ، شواهد التنزيل، ج١، ص٤٧، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط١، طهران، ١٩٩٠.

٢ ـ السجستاني، ابن أبي داود، المصاحف، ج١، ص١٦٩، دار البشائر الإسلامية، ط٢، بيروت، ٢٠٠٢.

٣ ـ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ، ج٢، ص١٧١، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٨.

٤ ـ ابن النديم، محمد بن اسحاق، الفهرست، ص٤٥ ـ ٤٦، دار المعرفة، ط١، بيروت، ١٩٩٤.

وروى (محمد بن سيرين)، عن (عكرمة)، قال: «لما كان بدء خلافة أبي بكر قعد علي بن أبي طالب في بيته يجمع القرآن. قال: قلت لعكرمة: هل كان تأليف غيره كما أنزل الأول فالأول؟ قال: لو اجتمعت الإنس والجن على أن يألفوه هذا التأليف ما استطاعوه».

وقال الشيخ المفيد في (المسائل السرويّة): «جمع أمير المؤمنين عليه السلام القرآن المنزل من أوله إلى آخره، وألفه بحسب ما وجب تأليفه، فقدم المكي على المدني، والمنسوخ على الناسخ، ووضع كلّ شيءٍ منه في محله»(١).

وفي الطبقات الكبرى، عن إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، وابن عون، عن محمد، قال: «نبّئت أنّ علياً أبطأ عن بيعة أبي بكر، فلقيه أبو بكر؛ فقال: أكرهت إمارتي؟ فقال عليه السلام: «لا، ولكني آليت بيمينٍ أن لا أرتدي بردائي إلا إلى الصلاة، حتى أجمع القرآن». قال: فزعموا أنه كتبه على تنزيله. قال محمّد: فلو أصيب ذلك الكتاب كان فيه علم»(٢).

وقال ابن جُزي الكلبي: «وكان القرآنُ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، متفرّقاً في الصحف وفي صدرور الرجال. فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله،

---

١ ـ المفيد، محمد بن النعمان، مصنفات الشيخ المفيد، ج٧، المسائل السروية، ص٧٩، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، قم، ١٤١٣.

٢ ـ ابن سعد، محمد بن منيع، الطبقات الكبرى، ج٢، ص٣٣٨، دار صادر، بيروت، ١٩٨٥.

قعد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في بيته، فجمعه على ترتيب نزوله. ولو وجد مصحفه، لكان فيه علم كبير، ولكنه لم يوجد»[١].

لا بل إنّ القرآن الذي ألفه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يفوق مطمح الأستاذ (ثيودور نولدكه) في الاقتناع بمجرّد الترتيب الزمني لنزول الآيات والسور القرآنية، ليطال حتى بيان الأمكنة التي نزلت فيها الآيات والسور! وبذلك يكون هذا القرآن المأرشف قد زوّدنا بما نطمح له وزيادة!

عن ابن الطفيل قال: قال عليٌّ: «سلوني عن كتاب الله، فإنه ليس من آيةٍ إلا وقد عرفت بليلٍ نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل»[٢].

وعن أبي عبدالرحمن السُّلمي، قال: ما رأيت أحداً أقرأ من عليّ بن أبي طالب، وكان يقول: «سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء من كتاب الله إلا حدّثتكم بليل نزل أم بنهار، أو في سهل أو في جبل»[٣].

وقال علقمة بن قيس: قال علي عليه السلام: «سلوني يا أهل الكوفة

---

١ ـ ابن جُزي الكلبي، محمد بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، ج١، ص٦ ـ ٧، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٥.

٢ ـ ابن سعد، محمد بن منيع، الطبقات الكبرى، ج٢، ص٣٣٨، دار صادر، بيروت، ١٩٨٥.

٣ ـ الحسكاني، الحافظ، شواهد التنزيل، ج١، ص٤٢، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط١، طهران، ١٩٩٠.

قبل أن لا تسألوني، فوالذي نفسي بيده ما نزلت آية إلا وأنا أعلم أين نزلت، وفيمن نزلت، أفي سهل أم في جبل، أم في مسير أم في مقام»[1].

وعليه فإننا نقول: إن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كان هو ذلك الأرشيف الذي سخره الله للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، والذي سخِرَ منه (ثيودور نولدكه) واستبعد وجوده. ومن هنا كان علي عليه السلام نسخة أخرى مطابقة للقرآن الكريم، بل كان هو القرآن الناطق، ولذلك اختصه النبي طوال حياته من بين الصحابة، وكان يجيبه إذا سأل، ويبادره إذا سكت. حتى إذا استكمل القرآن نزوله، ودنت من رسول الله ساعاته الأخيرة، أوصى ابن عمّه أن يتعهّد القرآن بالكتابة والجمع، ولم يعهد إلى غيره بذلك، فكان جمعه على ترتيب نزوله.

الموقف الحكومي من هذا القرآن المؤرشف:

كما نصب الله تعالى للأمة إماماً بعد رسول الله فتنكرت له. كذلك عهد النبي للإمام علي أن يجمع للمسلمين قرآنهم، على نحو ما نزل عليه صلى الله عليه وآله، فتنكروا له أيضاً. وبذلك يكونون قد تنكروا في آنٍ واحدٍ للثقلين اللذين أمرهما بالتمسّك بهما في حجّة الوداع، عند أخذ البيعة لأمير المؤمنين بغدير خم، كي يأمنوا من الضلالة!

---

١ ـ الحسكاني، الحافظ، شواهد التنزيل، ج١، ص٤٥، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط١، طهران، ١٩٩٠.

وفي رواية أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، أنه قال: «لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله جمع علي عليه السلام القرآن، وجاء به إلى المهاجرين والأنصار، وعرضه عليهم لما قد أوصاه بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله. فلما فتحه أبو بكر خرج في أول صفحةٍ فتحها فضائح القوم! فوثب عمر فقال: يا علي، اردده فلا حاجة لنا فيه؛ فأخذه عليّ وانصرف»[1].

فقد اختار الله ورسوله لهم طريق النجاة، فلم يختاروا إلا الضلالة، وما كان النبيّ إلا نذيراً، وما كان عليهم بمسيطر، وليست الهداية بالإكراه. فطوى الإمام عنهم كشحاً كما هو دأبه، وكما هو أدبه في حفظه لوصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وغيرته على بيضة الإسلام.

مآلُ مصحف الإمام علي عليه السلام:

ثبت مما تقدّم أنّ هناك جمعاً للقرآن الكريم قام به الإمام علي عليه السلام وكان من جملة ما يميّزه من سائر أنواع الجمع الأخرى، ولكن لم تشرح تفاصيل غياب هذا القرآن من الكتب التاريخية القديمة إلا كتاب (سُليم بن قيس الهلالي)، وسواء أصحّت نسبة هذا الكتاب إلى سُليم أم لم تصح، فإن ما جاء في هذا الكتاب ـ أياً كان مؤلفه ـ يسلط ضوءاً واضحاً على مصير هذا القرآن، حتى أنه يمثل الحلقة المفقودة في هذه القضية، لذلك لا يسعنا تجاوز ما جاء فيه، مضافاً إلى

---

١ ـ الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج، ج١، ١٥٥ـ١٥٦، مؤسسة الأعلمي، ط٢، بيروت.

ذلك فإننا سنعزوه برواية المفيد والطبرسي في (الإرشاد) و(الاحتجاج).

جاء في الأخبار أن أمير المؤمنين بعد أن أتمّ جمع القرآن على الترتيب الزمني لنزوله، وعلى القراءة التي أملاها عليه رسول الله، وكان مشتملاً على توضيحات بأسباب النزول وموضعه وساعته، وفي من نزل، خرج إلى الناس، وفي رواية اليعقوبي: أتى به يحمله على جمل[1]. وجاء به إلى القوم وهم مجتمعون حول أبي بكر في المسجد، وخاطبهم قائلاً: «إني لم أزل منذ قبض رسول الله ﷺ مشغولاً بغسله، ثمّ بالقرآن حتى جمعته كله في هذا الثوب الواحد، فلم ينزل الله على رسول الله ﷺ آية إلا وقد جمعتها، وليس منه آية إلا وقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وعلمني تأويلها». ثمّ قال لهم: «لئلا تقولوا غداً: ﴿ **إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِين** ﴾»[2]، فقام إليه رجل من كبار القوم فنظر فيه، وإذا فيه أشياء؛ فقال: يا علي أُردده فلا حاجة لنا فيه، ما أغنانا بما معنا من القرآن عمّا تدعونا إليه؟ فدخل عليّ عليه السلام بيته»[3].

ولما استخلف عمر، سأل علياً أن يدفع إليهم القرآن، فيحرّفوه فيما بينهم، فقال: يا أبا الحسن إن جئت بالقرآن الذي كنت قد جئت به إلى أبي بكر حتى نجتمع عليه، فقال علي عليه السلام: «هيهات، ليس إلى

---

١ ـ اليعقوبي، ابن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٢، مؤسسة الأعلمي، ط١، بيروت.

٢ ـ الأعراف: ١٧٢.

٣ ـ الهلالي، سُليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس، ص٣٣، مؤسسة البعثة، طهران، ١٤٠٧.

ذلك سبيل، إنما جئت به إلى أبي بكر، لتقوم الحجّة عليكم، ولا تقولوا يوم القيامة: ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ أو تقولوا: ما جئتنا به. إنّ القرآن الذي عندي ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْـمُطَهَّرُونَ﴾[1]، والأوصياء من ولدي». قال عمر: فهل لإظهاره وقتٌ معلوم؟ قال علي عليه السلام: «نعم، إذا قام القائم من ولدي يُظهره، ويحمل الناس عليه، فتجري السنة به صلوات الله عليه»[2].

وفي عهد عثمان حين اختلفت المصاحف، وأثارت ضجّة بين المسلمين، سأل طلحة الإمام عليه السلام في خبرٍ طويل أن يخرج للناس مصحفه الذي جمعه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وأتى به إلى القوم فرفضوه. قال: «وما يمنعك ـ يرحمك الله ـ أن تخرج كتاب الله إلى الناس؟ فكفّ عليه السلام عن الجواب أوّلاً، فكرر طلحة السؤال، فقال: لا أراك يا أبا الحسن أجبتني عمّا سألتك من أمر القرآن ألا تظهره للناس؟ قال عليه السلام: «يا طلحة عمداً كففت عن جوابك. فأخبرني عما كتبه القوم، أقرآنٌ كله أم فيه ما ليس بقرآن»؟ قال طلحة: بل قرآنٌ كله. قال عليه السلام: «إن أخذتم بما فيه نجوتم من النار ودخلتم الجنة». قال طلحة: حسبي، أما إذا كان قرآناً فحسبي»[3].

---

١ ـ الواقعة: ٧٩.

٢ ـ الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج، ج١، ص١٥٦، مؤسسة الأعلمي ،ط٢، بيروت.

٣ ـ الهلالي، سُليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس، ص٨٦ ـ ٨٨، مؤسسة البعثة، طهران.

وهكذا غيّب الإمام عليٌّ القرآنَ الذي جمعه للمسلمين، وربما كان هذا للحكمة نفسها التي ستدعو بعد ذلك بقرنين إلى غيبة الإمام المهدي المنتظر(عجل الله تعالى فرجه) بأمرٍ من الله، وسيظهر القرآن على ترتيبه الذي أنزله الله، بظهور الإمام الحجّة المنتظر عليه السلام فيظهر الثقلان اللذان أوصى النبيُّ صلى الله عليه وآله الأمةَ يوم الغدير بحفظهما، حيث قال: «إني تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»، فأبت الأمّة إلا تضييعهما!!

روى الشيخ المفيد في كتاب (الإرشاد) عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام، أنه قال: «إذا قام قائم آل محمد عليه السلام ضرب فساطيط لمن يعلم الناس القرآن على ما أنزل الله جلّ جلاله، فأصعب ما يكون على من حفظه اليوم؛ لأنه يخالف فيه التأليف»[1].

يدل صريح هذا الحديث على أن ترتيب سور القرآن الذي يرثه الحجة، إنما سيكون على نحو ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله، الأولى فالأولى، على الترتيب الذي ألفه الإمام علي عليه السلام، وإنّ هذا سوف يشكل معضلة لمن حفظه على الترتيب الراهن.

****

١ ـ المفيد، محمد بن النعمان، الإرشاد، ج٢، ص٣٨٦، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ط١، قم.

الخاتمة

اتضح من تضاعيف الفصلين الأخيرين أنّ شيخ المستشرقين الألمان لم يأت بجديد، سواء في تفسيره لظاهرة الوحي بشكلٍ عام، وظاهرة الوحي النازل على النبي الأكرم ﷺ بشكل خاص، أو في بيان ترتيب نزول الوحي، فقد كان فيما يتعلق بالمسألة الأولى سائراً على نهج المشركين والملحدين في عصر النبي الأكرم ﷺ في اتهامه بقول الشعر، وأخذه القرآن من غيره من الثقافات المعاصرة له من اليهودية والنصرانية والجاهلية، ولا يخفى أيضاً سير (نولدكه) في مسألة الوحي على خطى النهج العلماني والمادي الذي ساد الأوساط الغربية في حركتها المناوئة للميتافيزيقا بعد عصر النهضة. وحتى في هذه الحالة لم يرق إلى وضع النبي الأكرم ﷺ في مكانته المناسبة، وقصّر في تقييم الإنجازات التي حققها على المستوى المادي، ولذلك لا يمكننا أن نصنف نولدكه في عداد المستشرقين المنصفين، من أمثال (توماس كارليل)، حيث يقول:

«ماذا أراد [محمد] بالعالم، وماذا أراد العالم به؟ هل سيكون هناك سؤالٌ تجدر الإجابة عنه أكثر أهمية من هذا؟ إنّ افتراضاتنا عن محمّد تبدأ الآن لتكون بعيدة المنال بالفعل بالنسبة إلى كلّ إنسان. فالأكاذيب التي كان الحماس الحسن النيّة قد كوّمها حول هذا الرجل، صارت الآن مخزية لنا فقط. وها قد جاء الوقت الذي يفرض علينا أن نتخلص من هذا كله، ذلك أنّ الكلمة التي تفوّه بها هذا الرجل، غدت اليوم دليلاً لحياة مئة وثمانين مليون إنسان[1]، ولاثني عشر قرناً. وهذه الملايين خلقها الله كما خلقنا، ولا يوجد حتى هذه الساعة عدد أعظم من مخلوقات الرب ممن يؤمن بأي كلمة أياً كانت، أكثر من هؤلاء الذين يؤمنون بكلمة محمد. فهل لنا أن نفترض أن الأمر برمّته لم يكن أكثر من خدعة روحية بائسة، تلك التي يعيش ويموت تحت ظلها مثل هذا العدد العظيم من مخلوقات الجبار؟ أنا من ناحيتي، لا يمكن أن أقبل بمثل هذا الافتراض»[2].

وفيما يتعلق بالمسألة الثانية، وهي ترتيب نزول السور القرآنية،

---

١ ـ هذه الإحصائية قديمة، أما الآن فقد زاد عدد المسلمين على المليار وأربعمئة مليون نسمة.

٢ ـ الدعمي، محمد، الاستشراق الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي، ص٣١، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ٢٠٠٦.

فقد اقتفى فيها آثار محاولات سابقة تقدّم بها بعض المستشرقين، وسبقهم في الإشارة إليها ابن حبيب النيسابوري، كما تقدّم أن ذكرنا.

وقد رأينا أن جميع المحاولات السابقة التي سعت إلى تقديم التاريخ الزمني لنزول القرآن لم تكن موثوقة مئة في المئة، تستوي في ذلك المحاولات التي تعتمد الوثائق النقلية، أو تلك التي تنزع إلى الاجتهاد والطرق العقلية، أو تلك التي تعتمد الأسلوب التلفيقي بين النقل والعقل كما صنع (نولدكه).

وعليه لا يمكن الوثوق بجميع هذه المحاولات إلا على نحوٍ نسبي، وما دامت هذه المحاولات لا تبلغ الدقة الكاملة، لا يسعنا التعويل عليها من الناحية العلمية.

هذا وإنّ نولدكه منذ البداية قد حكم بنفسه على كتابه بموضوعية، فقد اعتبره محاولة تمّ إنجازها على نحوٍ متسرّع، واعترف بأنها محاولة فيها من الوقاحة الصبيانية[1]، بحيث لم يمكن التغلب عليها حتى في التعديل الذي قام به (فريدريش شفاللي).

وقد اعترف نولدكه أيضاً بأنّ بعض ما قاله حينذاك بقليل أو كثيرٍ من الثقة، قد انعدمت ثقته به لاحقاً[2]. دون أن يحدّد هذا البعض،

١ ـ انظر: نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ج١، مقدمة المؤلف للطبعة الثانية.

٢ ـ المصدر المتقدم.

الأمر الذي يجعلنا في حلّ من اعتبار الجميع، وقد كرر اعترافه هذا في كل فرصة سنحت له من هذا الكتاب، وقد كان يردد اعترافه هذا في بيان سور كلّ فترة من فترات الحقبة المكية المزعومة، واستمرّ على رأيه هذا حتى قبيل وفاته بمدّة قصيرة، كما ورد ذلك في مقال للمستشرق الهولندي (سنوك هورجرونين) نشر في مجلة جمعية المستشرقين الألمان في الذكرى الأولى لوفاة نولدكه، جاء فيه:

> «سئل نولدكه قبل وفاته بوقت قصير: هل يشعر بالندم؛ لأنه قضى معظم سنوات حياته في هذا التخصص، ولم يعكف على دراسة علم يعود بالفائدة العلمية على الجنس البشري؟ فأجاب قائلاً: إذا كان هناك من ندم، فلأنني درست علوماً لم أظفر منها في النهاية بنتائج حاسمة قاطعة»(١).

وعليه لا يبقى من جميع هذه المحاولات ما سلم من النقد، فلايمكن الاعتماد عليها في إثبات أو نفي، لقيامها على الحدس والظن.

أما القرآن الذي جمعه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد حُرمت منه الإنسانية لدوافع سياسية بحتة. ولكن الذي يهوّن الخطب أنّ الإمام علي عليه السلام قد أورثه أئمة المسلمين من بعده، وامتدت غيبته

---

١ ـ الغزالي، مشتاق بشير، مجلة مآب الفصلية، السنة الأولى، العدد الثالث، مقال: الغرب وتاريخ القرآن الكريم، نقلاً عن: عمر لطفي العالم، المستشرقون والقرآن، ص٧.

مع غيبة الإمام صاحب العصر والزمان (عجّل الله تعالى فرجه الشريف)، وسيظهره بظهوره.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

نهاية محرم الحرام من سنة ١٤٣١

حسن علي حسن مطر الهاشمي

***

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. ابن الأثير، مجد الدين، النهاية في غريب الحديث والأثر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢. جُزي الكلبي، محمد بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٩٥.

٣. ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.

٤. ابن سعد، محمد بن منيع، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ١٩٨٥.

٥. ابن عطية الأندلسي، عبد الحق، تفسير المحرر الوجيز، دار الفكر العربي، ط ٢، القاهرة.

٦. ابن عياش السلمي، محمد بن مسعود، تفسير العيّاشي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.

٧. ابن كثير، أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٩٨.

٨. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م.

٩. ابن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، ط ٤، دمشق، ١٩٨٧.

١٠. ابن النديم، أبو الفرج، الفهرست، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢.

١١. ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٤.
١٢. الأزهري، محمد بن أحمد، معجم تهذيب اللغة، دار المعرفة، ط١، بيروت، ٢٠٠١م.
١٣. الأسترابادي، رضي الدين، شرح شافية ابن الحاجب، ص١١١، بيروت، ١٩٧٥م.
١٤. الأسترآبادي، الرضي، شرح الرضي على الكافية، مؤسسة الصادق، طهران، ١٩٧٨م.
١٥. بازركان، عبدالعلي، مجلة (آيينه انديشه)، العدد: ٨، مقال: (الهوى أو الهدى).
١٦. بازركان، مهدي، سير تحوّل قرآن، ط٥، شركت سهامي انتشار، ١٣٧٧هـ ش.
١٧. الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، دار إحياء العلوم، ط١، بيروت، ١٩٨٨.
١٨. البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت، ١٩٩٩.
١٩. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الفكر، ط١، بيروت، ٢٠٠٣.
٢٠. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، ط٣، بيروت، ١٩٩٣.
٢١. بدوي، عبدالرحمن، الدفاع عن القرآن ضدّ منتقديه، مكتبة مدبولي الصغير ط١.
٢٢. البرقي، أحمد، المحاسن، دار الكتب الإسلامية، ط١، طهران، ١٣٣٠ق.
٢٣. البعلبكي، منير، موسوعة المورد، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، ١٩٩٢.
٢٤. بوكاي، موريس، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦.
٢٥. بيضون، لبيب، الإعجاز العددي في القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ٢٠٠٥، بيروت.
٢٦. تاريخ جهان واسلام (١)، من كتب النظام التعليمي المقررة في إيران للمرحلة

الثانية من الإعدادية،١٣٨٧هـ ش.
٢٧. الجاحظ، عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، منشورات الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت، ٢٠٠٣.
٢٨. حب الله، حيدر، الاستشراق وتاريخية التفسير القرآني، مجلة المنطلق الجديد، العدد: ٦، لعام: ٢٠٠٣م.
٢٩. الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ط٣، قم، ١٤١٦.
٣٠. الحسكاني، الحافظ، شواهد التنزيل، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط١، طهران، ١٩٩٠.
٣١. الحكيم، محمد باقر، علوم القرآن، مجمع الفكر الإسلامي، ط٣، قم، ١٣١٧.
٣٢. الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي، قم، ٢٠٠٧م.
٣٣. الدعمي، محمد، الاستشراق الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ٢٠٠٦.
٣٤. الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام، دار الكتاب العربي، ط ١، بيروت، ١٩٨٧.
٣٥. الذهبي، محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ، دارالكتب العلمية، ط١، بيروت،١٩٩٨.
٣٦. الرازي، الفخر، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، ط٢، بيروت، ١٩٩٧.
٣٧. راميار، محمود، تاريخ القرآن، انتشارات أمير كبير، ط٤، طهران، ١٣٧٩ش.
٣٨. رشيد رضا، محمد، المنار، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠٢.
٣٩. الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار ابن قتيبة، ط١، ١٩٩٨.
٤٠. الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، ط٢، بيروت، ١٩٩٤.
٤١. الزمخشري، جار الله، الكشاف، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٥.
٤٢. الزنجاني، أبو عبد الله، تاريخ القرآن، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت،

١٩٦٩.
٤٣. الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ط ١، ١٩٩٨م.
٤٤. الساموك، سعدون محمد، مناهج المستشرقين، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد.
٤٥. السجستاني، ابن أبي داود، المصاحف، دار البشائر الإسلامية، ط ٢، بيروت، ٢٠٠٢.
٤٦. السعيد، حسن، المتظاهرون بالإسلام، دار الهادي، ط ١، بيروت، ٢٠٠٧م.
٤٧. السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، دار ابن كثير، ط ٣، بيروت، ١٩٩٦.
٤٨. شحاتة، عبد الله، علوم القرآن، مكتبة نهضة الشرق، ط ٣، القاهرة، ١٩٨٥.
٤٩. شديد، محمد، منهج التربية في القرآن، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ١٩٧٩.
٥٠. الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، منشورات مؤسسة الأعلمي، ط ١، بيروت، ١٩٩٧.
٥١. الطبرسي، أبو علي، مجمع البيان، مؤسسة الأعلمي، ط ١، بيروت، ١٩٩٥.
٥٢. الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، منشورات الشريف الرضي، ط ٦، ١٩٧٢.
٥٣. الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ٢، بيروت، ١٩٨٣.
٥٤. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار صادر، ط ١، بيروت.
٥٥. الطبري، ابن جرير، تفسير الطبري، مركز الدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ٢٠٠١.
٥٦. الطوسي، محمد بن حسن، الأمالي، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، قم، ١٤١٤ق.
٥٧. العقيقي، نجيب، المستشرقون، دار المعارف بمصر، ط ٤، ١٩٨٠.
٥٨. العهد الجديد، ترجمة عن اليونانية، دار الكتاب المقدس في العالم العربي.
٥٩. العهد القديم، ترجمة عن اللغات الأصلية، دار الكتاب المقدس في العالم العربي.

٦٠. الغزالي، مشتاق، مجلة مآب، السنة الأولى، العدد: ٣، مقال: الغرب وتاريخ القرآن الكريم.
٦١. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، انتشارات أسوة، ط١، قم، ١٤١٤ق.
٦٢. الفيروزابادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.
٦٣. الفيض الكاشاني، محسن، تفسير الصافي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
٦٤. قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط٢٤، بيروت، ١٩٩٥.
٦٥. القمودي، محمد، سموم الاستشراق، مجلة العربي، العدد:٢٧٣، السنة:١٩٨١م.
٦٦. القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت، ١٩٩١.
٦٧. مجلة مآب الفصلية، السنة الأولى، العدد الثالث، مقال: الغرب وتاريخ القرآن الكريم.
٦٨. مجلة الموقف الأدبي، العدد: ٢٢، سنة ١٩٨١م.
٦٩. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي، ط٣، بيروت، ١٩٨٣.
٧٠. المخزومي، مهدي، الدرس النحوي في بغداد، دار الرائد العربي، ط٢، بيروت، ١٩٨٧م.
٧١. المدرّس، علاء الدين، الظاهرة القرآنية والعقل، مطبعة العاني، ط١، بغداد، ١٩٨٦.
٧٢. معرفت، محمد هادي، تاريخ قرآن، وزارت فرهنك وإرشاد إسلامي، ط٩، طهران، ١٣٨٦ش.
٧٣. معرفت، محمد هادي، تلخيص التمهيد، مؤسسة النشر الإسلامي، ط٣، ١٤١٨هـ ق.
٧٤. مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف، دار الكتاب الإسلامي، ط٤، ٢٠٠٧م.
٧٥. المصري، ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٣هـ

٧٦. المفيد، محمد بن النعمان، مصنفات الشيخ المفيد، المسائل السروية،المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، قم، ١٤١٣.

٧٧. المفيد، محمد بن النعمان، الإرشاد، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ط١، قم، ١٤١٣.

٧٨. المقداد السيوري، جمال الدين، كنز العرفان في فقه القرآن، المكتبة الرضوية، طهران، ١٣٨٤ق.

٧٩. مكارم الشيرازي، ناصر، آيينه انديشه، العدد الثامن، بتاريخ: ١٣٨٧، موقع: (تابناك).

٨٠. المنجد في الأعلام واللغة، للأب لويس معلوف، ط٣٣، منشورات دار الشروق، بيروت، ١٩٩٢م.

٨١. المنتظري، حسين علي، من المبدأ إلى المعاد، تعريب: حسن علي حسن، ط١، المطبعة: قدس، ١٤٢٥هـ

٨٢. نوفل، عبد الرزاق، الإعجاز العددي للقرآن، المقدمة، دار الكتاب الإسلامي، ١٩٨٧، بيروت.

٨٣. نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، منشورات الجمل، بغداد، ٢٠٠٨.

٨٤. النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت.

٨٥. الهلالي، سُليم بن قيس، كتاب سُليم بن قيس، مؤسسة البعثة، طهران، ١٤٠٧.

٨٦. وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، دائرة المعرفة، بيروت.

٨٧. الوردي، علي، وعاظ السلاطين، دار كوفان للنشر، بيروت، ١٩٩٥م.

٨٨. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٣هـ بيروت.

89 - Luther King, Martin, A call to conscience, Warner Books, New York, 2001.

***

فهرس المحتويات

الإهداء ٥

المقدّمة ٧

الفصل الأول
موقع نولدكه في الدراسات الاستشراقية والقرآنية

١ - مدخل تاريخي لحركة الاستشراق ١٥

أ ـ الاستشراق لغة واصطلاحاً ١٦

ب ـ نشأة الاستشراق وتاريخه ١٨

ج ـ أهداف الاستشراق وغاياته ٢٦

٢ - المدارس الاستشراقية ٣٣

الاستشراق الإيطالي ٤٢

الاستشراق الفاتيكاني ٤٥

الاستشراق الهولندي ٤٦

الاستشراق الفرنسي ٤٨
الاستشراق الأمريكي ٥٢
الاستشراق البريطاني ٥٥
الاستشراق الإسباني ٥٦
الاستشراق الروسي ٦٣
الاستشراق الألماني ٦٨
٣- مناهج المستشرقين في دراسة الإسلام والقرآن الكريم ٧٨
٤- المستشرقون والأعمال القرآنية ٨٧
طباعة القرآن وترجمته في أوربا ٨٨
ـ الترجمة اللاتينية الأولى ٩٢
ـ الترجمة الإيطالية الأولى ٩٣
ـ الترجمة الألمانية الأولى ٩٣
ـ الترجمة الهولندية الأولى ٩٣
ـ الترجمة الفرنسية الأولى ٩٣
ـ الترجمة الإنجليزية ٩٤
ـ الترجمة الألمانية ٩٥
٥- (ثيودور نولدكه) في سطور ٩٧
أ ـ أعماله وآثاره ١٠١
ب ـ نولدكه والنص القرآني ١٠٥

ج ـ مدرسة نولدكه وتلاميذه ١١١

الفصل الثاني
ظاهرة الوحي عند نولدكه

١ - مفهوم الوحي ١٢١
أ- الوحي لغة واصطلاحاً ١٢١
ب- استعمالات الوحي في القرآن الكريم ١٢٢
ج- الفرق بين الوحي النبوي وغيره ١٢٥
٢ - الحاجة إلى الوحي ١٢٧
٣ - تطور الوحي في المفهوم الغربي ١٣١
٤ - الوحي الذي تلقاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ١٣٦
٥ - الأسباب الداعية إلى إنكار الوحي ١٤٤
- كيف آمن (نولدكه) بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله ١٤٦
- الطريقة التي تميّز النبيّ من المتنبّئ (المعجزة) ١٤٩
٦ - مذهب (نولدكه) في الإعجاز القرآني ١٥٢
أ ـ شهادة رؤوس المشركين بإعجاز القرآن ١٥٦
ب ـ محاولات فاشلة في معارضة القرآن ١٥٩
ـ محاولة مسيلمة الكذّاب ١٦١
ـ محاولة علي محمد الشيرازي (مؤسس البابية) ١٦٣

ـ واحدٌ وعشرون وجهاً بلاغياً في آية واحدة ١٦٥
ـ دور الفواصل الشعرية في القرآن عند نولدكه ١٦٩
٧- وجوه أخرى من الإعجاز القرآني ١٧٢
ـ الإعجاز العلمي ١٧٢
ـ الإعجاز الغيبي ١٧٩
ـ الإعجاز العددي ١٨١
٨- مصادر تعليم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ١٩١
اتهام (نولدكه) للنبي بالتأثر باليهودية والمسيحية ١٩١
بشارة الكتب المقدسة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله ١٩٧
ـ بشارة التوراة بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ١٩٨
ـ بشارة الإنجيل بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ٢٠١
ـ (الفرقان) كلمة عربية أم آرامية ٢٠٤
ـ (لا إله إلاّ الله) كلمة الإسلام ٢٠٨
ـ هل للبسملة أصل إنجيلي؟ ٢٠٩
ـ موازنة بين القرآن والأناجيل ٢١١
ـ موازنة بين القرآن والتوراة ٢١٢
نسبة الأخطاء التأريخية للقرآن الكريم ٢١٧
هامان وسفر أستير في مواجهة التحدّيات التاريخية ٢٢٣
تأثر النبي بالوثنية مصدراً ثالثاً للقرآن على زعم (نولدكه) ٢٣٨

بحث في معنى الجن ٢٣٩
٩- ملاحظات بشأن متفرقات تفوّه بها نولدكه ٢٤٣
أ- اتهام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالميكافيلية ٢٤٣
ب- اتهام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بضعف العزيمة ٢٤٧

الفصل الثالث
نظرية نولدكه في الترتيب الزمني لنزول القرآن

١- نزول القرآن ٢٥٣
٢- نماذج من الأحكام التدريجية في الإسلام ٢٦٣
٣- ترتيب السور في القرآن الموجود بين أيدينا ٢٧٥
٤- الأقوال في ظاهرة المكي والمدني ٢٧٩
٥- الأقوال في أوّل وآخر ما نزل من القرآن الكريم ٢٩٨
٦- الفائدة في معرفة ترتيب النزول ٣٠١
٧- ترتيب السور والآيات بحسب النزول الزمني ٣٠٥
٨- آراء المسلمين في بيان ترتيب النزول ٣٠٥
٩- آراء المستشرقين في بيان ترتيب النزول ٣٠٩
ـ محاولة جوستاف فايل ٣١٠
ـ محاولة ثيودور نولدكه ٣١١
ـ محاولة هـ جريمه ٣١٤

- محاولة وليم موير ٣١٤
- محاولة ريجيس بلاشير ٣١٥
- محاولة ريتشارد بيل ٣١٦
١٠ - عودة إلى منهج (نولدكه) في بيان ترتيب القرآن ٣١٧
١١ - بيان خصائص السور عند نولدكه ٣٥٤
١٢ - طريقة المهندس مهدي بازركان في بيان ترتيب النزول ٣٥٦
١٣ - الأرشيف الذي قدّمه النبيّ صلى الله عليه وآله لترتيب سور القرآن الكريم ٣٧٠
- الموقف الحكومي من هذا القرآن المؤرشف ٣٧٧
- مآل مصحف الإمام علي عليه السلام ٣٧٨
الخاتمة ٣٨٣
المصادر ٣٨٩
الفهرس ٣٩٥

***

إنّ شيخ المستشرقين الألمان لم يأت بجديد، سواء في تفسيره لظاهرة الوحي بشكلٍ عام، وظاهرة الوحي النازل على النبي الأكرم ﷺ بشكل خاص، أو في بيان ترتيب نزول الوحي، فقد كان فيما يتعلق بالمسألة الأولى سائراً على نهج المشركين والملحدين في عصر النبي الأكرم ﷺ في اتهامه بقول الشعر، وأخذه القرآن من غيره من الثقافات المعاصرة له من اليهودية والنصرانية والجاهلية، ولا يخفى أيضاً سير (نولدكه) في مسألة الوحي على خطى النهج العلماني والمادي الذي ساد الأوساط الغربية في حركتها المناوئة للميتافيزيقا بعد عصر النهضة. وحتى في هذه الحالة لم يرق إلى وضع النبي الأكرم ﷺ في مكانته المناسبة، وقصّر في تقييم الإنجازات التي حققها على المستوى المادي، ولذلك لا يمكننا أن نصنف نولدكه في عداد المستشرقين المنصفين...